



قصيدة الخفاء في البستوان

حبيب الله محمد أحمد



حاولت في هذه الدراسة أن أقدم صورة عن تاريخ الحضارة السودانية وذلك بتتبع النشاط الإنساني الذي مارسه إنسان السودان من فنون وعلوم وأداب وعمارة وعلاقات اجتماعية منذ أن وحد هذا الإنسان على الأرض وتتبع رحلته عبر القرون حتى عرف الاستقرار وخط لحياته أنظمة اجتماعية مختلفة حسب ظروف معيشته وإمكانياته الاقتصادية وشارك في الحضارة الانسانية والتقدم الاجتماعي والبشرى متمشياً مع الظروف الاقتصادية والإمكانيات الطبيعية والنظم الاجتماعية التي هي أساس كل تطور وتقدم وتوظيف تلك الإمكانيات لأي مجموعة من مجموع الناس .

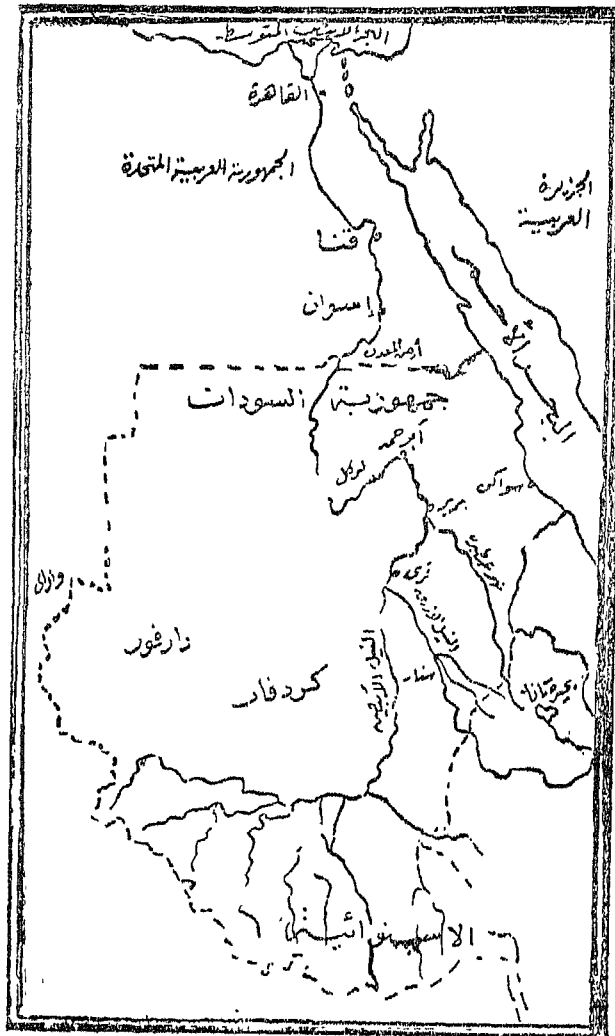
وقد استعنت بالمفهوم المادي للتاريخ للوصول لبعض الحقائق كما قمت بدراسة المنطقة المحيطة بالسودان وتتبع النشاط الإنساني فيها والبحث في تاريخها وما يربط السودان بها إذ توفرت لبلدان الشرق الاوسط دراسات طيبة في جميع مجالات النشاط البشرى .

وقد استعنت بالدراسات التي تتبع الحضارة الانسانية عامة والفرعونية في مصر في مجال العمارة والديانات والمعلوم وعلاقة هذه الحضارة بحضارة السودان واتصال تلك الحضارة بحضارة الفرس والاغريق والرومان كما تتبع تاريخ

قصة الحضارة في السودان

الفترة التاريخية
من ٣٤٠٠ ق.م. إلى ١٩٠٠ ميلادية

حسب الله محمد العبد



تصدير

منذ فجر التاريخ يقاس دور كل أمة من أمم العالم بأثارها وحضارتها وفتونها وعلومها والسودان كأمة من هذه الأمم له تاريخ حافل بهذه الأثار والعلوم والفنون غير أنه مشوب بشيء من الغموض لعدم الباحثين عنه وكل أمة لا بد لابنائها من بحث تاريخها وحضارتها ونشرها بوعي وتوضيح للعالم أجمع ولهذا الأسباب اجتمع طلبة شعبة التاريخ بجامعة الازهر بدار السودان بالقاهرة في يوم ١٢ ديسمبر سنة ١٩٦٤ م وأسسوا جماعة باسم د جماعة بحث التاريخ السوداني ، هدفها بحث التاريخ السوداني في ثوب جديد وتحقيق وتمحيص وقد ما كتب عن تاريخ السودان ونشره على نطاق واسع بإصدار كتيبات أو إقامة محاضرات أو ندوات أو رسائل :

وبدأت لجنة هذه الجماعة نشاطها لابرز أهداف هذه الجماعة بوضوح وجلال للمثقفين السودانيين وغيرهما حتى التفت حولها خيرة أبناء أمتنا العظيمة ومن بين هؤلاء المثابرين على العلم والمعرفة الاستاذ حسب الله محمد أحمد كما عرفناه فقد اتيجت لنا الفرصة بالتعرف عليه منذ عدة سنوات وبعد ان اشترك معنا في لجنة هذه الجماعة قد كشف لنا عن سجاياه نوراً وضياء وأدباً رائعاً حتى أحبه وأحترمه جميع أعضاء هذه الجماعة وكلهم يذكر نشاطه الجلم في ابراز وجه السودان القديم والحديث في عدة مجالات فقد دأب الاستاذ حسب الله منذ عدة سنوات على الكتابة في ميدانين هما التاريخ والأدب وقد القى عدة محاضرات بهذا الصدد وكتابه قصة الحضارة في السودان دليل على نشاطه وثقته في نفسه وحب لوطنه . فقد تناول الكتاب في مضمونه قصة الحضارة عن أقدم العصور من آثار وآداب وفنون وعلوم موضحاً معالمها الحقيقية من ٣٤٠٠ ق.م. إلى ١٩٠٠ م ويسكفيه غبطة ونفراً بأنه أول من طرق باب الحضارة في السودان ووضع فيها مؤلف خاص بها وها هو كتابه ، بسوط للقراء حسبهم مطالعته للوقوف على زواياه

والأفادة من بحر علمه الواسع . وهو كتاب يفيد كل طالب وقارىء وباحث
عن تاريخ الحضارة في السودان . وجماعة بحث التاريخ إذ تشد يد على يد هذا
الشاب المشابر للنشاط وتهنئة على هذا العمل الجليل الذى يعد مفخرة لسلك سودانى
يهمه تاريخ السودان وحضارته وتبحث كل مواطن على اقتناء هذا المؤلف .

وفى الختام . هذه أول تجربة تخوضها هذه الجماعة بإصدار هذا المؤلف .

وكل تجربة لابد أن يكون فيها نقص أو خطأ ولذلك تأمل الجماعة من
أساتذة الفكر والعلم والأدب في السودان وغيرهم ابداء النصيح والإرشاد لها
نحو الأمام قدماً لتخرج تاريخ السودان قديمه وحديثه في ثوباً يلتفت به .

امضاء

جماعة بحث التاريخ السودانى

القاهرة في ١٨ / ١١ / ١٩٦٦

﴿ مقدمة ﴾

كلمة للأصدقاء :

هذه الدراسة كانت التزاماً للأصدقاء أعضاء . عالم بحث التاريخ السودانى ضمن التزامات الأعضاء بدستور الجماعة بأحياء التراث السودانى وتقديم الدراسات السودانية فى هذا المجال .

وقد اخترت بعد حضورى للقاهرة أن أقدم الأصدقاء وللقرءاء دراسة يحتاج إليها كل قارئ ومثقف يود أن يلم بتاريخ الحركة الثقافية منذ أوائل القرن العشرين وذلك لـ لكثرة الإراء والأخبار القصيرة عن هذه الفترة . وقد بدأت فى جمع مادة عن تاريخ الصحافة فى السودان فى عام ١٩٦٤ بمساعدة الأستاذ الكبير د شاطر البصيلي ، وبمساعدة المسئولين بدار الكتب المصرية الذين سهّلوا لى مشكورين كافة المراجع وأمدوني بالفهارس .

وقد وجدت بعد مسيرة أربعة أشهر فى تلك الدراسة التى يجب أن تكون امتدادا لتاريخ ثقافى واضح المعالم وجدت للأسف أن الدراسات التاريخية السابقة لا تشبع حاجة المثقف لمعرفة تطور الحياة الثقافية فى السودان عبر القرون ولذلك وجدت أن كتابتى عن تاريخ الثقافة أو الصحافة فى القرن العشرين هى دراسة عن نهاية تاريخ مفقود المعالم ..

وأخترت عبء مسئولية تاريخية وفكرية ووطنية وهى ان أحاول أن أقدم صورة عن تاريخ الحضارة السودانية وذلك بتنوع النشاط الإنسانى الذى مارسه

إنسان السودان من فنون وعلوم وأدب وعمارة وعلاقات اجتماعية منذ أن وجد هذا الإنسان على هذه الأرض وتتبع رحلته عبر القرون حتى عرف الاستقرار وخط لحياته أنظمة اجتماعية مختلفة حسب ظروف معيشته وإمكاناته الاقتصادية وشارك في الحضارة الانسانية والتقدم الاجتماعى والبشرى متمشياً مع الظروف الاقتصادية والإمكانات الطبيعية والنظم الاجتماعية التى هى أساس كل تطور وتقدم ووظيفة تلك الامكانيات لآى مجموعة من مجموع الناس .

وقد استعنت بالمفهوم المادى للتاريخ فى هذه الدراسة وذلك باتباع النظام الاقتصادية للمجموعات التى عمرت أرض السودان وذلك أن النظام الاقتصادى هو الذى يوظف النشاط الانسانى ان كان فناً أو علماً أو إدارة .

وقد وجدت الدراسات التاريخية عن تاريخ السودان لانستطيع أن نعطي صورة عن تاريخ النشاط الحضارى أن كان فيما يختص بتاريخ الحياة الأولى لإنسان السودان أو فيما يختص بصورة المجتمع ومراحله وحركة الحياة اليومية والنظام الاجتماعى فيه ونشاط الانسان فى مجال العلوم والفنون .

وقد استعنت بالمفهوم المادى للتاريخ للوصول لبعض الحقائق كما كانت بدراسة المنطقة المحيطة بالسودان وتتبع النشاط الانسانى فيها والبحث فى تاريخها وما يربط السودان بها إذ توفرت لبلدان الشرق الأوسط دراسات طيبة فى جميع مجالات النشاط البشرى .

وقد استعنت بالدراسات التى تتبع الحضارة الانسانية عامة والغربية وفى مصر فى مجال العمارة والديانات والعلوم وعلاقة هذه الحضارة بحضارة السودان واتصال تلك الحضارة بحضارة الفرس والاعريق والرومان كما تتبع تاريخ

الحضارة العربية وأثرها على شرق السودان قبل ظهور الاسلام ثم جعلت من الدراسات الافريقية التي ظهرت أساسا لافريقية السودان القديم وحاولت أن أجد الصورة القديمة التي عاشت بعيدة عن أثر الحضارة الفرعونية وحاولت أن أشير إلى الحضارة الافريقية بما فيها من عبادات وفنون ونظم اجتماعية ثم تابعت تاريخ المسيحية في الشرق وفي وادي النيل والمهضبة الحبشية من خلال نشاط المسيحية في شمال النيل والمهضبة الحبشية استطعت أن أتوصل إلى حال المسيحية في السودان وما قدمته للسودان .

كما تابعت كل نشاط المسيحية وفكرة الدير والكنيسة ثم الاديرة التي قامت على النيل ودخل السودان ثم في النهاية ما أضافته هذه الديانة لحضارة الانسان السوداني وإلى الفرعونية والافريقية في السودان وما هي الاضافات التي أعطتها لذلك التراث القديم .

أما عن العرب فلم أكتفي بوجود العرب داخل السودان بل تابعت حضارة الاسلام وأسباب نزوح العرب من الجزيرة العربية والعوامل التي دفعت بهم إلى داخل القارة الافريقية مع دراسة للحركة الاموية والعباسية والفاطمية وأثر هذه التيارات في نزوح العرب إلى أفريقيا والسودان وأي هذه التيارات كان له النصيب الاوفر في طرد العرب من مواقعهم ودفعهم إلى أراضى جديدة مكرمين سياسياً .

ثم تابعت دخول الاسلام والعرب إلى السودان من كل الجهات من الشمال والشرق والغرب وحاولت أن أرسم صورة الامتزاج والاختلاط الذي تم بين العرب وسكان السودان ثم دخول الاسلام إلى السودان وبأى صورة دخل الاسلام وعلى أى صورة استقر حتى ظهور السلطنة السنارية وسلطنة

الفور ثم دراسة عن حال الثقافة والفكر في عهد السلطنة السنارية حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي .

كما أضافت إلى ذلك دراسة عن حال الثقافة العربية وتطورها في السودان ونشأة الصوفية في البلاد العربية وتاريخ وصولها إلى السودان مع مقارنة حال الصوفية بالسودان بالنسبة للصوفية الأولى وقماليهم وفكرها .

كما حاولت أن أتبع الصراع بين الأفريقية والفرعونية والمسيحية والعربية والاسلام داخل السودان حتى القرن التاسع عشر الميلادي .

وخلال هذه الدراسة قدمت بعض النماذج للحضارة الفرعونية من عادات وفنون وعلم مع محاولتي لتوسيع تاريخ الحضارة الفرعونية في السودان لعصور لم تنطرق لها الدراسات التاريخية السودانية . ثم أعطيت كذلك بعض النماذج للحضارة الأفريقية ودياناتها وعاداتها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية وكذلك بعض الأمثلة لحياة المسيحية من الانجيل والدراسات القبطية وتاريخ الكنيسة المصرية ورهبان وادي النطرون . ثم دراسة عن تاريخ الشعر العربي في السودان . بجانب الحياة الاقتصادية ونظمها وأثرها في هذا التاريخ الذي يمتد من ٣٤٠٠ ق م إلى ١٩٠٠ م .

وأنا أعترف للقراء والباحثين لقصر هذه الدراسة عن التوسيع والتعميق السكاني الذي يستلزم في مثل هذه الدراسة وعذري هو ضيق الامكانيات وعدم وجود الاستقرار السكاني حيث الالتزامات بالقاهرة لاترك للفرد الذي يحيا بالنشاط الاجتماعي والفكري أى طائفة لعمل آخر . وأمل أن تكون هذه الاعوام من الدراسة والتحقيق قد أرضيا الاصدقاء والباحثين في محاولة لاكتشاف تاريخ الحياة في السودان عبر القرون ..

آمل أن كانت هناك أخطاء أن يغفرها الأصدقاء ويكفيني حسن النية لأعطاء
حياتنا الثقافية بعض المجهود الجاد وآمل منهم تنورى للخطأ وأن كان هناك
اختلاف فى رأى فأمل أن يكون اختلاف رأى مسموح به فى مجال الدراسات
العلمية .

ولأصدقائى من رابطة رواد الأدب الذين يحبهم أحبيت الأدب والثقافة
أقدم هذا العطاء البسيط وللرفاق بجامعة بعث التاريخ السودانى بالقاهرة أقدم
هذه المشاركة البسيطة علما تكون حافزا للرفاق والزملاء لأعطاء الدراسات
السودانية المزيد من الاهتمام والتضحيات .

حسب الله محمد أحمد

عضو لجنة جماعة بعث التاريخ السودانى بالقاهرة
وعضو لجنة رابطة رواد الأدب بالسودان
وعضو اللجنة الخارجية لاتحاد الادباء السودانيين

السودان

أطلق اسم كوشى وأثيوبيا فى الصعور السابقة قبل الميلاد على الاراضى جنوب مصر وشرق أفريقيا ما بين خط عرض ١٢ و ٩ ولم يعرف اسم النوبة المطلق على جنوب مصر وشمال السودان حتى العصر الرومانى .

يخترق النيل أرض السودان من الجنوب إلى الشمال ، وتتميز المنطقة الشمالية منه بالاراضى الصحراوية شرقاً وغرباً ويضيق بشاطئى النيل وتقل الاراضى الصالحة للزراعة وتحوطه سلسلة الجبال والصخور .

والاراضى الزراعية الخصبة على النيل تتسع قبل التقاء نهر النيل ونهر عطبرة حيث تخصب وتتسع كلها سرت جنوبا وتمتاز أراضى الجزيرة الواقعة بين النيل الازرق والنيل الأبيض بخصوبة أرضها ومبساتها السكبيرة المتساوية وخلوها من الجبال والهضاب .

أما غرب النيل فتظهر فى شماله الاراضى الصحراوية وتظهر السافنا وتختفى كلها سرت إلى الجنوب . من أهم مناطقها منطقة جبل مره ووديانه حيث تزرع أنواع كثيرة من الحبوب والمحاصيل ، تربى الجمال والابقار فى اقليمى الغرب دارفور وكردفان . عمرته قبائل أفريقية قديمة اختلطت بالدماء العربية بعد ظهور الاسلام وانتشار العرب فى أفريقيا .

وجنوب السودان منطقة استوائية غزيرة الامطار والنباتات والادغال تسميها قبائل أفريقية قديمة وأقدمها الشاك .

اصل سكان وادى النيل

الرأى المتفق عليه بين علماء الأجناس بأن زحف الإنسان الأول بدأ شمال الجزيرة العربية . . وتكاثر البشرية . . وبدأ تضيق بالاقامة في مجموعات وبدأ جو الخلافات والمشاحنات يسودها . . ففضلت الترحال لاغيره باحثه عن أرض جديدة أو أرض منفصلة بكل مجموعة لتعيش في سلام . . نزح منهم الحاميون لجنوب الجزيرة العربية . . ثم رحل جزء من الساميين إلى أفريقيا عن طريق مضيق قناة السويس . . وذهب جنس لشمال الفرس فكون الجنس القوقازى كما تكون الجنس لإلادريانى من المجموعة السامية . . وإذا تتبعنا رحلة هذه المجموعات وكيف وصلت إلى أرض النيل في زمن كانت فيه الأرض مغطاة بغابات والوحوش الضارية . . وكان الإنسان ليس أقل من وحش ضارى . . قبل أن تظهر هذه الصحراء الأفريقية بشكلها الحالى الذى يكاد يخلو من نبات إلا في بعد الواحات والوديان . . واسكن وجود بعض الأشجار بمجموعة (*ACCACIA ARABICA*) أشجار الصندقات الأشواك والتي تعيش على ماء قليل يدل دلالة على أن الحياة كانت نامية في هذه الصحراء والوديان .

وفي هذا الزمن الأول تظهر لنا اتجاهات المجموعات البشرية الأولى في زحفها إلى أفريقيا . . فعند القرن الإفريقى . . تدفقت المجموعات الأولى إلى هضبة الحبشة في زمن ليس كزمننا ولا ظروف الحياة الآن . . إنما في ظروف تشبه إلى حد كبير حياة الغابة ووحشيتها . . ما يدفعنا للتساؤل عن الدوافع الأصلية إلى نزوح هذه المجموعات إلى أرض أكثر وحشية من التى كانوا بها . . حيث يحاول الحيوان أن يرحل من الأرض التى يتقدم فيها الإنسان أو يرحل الإنسان تاركاً الأرض للوحش وهى لاشك دوافع قوية ربما يكون منها اضطهاد المجموعات

- ١٤ -

لبعضها البعض بفعل التكاثر أو بظهور زعامات جديدة تود أن تخلق لنفسها عالمها الخاص . . أو حول زعامات قديمة لا تستطيع أن تقاوم الزعامات الجديدة أو بفعل ظروف طبيعية . . أو بفعل تصورات غيبية تسيطر عليها أو كانت تعتقد فيها تدفعها البحث عن أرض أطيب من يعيشون بها :

ومن هذا يتبين لنا أن النقل في تلك الأزمنة كان معناها الهروب من جحيم الإنسان المتوحش إلى جحيم الحيوان والطبيعة المتوحشة. ودخلت تلك المجموعات إلى أرض أفريقيا. جزء سار إلى داخل القارة عن طريق مضاب الحبشة المتوحشة وجزء سار متابعاً الشاطئ الشرقي لأفريقيا . . متوغلاً إلى الداخل حتى كون فيما بعد السلالات النيجية الحالية . . ثم طال الزمن بالمجموعات الأخرى حتى تصل أو تجد مكاناً تستقر به إلى أن هبطت من الهضبة الحبشية التي بطبيعتها أكثر وحشية من الوادي الذي يسكن أرض السودان . . ومن هذه المجموعات سكنت أول مجموعة على شاطئ البحر الأحمر مسكونة سلالات البجا التي ظلت تحتفظ بشكل سكان وادي النيل والتي يزعم المؤرخون وعلماء الأجناس أن الفراعنة من سلالة واحدة مع هؤلاء البجة . . لأوجه الشبه في كثير من الصفات الطبيعية في تركيب العظام والجمجمة خاصة .

ومن هذه الرحلة تدفقت المجموعات الغير مستقرة لتجد النيل مهداً صالحاً للاستقرار للصفات الكثيرة التي توفر جو الاستقرار والإقامة . . كما جاءت بعض الجماعات السامية من شمال أفريقيا عن طريق قناة السويس بعد ما انتشرت على شمال أفريقيا . . واسكن النيل كان أصلح تلك المناطق للاستقامة ولذلك سرعان ما كثرت به الجماعات واستقرت وعرفت أول معنى الاستقرار ومارست الزراعة بصفة طيبة . . وبدأت الحياة البشرية تتكون حياة بشرية لها معنى وطعم ومذاق .

وبدأ منذ ذلك الوقت مجتمع وادى النيل يتعقد وتظهر الرعامات وتكونت الطبقات الاجتماعية التي ظهرت بصورة سافرة في عهد الفراعنة . . . وظهر المجتمع الطبقي من ملوك . . . ومساعدتهم وجند وعبيد . . . وظهر الانسان الآله . . . في صورة فرعون مهتر الأول ولكن مجتمع الطبقات لا زال مجتمع الملوك والقواد والتجار والعبيد أو عميد المملكة الفرعونية من فلاحين وبقية الشعب التي كانت بوضعها الاجتماعي والديني هي خادمة الملك والمملكة . . . ومن هذا التركيب الاجتماعي القائم على السادة والعبيد الذي قامت على أكتافه أول حضارة للانسان على أرض النيل من عمارة وطب وفن وعلم امتدت من أرض الدلتا حتى وصلت إلى أرض الجزيرة وجنوب النيل الأزرق بعد قيام ملكة مروي القديمة .

نظرة على المجتمع الأول.

لنجعل تطور العلاقات الاجتماعية تتطورا للفكر ، وتتطور الحياة إذا تطور العقل وتتطور العلاقات حتى نستطيع من خلال تطور العلاقات أن نهصل إلى آخر مراحل التطور التي وصل إليها مجتمعنا اليوم على أساس أنه فكريا أكثر تطوراً من المجتمعات الأولى .

وإذا حاولنا أن نرسم صورة عامة للعلاقات في المجتمع الأول الذي استوطن أرض النيل ومساحات السودان الشاسعة علينا أن نتذكر مناخه في تلك الظروف الطبيعية التي مهدت لخلق مجتمع زراعي مستقر وظروف السهل مهدت لخلق الحياة البدوية والحياة الرحل التي هي أكثر مشقة وأبعد بكثير من حياة الاستقرار التي في ظلها يرتقى الفن وتتطور علاقات الناس .

إذا فالظروف الطبيعية خلقت لنا مجتمعين أحدهما مهدت له ليرتقى سلم

التطور خلال الاستقرار وآخر حرمة من هذا التطور ليعيش في حياة التنقل والترحال ويعاشر الطبيعة الام من غير لمسات الانسان المبدعة.

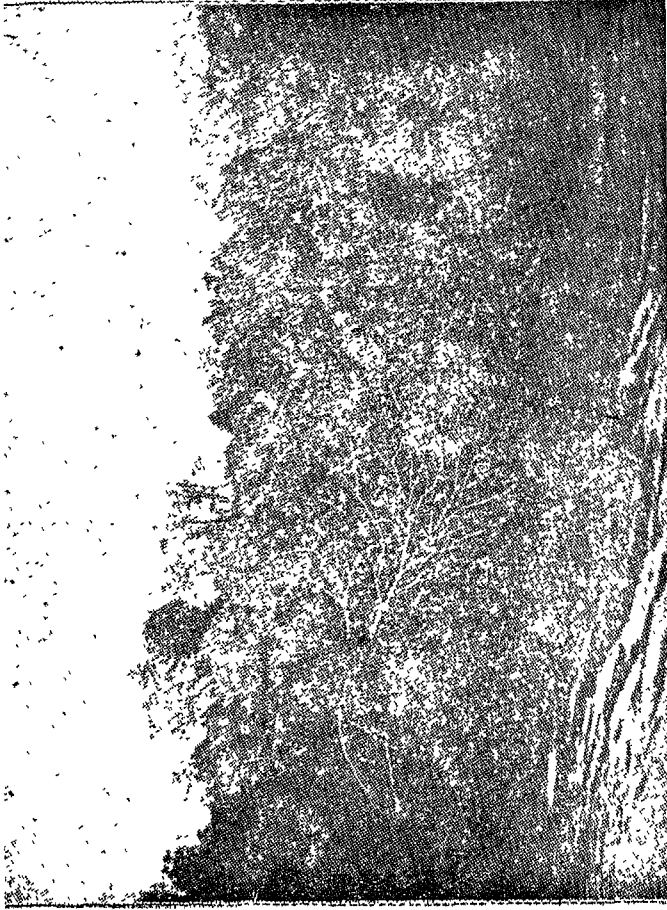
وإذا أردنا أن نلتبع هذه المجموعات سنجد سكان النيل عند البحر الأبيض المتوسط إلى داخل أفريقيا حيث ينتهى النيل عند بحيرة فيكتوريا . . هذا النيل كان معمورا بالحياة الانسانية حيث تختلف ظروف النيل وتميذه الحياة الاستقرار . ففي الشمال مهدت الظروف بعد هروب الحيوانات المفترسة وسهولة الأرض لتمييدها وصناعة العشش والمنازل مكن الانسان ان يستقر في الشمال نسبه للظروف الطبيعية الخشنة التي وجدها الانسان في أرض صالحة للزراعة بعيدة عن تجمعات الحيوانات المفترسة ولكن كلما سرنا للجنوب ظهرت الطبيعة الأكثر وحشية والحيوانات المفترسة حتى تدخل منطقة السدود بعد ملء كال حيث تتغير الصورة وتصح حياة النيل غير تلك في الشمال وتصبح لاختلاف في شئ عن حياة الغسابة إذا يصعب وجود سهل على ضفتيه بل أشجار غزيرة وحشائش كثيفة مهدت لتأخر تطور الانسان الذي سكن نيل الادغال فلم يفده النيل في شوء ولم يقدم له أى مساعدة كما قدم للإنسان الأول الذي استوطن شمال النيل .

هذا تصورنا للحياة الطبيعية في أرض السودان قبل مئات الآلاف من السنين بأن شكل اراضية لم يكن كالآن ، فأرض الجزيرة كانت عبارة عن مستنقعات والصحراء الكبرى التي تغطي نصف مساحة السودان وتزحف كل يوم إلى إلى الجنوب لم تكن موجودة بهذه الصورة وإنما التغيرات الطبيعية التي حدثت للمكرة الارضية هي التي مهدت لهذه الصحراء أن تمتد كل يوم إلى داخل القارة

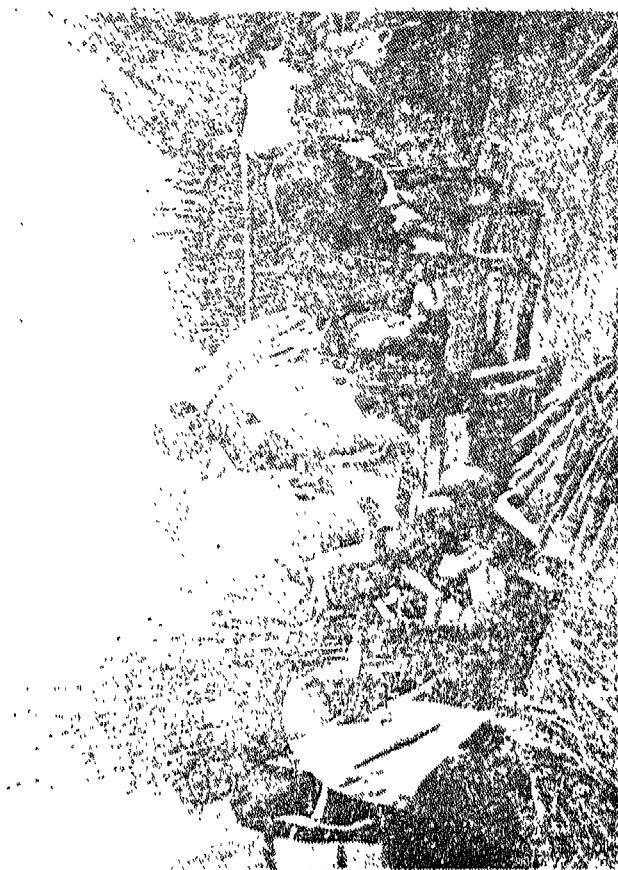
— ١٧ —



تمثال أمنحوتب الثالث — بقايا آثار مملكة نبتة (القرن الثامن قبل
الميلاد عند جبل البركل)



الطبيعة هي أساس الفن والعمران والتقدم . . . وقتت هذه الأشجار الملتحمة هذه
قدرة الإنسان لتطويع الطبيعة لمنفعته والاستفادة من خيراتها في جنوب النيل .



انسان الغنيل في جنوب السودان (افراد قبيلة الشلك) استغلوا ذخيرات الطبيعة في
اعالى النمل للسكن بدل الصلصال والحجارة تناسب مناخ الجنوب



بحيرة نو والطبيعة الغنية في الجنوب كانت خيراتها للبشر
أكثر من الإنسان

مغيرة على كل حى . . واقفة ضد حياة الحياة النباتية فى الصحراء . وبشكل الصحراء الحالى لم نستطيع أن نكتشف الحياة البشرية التى كانت فى كثير من السهول القديمة والتى تقطعها الاراضى الصحراوية اليوم كانت بها حياة بشرية وكانت بها مدنية . هذا ماتخفية الرمال . . . ولكن كثير من الدلائل والآثار برهنت على أن هناك حضارات وحياة انسانية كانت فى هذه الصحارى بعيدة عن النيل . . . وأن الرمال قد دفنت هذه الآثار التى يصعب العثور عليها الآن حيث يصعب التفتيش فى مكان معين إلا إذا حفرنا كل الصحراء لتحديثنا عن اسرار الماضى . . . ولكن ما اكتشف على بعد كبير من النيل بقرب منطقة النوبة يدل على أن هناك حضارة وحياة بشرية كانت قائمة بعيدة عن النيل اندثرت بفعل الرمال المتحركة التى تستطيع أن تغطى قرية بحالها فى ليلة واحدة .

هذا بالتالى يجعلنا نسأل أو نتصور أن هناك تجمعات بشرية كانت فى هذه الصحراء خلاف التجمعات البشرية الموجودة الآن أو من بداية تاريخ حضارة النيل قبل ثلاثين قرنا قبل الميلاد .

ونحن نعرف أن تجمعات البحر الاحمر البجعة الان كانت موجودة من قديم الزمان فى هذه البقعة ثم جاءت اليها مجموعات أخرى بتقدم الزمن . . ولكن هذا لا يعطينا من تصور بتجمعات فى تلك الرمال التى قضت على حياة كثيرة كانت نامية من قبل .

وهذا لا يمنعنا أيضا من تصور مجموعات فى الغرب أنت عن طريق ليبيا ونحن نعرف حسب الحفريات الأخيرة بأن هنالك كثير من المدنسات، قامت بعيدة عن النيل . . وإن العنصر الليبي لم تكن حدوده الاراضى الحالية . . وربما بعض الاكتشافات التى تجرى الآن فى الصحراء غرب أرض النوبة وبمشر بعض التقارير الأولية التى أرسلتها البعثة السوفيتية أن هناك حياة

بشرية ومدنية قامت بعيدة عن أرض النيل كان للرياح الرملية الأثر الأول لدثر تلك الحياة .. وتتصور حياة بشرية غرب النيل اندثرت أو هرب أصحابها للغرب وتوغلوا حتى غرب أفريقيا وعمروها يجهلنا نعمتقد أن كثير من الهجرات والرحف داخل أفريقيا جاء من شمال أفريقيا وسهول النيل .

وإذا أردنا أن نحصر السلالات البشرية التي سكنت أرض السودان بعد هذا التوضيح فنجد النوبة وهي القبائل السمرات التي سكنت النيل . أو (تينا سو) أو (أنيويا) كما كانت تسمى سابقا .. إذا كان هذا الاسم يميز سكان جنوب النيل عن سكان مصر الافتح لونا .. وما عدا ذلك فهم نوبة أو اثيوبيين . إذ النوبة في الوقت الحاضر أرض صغيرة تمتد شمال حلفا إلى أرض السكوتوز وجنوبها إلى أرض المحس — في حين كانت كل هذه الاسماء الآن غير موجودة قديما فلم يكن في الشمال قبائل محسية أو تنقلاوية أو شايقية أو عبدلاب أو ميرفاب أو جعلين أو بشارين أو شكرية .. إذ كان اسم كل هذه المجموعات هو أثيوبيا .. هذا بالنسبة للتاريخ القديم والتسمية التي عثر عليها أهل التاريخ .. ولكن حقيقة هل كان كل سكان النيل جنوب أرض النوبة الآن هم عنصر واحد ونحن نعرف أن الليبيين كانت لهم غزوات هناك وكانت قبائل كثيرة تجارر النيل كما أن سكان البحر الأحمر كانوا يزحفون على النيل .. ونحن نعلم من ذلك أن مجتمع القبلية والعصبية الذي عاش على أرض السودان لم يكن موجودا في الفترات القديمة .

لم نزعفنا الآثار القديمة أو المخطوطات التي وجدت في معرفة شكل المجتمع القديم .. لقد كان هنالك ملك أو من ينوب عنه في المناطق الكبيرة .. ثم تتدرج السلطة حتى تصل إلى مرتبة الشيخ الآن . ولكن هذا المجتمع الصغير الذي كان يرأسه الشيخ هل كانت تربطه ووح القبيلة أم روح السلطة والملاكية إذ كان الشيخ هو أكثر مجموعته غنا وعبداً وسلطة .. مجتمع صغير يقوم على الرهبة ولا يقوم على الولاء الطبيعي للقبيلة كما كان مفهومه عند العرب .

هذا المجتمع الصغير الذى يرأسه الشيخ أو أغنى هذه المجموعة الصغيرة كان يكون الشكل العام للمجموعة كلها .. ويمثل هذا المجتمع الصغير كخادم لذلك الملك يعطيه كل الولاء والتقدير اذ يقوم الملك وأعدائه برعاية شئون العبادة وتوظيف الكهنة والاهتمام بهم .. وهذا ما كان يحتاجه الانسان ليملا به حيرته وتساؤلاته فى الالتجاء الى شىء فوق قدرته .

ولكن بصورة عامة يمكن أن نتصور حياة هذه الحضارات الكبيرة التى عاشت على النيل خلال البحث عن العلاقات فيها ومن خلال هذه التجمعات الصغيرة التى تعطى السلطة للملك الذى هو سيد الكل والذى أحكامه لا اعتراض عليها من رؤساء المجموعات الصغيرة أو المجموعات الاكبر ومن أعدائه ومدبري شئون مملكته .

ومن هذا نستطيع أن نقول أن حياة الاثيوية وهو الذى سكن أرض النيل فى أرض النوبة الحالية حتى أرض الجزيرة حيث تمتد من هناك مجموعات أخرى ثم مجموعات البحر الأحمر البهجة والمجموعات التى سكنت سهول النيل الأزرق لم يعرف عن تاريخها القديم أى شىء حتى الآن واسكنها لا شك هى جزء من السلالات الحبشية التى امتزجت بالعناصر العربية أخيرا وتنقلت مع مجرى النيل الأزرق أو مع انحدار الهضبة الحبشية .

تطور المجتمع الزراعى الاول

لو عدنا مع الزمن آلاف السنين بل قبل الميلاد ونظرنا إلى أرض السودان سنجد أرض النيل بها جماعات مستقرة تعيش في مجموعات بخلاف المجموعات الأخرى التي تعيش في السهول والوديان .

بما يعطيه المجتمع الزراعى من استقرار للفرد . . . وهذا الاستقرار يعنى استقراراً في الحياة المعيشية في المقام الأول وضمان وجودها بقرب الأرض . . . هذا الاستقرار المعيشى سيوفر للفرد مجالاً آخر للتفكير والترويح والترفيه عن نفسه بعد مشقة العمل . . . كان الانسان مزارعاً لم تكن الزراعة يشكّلها الحال بل ربما كانت الزراعة اليدوية هي أن يلتقط الحبة ويغليها بالتراب ثم تتطور وبدأ يعمق لهذه الحبة بعد أن رأى الطيور تأكل الحبة والديدان تفسدها . . . ثم الأعشاب التي بدأت تنمو على الزراعة فتعوق نمو عودها وثمارها ، ففكر في إذالتها . . . ثم رأى أن يده تتعب من حفر الأرض فبحث عن عود بدل يده . . . ثم بدأ يشكل هذا العود يستعمل رجله لأن الانحناءة تتعبه . . . ثم كثرة المجموعات فأصبحت الأرض المروية بسيطة . . . والنيل بعيداً عنها . . . ففكر في الشاتوف فهذا كان آخر ما وصل إليه في دنيا التطور والزراعة .

بعد أن صنع الشاتوف وصنع السلوكه ومحراث الخشب الذى يحجره آخر . . . وطورية الخطب . . . والجاروف . . . ثم طور المحراث الانسان إلى محراث تجره الحيوانات بأن ربط المحراث إلى الثور أو البقرة . . . وبذلك وفر جهداً جسمانياً عليه . . . فأصبح عنده شاتوفاً ومحراثاً . . . وطورية وسلوكه — هذه كل معدات الزراعة الأولية بعد تطور المجتمع وحتى وصل إلى حضارة الفراعنة .

ثم كانت الافات الزراعية الكثيرة منها الطير والزرزور والجراد وفرس البحر

كلما تفتك بزوجه الأمر الذى فرض على الانسان أن يفكر وان يبدع حتى يقاوم الطبيعة . . . ففرس البحر كان موجوداً على طول النيل . . . وخروجه بالليل يعنى إفساد مزرعته بكاملها وضربها بالمحصول على مالكة . . . فلا بد للانسان أن يفكر للتخلص من هذا الوحش الذى لا يرحم بمجهود الياى والأيام وتعب الزراعة والرى والنظافة . . . يأتى عليه فى ليلة واحدة . . . ففكر فى حفر حفرة عميقة يغطيها بالاغصان والاعشاب وعندما يأتى ليلا هذا الوحش يقع فى هذه الحفرة وبذلك يسهل قتله أو حرقه .

ثم كان أمر السكن فاستعمل الاغصان فلم تفلح فى هذا الطقس الجاف صيفاً وشتاءً . . . ثم فكر فى بناء منزل من الطين ربما أخذت التجربة الأولى عشرات الاشكال وفشلت المحاولات الأولى أكثر من مرة لعدم وضع أساس للمنزل كاية أو بدرجة عميقة أو لعدم معرفة خايط الطين جيداً . . . أو لعدم معرفة عرض سمك كمية الطين . . . للطوف ، — أو ربما لعدم اعطاء الطوف كمية كافية من الجفاف حتى يضع عليه الطوف الثانى — ثم كان أمر عرشه كيف يعرشه . . . طبعاً لم يفكر أن يضع عليه ساق شجرة طويلة فى أول الأمر . . . عشرات المحاولات والتجارب حتى انتهى إلى ساق شجرة طويلة ثم تخطيطها بالاغصان والاعشاب والطين . . . وهذه المنازل الطينية على النيل الآن هى خبرات عشرات الآلاف من السنين بدأها الأولون ثم يضيف إليها كل جيل بعض التعديلات . . . ربما لم تكن بها نوافذ فى بداية الأمر لأنه لم يعرف كيف يصنع النوافذ ويضع لها أخشاباً من فوق ويقطع الطينه وهى لينة . . . ربما كان الأولون يفتحون النوافذ بفتح ثقب بأى آلة وى وسيلة .

ثم تطور الزمن فعرف أن ساق الشجرة ربما سقط عليه وضربه . . . ولذلك فكر فى وجود آخر يضعه تحته . . . هذه الإضافات أنت لاشك بمرور الزمن . . . فلزمن طويل لم تكن هنا لك أبواب كالتى نعرفها اليوم فالنجارة لم يتفرغ ،

لإليها أحد كما أن آلات النجارة لم تكن معروفة والحديد لم يكن بالوفرة اليوم
لصنع المناشير والفارات وخلافه من أدوات النجارة .

لو حاولنا البحث عن شكل العلاقات بين هذه الجماعات التي سكنت النيل
وملات ضفافه كيف كانت في البداية . . لاشك أنها لم تتمركز في نقطة واحدة ثم
انتشرت شمالا وجنوب . . بل كل مجموعة . . سكنت بعيدة عن الأخرى لانعرف
عنها شيئا في بداية الأمر . . ثم كان أمر هذه الجماعات الصغيرة المنزلة في
البداية لاشك ستختلف بينهما بعض الخلافات . . وتضع لها قوانين ففيها
الكسلان . . وفيها الأحمق . . وفيها العاقل . . وفيها كل ضعف البشرية
هذه الجماعات كان لابد من وجود مدير بينها ليحكم في خلافاتها . .
ربما في البداية شخصيته وشجاعته وقوته هي التي فرضت نفسها على المجموعة .
وبذلك أصبح مهبطا من المجموعة لأنها تحتاج إليه لحمايتها من الأشرار من
أفرادها . . ربما يظهر زعيم آخر له نفس القوة فيحدث القتال بين الاثنين فيفرض
القوى سيطرته ومشورته على الآخرين . . ومن خلال هذه التجارب أدرك
الإنسان حاجته لزعيم . . ومن هذه الحوجة كان الزعيم . . وتطور الحال
وأصبحت هذه الزعامة وراثية بعد سيطرة فرد وأسرتة على كل مشاغب ومغامر . .
ومحاولتها لحفظ النظام والأمن للمجموعة . . الأمر الذي جعل للمجموعة أن
تنترك لها هذا العبء الثقيل وتتولى مصادمة الشر والخارجين عن النظام . . ثم
كان أمر هذه الأسرة المسيطرة بعد عشرات السنين . . بعد أن تمسكت من فرض
السيطرة على المجموعة . . وشعورها أن المجموعة ترهبها . . وإنما تقدم خدمات
المجموعة . . فلا بد من أن تقدم هذه المجموعة مقابل هذه الخدمات . . ربما
تتولى المجموعة المساعدة في زراعة حقول هذه الأسرة . . وحصدتها . . أو دفع
شيء من حصادها لهذه الأسرة التي بدأت تأخذ صفة الأسرة المالكمة أو زعيم
القبيلة أو المجموعة . . وظهرت الضريبة على المجموعة في شكل خدمات أو عطاء

— ٣١ —

في بداية الأمر .. واستمر الحال عند هذه المجموعة الصغيرة حتى قويت الأسرة المتزعمة .. وبدأت تفرض شروطها وآراءها على الجماعات .

وبشكل هذه المجموعة تكونت على النيل أعداد هائلة من المجموعات . . . ولكثرة سكانه . . وانتشارهم على النيل والبحث على ضفافه عرفوا أن هناك مجموعات تعيش بالقرب منهم وبدأت الغارات بين هذه المجموعات في شكل سرقات بسيطة من أفراد ضالين مطرودين أو من الجماعات نفسها . . . أو زعيمها . . . إذا رأى عند الجماعة الأخرى خيرا أكثر . . . وبدأت هذه المجموعات في الاحتكاك ببعضها ونهب بعضها . . وبذلك أصبحت شخصية الزعيم أكثر ضرورة لتنظيم الدفاع والهجوم وتعويض الأسر المكمومة أو المنهوبة .

وظهرت مجموعة كبيرة بين هذه المجموعات سمعت لإنها بعد هذا الاحتكاك . . وغلبها لمعظم هذه الجماعات أن تفرض سيطرتها على المجموعات الأخرى بالقوة . . بعد أن أخضعت المجموعات القريبة منها استغلتها لأخضاع المجموعات الأخرى وبذلك ظهر مجتمع الدولة الأول على النيل بحكم زعيم أكبر مجموعة . . . يساعد في إدارة مملكة زعماء المجموعات الأخرى . . وأصبح يطالب هؤلاء الزعماء ببعض الضرائب لحاجته للمال لإدارة شؤون رعيتة وتكوين جيش وصنع سلاح وللتفرغ لهذا العمل الجديد . . وبالتالي . . لم يرى زعماء الجماعات غير رعاياهم ليتحصلوا منهم هذه الضريبة . . وأصبح هؤلاء الزعماء في مركز أقوى بالنسبة لجماعتهم . . وذلك لمساندة الملك لهم . . وأنهم أصبحوا يمثلون الملك . . وما كان على الجماعة المغلوبة التي تحارب الطبيعة في آفات وحشراتا وطيورها من الخضوع لهذا التنظيم الجديد الذي يعيش على ما تبقى لهم من آفات الطبيعة . . فقد كانوا يساعدون الزعيم . . فأصبحوا يساعدون الزعيم والملك . . وأعوان الزعيم وحراسه .

وبهذا الشكل تكون شكل الدولة الاول . . . وظهرت الملكية في مناطق متعددة من النيل . . أصبحت كل مملكة تتربص بالمملكة الأخرى . فقد كانت التجربة الأولى هو تغلب مجموعة كبيرة على مجموعات صغيرة . . والاستعانة بها في التغلب على المجموعات الأخرى ولكن التجربة الجديدة هي الشعور بالمعرفة بوجود مجموعات متحدة في شكل مملكة .. وبدأ الاعتداء الأول في محاولة إحدى الممالك في السيطرة على مجموعة من مجموعات المملكة الأخرى .. ربما تخضع المملكة التي أخذ منها جزء من مجموعاتها لضعفها .. فلو سكنت فيعين ذات أن المملكة التي فازت على الأولى ستحاول أن تفرض سيطرتها على المجموعات التالية حتى تأتي على مجموعة الملك نفسه . . وإذا لم ترضى المملكة المجاورة بالتجربة الأولى فستكون الحرب . وربما يكون هناك صلح أو ربما لا يكون وفي النهاية هو إخضاع مملكة لأخرى ..

وبهذا الشكل تتوسع المملكة .. ويصبح الملك المهزوم مندوب الملك الغالب أو ربما يعين خلافة أو أحد أفراد مملكته . . وبالضرورة أصبح لهذا الملك جيشة ونظام لإدارة مملكته التي توسعت .. وبهذا الشكل قامت على النيل ممالك مختلفة .. هذا بالنسبة للمجموعات التي في أرض السودان . . أما المجموعات التي في أرض مصر . . فيبدو أنها كانت أقوى من مجموعات السودان وظهور الملكية في مرحلة أبعد من مرحلة السودان .. وربما أقوى .. ولذلك زحفت سيطرة مصر على مجموعات السودان .. وفرضت عليها سيطرتها . . وديانتها . . وأصبحت هذه الممالك السودانية تابعة للمملكة المصرية الفرعونية بعد قرون طويلة من النضال والبحث عن بعض .

ونحن لانستطيع أن نتحدث عن حال المجموعات التي حكمها المصريون لأن الوثائق القديمة غير كافية حتى الآن ولكن ما يهمنا الآن هو بداية استغلال المملكة السودانية عن المملكة الفرعونية . . وتزعم هذه المملكة القوية

— ٢٣ —

على ممالك السودان . . . وفرض سيطرتها حتى على مصر .. ومحاولتها طرد
أعداء مصر من الليبيين وقبائل أرض فلسطين والقبائل الآتية من الشمال وذلك
منذ القرن الثامن قبل الميلاد .

وقبل البحث عن تطور هذه المجموعات الحضارية والثقافية حتى
القرن العشرين نود أن نعرض مرة أخرى إلى المجموعات الأخرى التي تسكن
بعيدا عن النيل حتى تكمل صورة المجموعات التي كانت تملأ أرض
السودان الحالي .

* * *

مجموعات السهول

يذكر التاريخ الحديث لنا أسماء قبائل عديدة تسكن السهول شرق النيل وأخرى غرب النيل وأخرى جنوب النيل .

هذه المجموعات التي تسكن الشرق الآن مثل العبادية والرشايد والشكرية وبني عامر والامرار والبطاحين وكلها أسماء حديثة وعربية وهي أسماء أتت بعد الإسلام .. فقد كانت هذه القبائل المهاجرة التي استوطنت أرض السودان والنصف الشمالي من أفريقيا هي أول من سكن هذه السهول والوديان والأنهار أم كانت هناك مجموعات قبلها .. وهل كانت هذه المجموعات رعوية أيضا .

عرفنا قديما بأن أرض السودان لم تسكنه المجموعات النيلية وحدها . بل هناك مجموعة أخرى على ضفاف البحر الأحمر .. وهي البجة .. ولكن لو حاولنا أن نبحث عن بداية حياة هذه المجموعات هل كانت رعوية . وهل محاولة رعاية الحيوانات تأتي بدون مقدمات وتأليف هذه الحيوانات وكيف الفت .. وأين كان أصل هذه المجموعات .

بدأت لاشك هـذه المجموعات بالزراعة على الأنهر الكثيرة الساقطة من الجبال والوديان تحت الهضبة الحبشية وجبال البحر الأحمر .. وبدأت الإنسان يدرك هل أسهل تأليف الماعز أو الأسد أم الحمار فوجد أن الماعز أفضل لأنها تحتاج للعشب في حين يحتاج الأسد للحم .. لحمه أو لحم الماعز .. ولذلك فضل الإنسان تأليف الحيوانات التي يسكن أن ترعى .. ويأتى لها بالعشب في مكانها في البداية حتى ألفت عليه .. وتوالدت وكثرت .. وبذلك بدأ الإنسان يبحث عن مرعى لماشيته التي كثرت وأصبحت تعطيه اللحم واللبن والشحم

ونحمله . . وثقله . . حتى توسع في الاستفادة منها في المقايضة بها في مقابل حاجياته الأخرى كالملابس والملح وخلافه .

عرفت السهول السودانية الجبل منذ قديم الزمان قبل الإسلام والمسيحية . . وكانت هناك مجموعات تعيش على زراعة الوديان والأنهار ورعى الماشية . . هذه المجموعات كانت أكثر شراسة من سكان النيل ولذلك لما نفرسه الحياة المدنية والعشرة مع مجموعات على تلطيف طباع الإنسان . . ووجوده في مكان دائم يجعله يفكر باستمرار لتحسين أحواله وأدواته . . أما ذلك الراعى فلا أنيس له الا تجمع أسرته في الليل . . وماشيته طول النهار لا هم له إلا البحث عن مكان أخضر . . وصيد الحيوانات المفترسة عنها فقد عرفت هذه السهول كل الحيوانات المفترسة والاليفة كما أن هذا الراعى لا يحتاج لأدوات كثيرة ليستعملها أو لمسكن دائم يفكر في تحسينه . . فالماشية تعطيه وبرها وجلدها ليصنع منه منزله المتنقل ونعله . . وأثناء لبنه ومائه .

قد عرفت الأبل من قديم الزمن وربما الأبل التي استعملها الفراعنة أخذت من هذه المجموعات التي ترعى شرق النيل وضياف البحر الأحمر

ولكن كيف تكونت هذه المجموعات وما هي القوانين التي سارت عليها في رقيها وتطورها . . لاشك أن تجمع هذه المجموعات في مجموعات كبيرة لا يختلف في شكله عن المجموعات النيلية وحوجتها لها — هذا التجمع حتى أضع بفرديتها . . فكانت المجموعات أسر صغيرة كبرت — وأصبح لها زعيم تحكم إليه . . ولا شك أن لا كبار القوم بين هذه المجموعات كانت له فائدة أكبر ليعرف تاريخ الماشية . . وطباع الناس . . وأصبح للشيخ بين هذه المجموعات تقدير خاص لأنه يستطيع أن يكشف تاريخ كل فرد ويمتلكه . . فلا يستطيع أحد أن يستولى على حق آخر مدعياً ملكيته . . لأن هناك رجل عجوز يعرف حق كل فرد . . ولم يكن لهذا الشيخ من الجماعة أى ولا غير الطاعة وسمع الأمر . . وكانت تخرج هذه المجموعات في زمن الصيف باحثة من مرعى . . فكانت تلتقى في الوديان

بمجموعة أخرى تشاركها نفس المرمى .. ربما تتمسب صاحبة الحق الأول في المرمى في طرد الأخرى أو ربما ترى صاحبة العدد الأكبر طرد الضعيفة .. ولذلك كانت حياة هذه المجموعة مخوفة دائماً بجوار القتال .. بالعصى والحجارة والسيوف أخيراً والتي تفتنوا في صنعها وتشكيلها كالخنجر .. ثم السكين .. والحرب .. وهذه أكثر الأدوات تطوراً التي استعملتها الجماعة الرحل فهي لم ترى البندقية إلا بعد الفتح التركي والتي كانت تملكها قبل ذلك هم الزعماء للارهاب فقط أما بقية الجماعات فقد كانت تخاف منها وترهبها ويفزعها منظرها .

بتجاوز القبائل الرعوية .. والصداقات التي كان يعقدها شيوخ القبيلة والزواج من مجموعة مع مجموعة أخرى لتوثيق هذه الروابط . جعل الكثير من المجموعات الصغيرة لتسكون مجموعات كبيرة .. كان لشيوخ القبيلة أو زعمائها الرأي والحكم النهائي في كل خلاف .

لم يكن لهذه المجموعات عمل ملاً فراغها وينهمك قواها كالمزارعين .. ولذلك فكرت في ألعاب الفروسية والمبارزة والصيد والقتال والسباق .. وتطورت في فن هذه الألعاب الفروسية ولكنها لم تحاول غير ذلك إلا بعد زمن طويل ودخول مجموعات جديدة تحمل حضارة جديدة ورأت أشياء جديدة أو سمعت بها .

هذه الألعاب الوحشية زادت من طباع البدو وحشية فالقتال وعشقه هو الرجوع بالإنسان لحياته البدائية .. فالإنسان في تطوره يتخلص من حياته الوحشية والبدائية الأولى .. والفروسية وقتل الآخرين ما هي إلا أشباع للاخلاق البدائية .. والتمتع والتباهي بقتل إنسان من أجل الرياضة لا يعد تطوراً مهماً كانت الصفات الرجولية التي تطلق عليه .. فالرجولة ليست في خلق مباراة لقتل إنسان آخر إنما الرجولة في تقديم الأعمال الكبيرة للآخرين

ومساعدة الغير ونكران الذات والتجلى بالأخلاق السمحة النبيلة .. أما الدعوة لاراقة الدماء فليست صفة من صفات الانسان المتمدن .. وابقاء هذه الصفات بين العرب الرحل أسباب كثيرة منها عدم حياة الاستقرار لتهدئة رحشمية الانسان .. وعدم اختلاطه بانماط من الناس يختلفون عنه في تفكيره وعاداته ليقتبس منهم . فكل الذين يعيش بينهم ويعاشرهم هم عرب رحل .. كلما أظهروا غلظة أبدى غلظة أكثر منهم وكلما أبدوا ليناً ظن ذلك جبناً .. فحتى الحلم لا ينفع في البادية .. فالحليم جبان .. والذي يكره قتل انسان من أجل نعمة قبلية يعد جبناً . وكل من يكره القتال وألعاب الفروسية ليس برجل .. ولذلك حكموا بالتقاليد على مجتمعهم أن يعيش في جو من القيم البدائية التي تحبذ القتل . وتقف حتى الان ضد رقي الانسان وتلطيف طبائعه الوحشية لأن الخروج من هذه الوحشية يعد عيباً وانحداراً بالرجولة لا تطويراً للانسان الحديث في أفكاره ومشاعره وأخلاقه وعاداته ومعاملاته .

ظلت طبيعة الارض عنصراً مساعداً على انتشار الوعي وحياء البدو فالسهول الشرقية الغنية بالأعشاب والوديان والأشجار والنباتات المختلفة طيبة أيام السنة ساعدت مجموعات السهول الشرقية في السودان أن يحترفوا مهنة رعى الماشية والابل .. بل أضاف أجدادهم مهنة الزراعة البسيطة ببذر الذرة على ضفاف الأنهار دون مجهود ليجد الطبيعة تكفلت بنمو هذه الحبوب .. حيث لم يفكر هذا المبتذل في صنع آلات زراعية عميق من ثقله وثقل علميه حمولته أثناء زمن الصيف والتجوال والبحث عن مرعى جديد .

تكاثرت هذه المجموعات في عشرات الآلاف من السنين قبيل الميلاد على السهول الشرقية .. وحيث كثرة التنقل وعدم الاستقرار لم يخضعوا لنظام دولة لها نظامها الثابت وإدارتها المركزية .. وهذا التنقل كان حائلاً دون قيام دولة مركزية لهؤلاء الرحل حيث تحتاج الدولة لمساكن دائم .. واستقرار ورعايا

لهم أما كن محدودة أما هؤلاء .. فيصعب التحكم فيهم ومعرفة أما كنهم فتارة هم في الشرق على جبال البحر الأحمر وتارة قرب النيل أو نهر عطبرة أو الشمال داخل أراضي مصر ولذلك نشأ عندهم حكم يسائر هذه الظروف هو حكم القبيلة وزعيمها الذي تخضع له القبيلة حيث يرحل معها يحتكم اليه أفرادها في حقوقهم .. ويتزعمهم في حالة الاعتداء على أحد منهم أو الاعتداء على القبيلة أو ما شئت .. وكان يجب أن يكون هذا الزعيم صاحب حكمة وشجاعة وفوة ترهب كل مشاغب وتردع كل خارج على قانون القبيلة والجماعة .

كما أن طبيعة الأرض الموحشة أو تلالها الصخرية .. وأشجارها الشوكية وحيواناتها الموحشة والمفترسة المتعددة — التي تحيط بحياته هذا البدوى جعلته يعيش في حالة موحشة وطبائع أقرب الى طبائع الحيوان المفترس .

أما جنوب ملتقى النيلين الأبيض والأزرق فقد كانت تسكن هنالك القبائل الزنجية في طبيعة محاطة بالأشجار المتعددة .. والأمطار الغزيرة .. والنباتات السميكة التي تغطي السهول وصفاف النيل كما تعيش الحيوانات المفترسة بكثرة أكثر من الشمال مما جعلت المجموعات أن تقضى جلي تفكيرها في صنع أسلحة قتل هذه الحيوانات أو لايجاد مساكن لا تقترب منها هذه الحيوانات .. والأعشاب التي كان يحوطها سور من الشوك السميكة لا شك كانت منازل هذه المجموعات حيث يصعب على الحيوانات المفترسة ليلا أن تقتحم هذه الأشواك السميكة .

الحضارة قبل القرن الثالث الميلادى

الحضارة هذا التاريخ المجيد . وهذه الآثار الرائعة وتلك النهضة التي قامت على أرض النيل والفرات والبحر الأبيض المتوسط . . هذا الماضى العظي الانسان قام على أكتاف العبيد والفلاحين والعمال .

استنفذ المجتمع القديم طاقات هذه الطبقات من الفن والعمارة ومن أجل هذه الآثار الرائعة التي قامت على أيادى البوسماء والمنبوذين . . كانوا هم مصدر الدخل وهم المواهب التي تعمل . . كان المجتمع القديم يختلف في استغلاله لطاقات هذه الطبقات عن المجتمع الرأسمالى أو الملكى الحديث الذى يدخر خيرات هذه الطبقات لمنفعته الشخصية للمذات الدنيا . . على أن يعيش هو في مستوى معيشى من المتع والسكاليات وتعيش الطبقات الأخرى صانعة الانتاج محرومة من معظم الضروريات . . في حين تكس خيراتهم معطلة أو تستغل لاستغلال مجموعات أخرى . . أما المجتمع القديم فان لم يختلف في تركيبه عن مجتمع العبودية والطبقات اليوم في كثير من الصور والتفاصيل إلا أنه اكتشف الفن . . هذا التراث الذى نقف حياله اليوم مبهورين مقدرين نبوع الاقدمين ومواهبهم . . اكتشف المجتمع القديم الفن عن طريق العبادات . . فقد ولع بتقديس الآلهة التي اخترعها .

ومبالغة في تقديسها سخر المجتمع القديم كل طاقات المجتمع لتخليد هذه الآلهة . . وكان هذا التخليد وسيلة الفن . . مجتمع عاش على السيادة . . سيادة الملكية والمعابد وكنية المعابد والطبقة الممتازة لخدمة الملكية والمعابد . . أم بقية خلق الله فقد كان نفاية ، وخادم لاسعاد هذه الطبقات .

— ٤٠ —

إنسان من نوع آخر ليس من فصيلة هذه الطبقات التي تسيطر على مقاليد الحكم والمعابد . . . كمان هنالك العبيد في كل من حضارة الفراعنة أو الرومان والأغريق أو الآشوريين . . . وكمان هنالك الفلاحين الغلابة المساكين وكان هنالك العمال أساس الانتاج والابداع . . . لأن الأقدمين وخاصة الأغريق عدوا أهل الحرف من أهل الفن منهم التجارين والحوذية والبنائين وكل الفعلة . . . وهى نظرية سليمة لأن كل عمل يدوى كمان يحتاج لروح فنية حتى يصبح عملاً مقبولاً تروح النفس إلى استعماله ومعاشرته .

هذا هو وضع الحضارة التي قامت في العصور القديمة والتي تعدها البشرية اليوم بعصور الابداع وعصور النبوغ الانسانى .

هذا هو أصل تلك الحضارات قام على اكتاف العبيد وحصاد الفلاحين وإنتاج وابداع العمال . وعاشت الطبقات العليا في القصور والمعابد تنحطل لهذه الطاقات الانسانية وتقسوا عليها . . . حتى بنت الأهرامات والمعابد والقصور التي تقف اليوم أمامها إجلالا وتقديساً .

جلب العمال من شتى أنحاء البلاد بلا رغبة أو أجر وسبق الفلاحون بالآلوف لنقل الأحجار وتكسيدها . . . وأرسل عشرات الآلاف يبحث عن الذهب ونقل خيرات الطبيعة إلى القصور والمعابد لتجميلها وتزيينها بأيدي هذه الطبقات المنبوذة .

هى تخلق الفن . . . يقبل الفن . . . وهى ترفض . . .

تشيد هذه الأيادى الهزيلة المريضه بالانيميا والعرى تلك القصور والمعابد والتماثيل . . .

— ٤١ —

وتبقى التماثيل لتعيش حضارة الفراعنة .. وتذهب الملايين ضحية لتلك الحضارة التي قامت على أسوأ صورة من صور الاستغلال .. والاضطهاد .. والتسخير ..

وكما جلب الفلاح والعامل المصرى جلب الفلاح والعامل السودانى وكما سخر المواطن المصرى كعبد سخر المواطن السودانى كعبد لذلك النظام .. القائم على تحالف البلاط الفرعونى وكهنة المعابد ..

وقد أخذ الفلاح السودانى من أرضه مثل الفلاح المصرى قسرا إلى مواطن العمل عاملا أو عبدا بلا أجر أو رعاية إنسانية تقابل هذا المجهود الذى يبذله لارضاء طموح البلاط الفرعونى وأنكار رجال المعابد والحاشية ..

وقد أخذ هؤلاء المساكين لا عن طريق التطوع أو التجنيد واسكن عن طريق جنود الملك ، سيقوا كعبيد لا عن طريق الشراء أو البيع ولكن عن طريق وضع اليد .. أى عدد تغير عليه شلة من الجنود المستعبدين تستولى عليه لينضم إلى عبوديتهم وربما خرج منهم عبد مبرز فى فنون القتال .. وعاد رسولا يقيّد أبناء طبقتة عبدا حسب الأوامر الصادرة إليه من البلاط أو السكينة تحت ذلك النظام وتلك الحضارة التى قامت على النيل والى أولعت بالمعابد والمقابر والتصور والى يهجز دخلها على الانفاق على تلك المشاريع الفنية الضخمة ..

كان لابد من السخرة والتسخير .. كان لابد من إيجاد عدد هائل من العمال المهرة وغير المهرة من أرض النيل ليعملوا على تشييد مئات المعابد والتصور والآهرامات التى قامت على النيل .. وبذلك وربما لأول مرة فى التاريخ تنشط حركة العمل بتلك الصورة .. واسكنه عملي بلا أجر عمل السخرة ..

حيث كانت موارد الدولة من الاقطاع والضرائب لا تكفى للانفاق على نفقات البلاط .. وكان لابد من إيجاد المال وإيجاد العمال بدون أجر .. وبذلك خلقت طبقة العبيد بالضرورة وطبقة العمال بدون أجر بالنسبة لموارد الدولة القائمة على الضرائب وعلى المحاصيل الزراعية .. وفي أى عصر كانت الضرائب الزراعية وكافية لمقابلة نفقات الحكم والإدارة .

ولذلك كان السودان بالضرورة مصدراً من مصادر القوى العاملة كعبيد أو عمال أو فلاحين وقع عليه حظ وضع اليد .

ثم أصبح السودان مورداً للمواد الغذائية بعد أن ماتت الملايين من الأيدي العاملة من المزارعين في إنشاء تلك المياني .. وهذا هو السبب المباشر الذى جعل ذلك النظام المسمى الاقطاع القائم على حضارة العبيد والسخرة أن امتد رويدا رويدا للجنوب حتى جاء زمن كان هذا النظام وحاجة اقتصاده للمكانيات المادية الجديدة والموارد الجديدة ليقى ذلك النظام الحضارى القائم على اقتصاد الاقطاع أى الضرائب الزراعية .. كان لابد حين تعجز إمكانياته عن تحقيق أحلامه وأفكاره وقطاعاته وولعه بالآلهة وطلبات الآلهة الفنية من أن يبحث عن موارد جديدة وهذه الموارد الجديدة لم يكن لها غسير طريق واحد هو طريق التوسع والاستيلاء على أراضى جديدة بما فيها الأبدى العاملة .. ولذا جاء زمن كانت الحضارة الفرعونية قد وصل نفوذها إلى أرض الجزيرة حيث ماتت هنالك بين السهول حين فقدت أدواتها الفنية للتشييد والبناء من الأحجار والمواد الصالحة للتشييد ، مثل تلك الآثار العظيمة التى عاشت عشرات القرون وستعيش عشرات القرون .

هذا كان أحد الأسباب بدفع الحضارة الفرعونية لتعتمد فى أرض النوبة لتبتلع كل شمال النيل ثم تلتفت جنوباً وتقيم المراكز والمناديب وتخلق

— ٤٣ —

الأمادات والممالك الصغيرة حتى جاء زمن أصبح الجنوب أكثر غناء آمن الشمال الذى يستهلك طاقت البشر فى البناء والتشييد بروح السخرة وفقد الأيدي العاملة فى الزراعة من أجل المعابد والقصور وصار اقتصاد يعتمد كلية على خيرات الجنوب الذى صارت فيه نفقات البناء والتشييد بأقل قدر من النفقات وقامت فيه عشرات المعابد والقصور وسكن بتكاليف أقل من فى الشمال وهنا الفرع وهناك الأصل .

وحين جاء القرن الثامن قبل الميلاد كانت أرض النوبة والبركل وجنوبها قد دبّت فيهما الحياة وفشطت فيهما الحركة والعمل وأستغلت الأيدي العاملة البشرية أقصى استغلال لأنتاج أكبر قدر من العمل البشرى . . وكان لابد لجنوب المملكة الذى أصبح اقتصاد الدولة الأم يعيش عليه عيشة كاملة ويطالبة كل يوم بالمزيد . . بالمزيد . . حتى جاء اليوم الطيبى فى أن أن يعجز لإقتصاد الجنوب ويعلم التردد . .

ولذا بالجنوب فعلا يعلن التمرد وتظهر أول دولة وصلنا من المعلومات مايسكشف لنا عن شكلها وقوتها وترك لنا من الآثار مايسكشف لنا عن نشأتها وقوسها وتكوينها وهى دولة نبته التى ظهرت فى القرن الثامن قبل الميلاد .

بظهور ملك نبته (البركل الآن) وقد أمثلت خزانته وقوى جيشه وأصبح فى وضع يسمح له أن ينفصل من الأمبراطورية الأم التى ساءت حالتها الاقتصادية ودب الضعف فيها وأصبحت لا تجد من الموارد مايعيد لها شبابها وقوتها الأولى وأصبحت قوتها فى هذه الاجنحة التى رفعت عصا العصيان بعد أن أصبح استغلالها أمراً مستحيلاً .

هكذا القانون واضح فى كل الحضارات والنهضات التى قامت بها الدول

والمجموعات خلال تاريخها الطويل.. فلومحسنا عن سبب نهضة الأغريق أو الرومان في يد حفنة من التجارة والبيوت وكانت التجارة والبحر هي عصب اقتصاد و انتماش حياة تلك الحضارة وكذلك الحال عند الاشوريين فقد وجدوا خيرات نهري دجلة والفرات فأستغلوا خيرات هذه الأراضي الخصبة وماجاورها حتى أمثلت خزائن تلك الحضارة ..

ثم جاء وقت إستنفدت فيه تلك الحضارات كل طاقات هذا العمل التجاري وهذا الاستغلال الطبيعي القائم عن سيادة طبقة أو مجموعة من السادة على العبيد والفلاحين والعمال .. وحين لم تجد تلك الحضارات روافد جديدة لتغذية إقتصادها وقف نمو حضارتها التي هي في حقيقتها مشاريع غير إنتاجية لاتأني بدخل أو عائد .. والصرف عليها كان يجب أن يقوم في تلك العصور على ذلك النوع من الاستغلال والستخرة .. وهذا ما حدث في أرض النيل . وسنرى ذلك في تاريخ الاسرات بشئ من الإيجاز معتمدين على دراسات الحضارة المصرية ومنقولات المتحف المصري للآثار وبمجموعة الكتب التي لخصت هذه الفترة من تاريخ السودان القديم بتاريخ الاسرات .

وهي المجموعة (١) (أ) من عام ٣٤٠٠ ق . م إلى عام ٢٧٢٠ ق . م

المجموعة (ب) من عام ٢٧٢٠ ق . م إلى ٢٣٢٠ ق . م

المجموعة (ج) من عام ٢٣٢٠ ق . م إلى ١٦٠٠ ق . م

(٢) حضارة كريمة

(٣) دولة كوش القرن الثامن ق . م ٨٠٠ — إلى ٣٥٠

ميلادية .

ثم بعد ذلك انتهت الممالك الفرعونية بعد عام ٣٥٠ ميلادية ليدخل السودان في العهد المسيحي .

ونعود مرة أخرى لنقف على بعض التفاصيل البسيطة التي وصلت إلينا عن أمتداد الحضارة من الشمال للجنوب وازدهار هذه الحضارة خلال تلك الحقبات الخمسة التي بينها ثم نقف على آثار تلك الحضارة من الفن والعمارة ونرى .. اتجاهات هذا الفن وفي أى الأغراض وجه واستعمل ..

المجموعة (أ) من عام ٣٤٠٠ ق م إلى ٢٧٢٠ ق م

هذه أول مجموعة أثبتها المؤرخون في تاريخ السودان القديم وعلاقتها بالحضارة الفرعونية .

جعل المؤرخون بداية الحياة من جديد بعد الطوفان لوادى النيل بعام ٦٠٠٠ قبل الميلاد إلى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد حيث بدأ العصر الفرعونى بعد شبابه وتسكوينه وتظهر الحضارة الفرعونية على أرض النيل ولما كان هذا الجزء من تاريخ الحضارة المصرية الأولى فيحسن أن نربط بين الحضارتين أو نتحدث عن حضارة وادى النيل ككل حتى تتفتح لنا الصورة لتلك النهضة وذلك التوسع في تلك المصور البعيدة التي نتصورها والوقوف عند بعض الحقائق العلمية لها يمكن أن يجعل من تاريخ تلك الحقبة صورة استثنائية حلوة المذاق يعشقون الأفكار غير المألوفة .. وهذا هو الجانب الممتع في الحضارات القديمة وذلك الخليط من التقاليد والمعتقدات التي تبدا لنا دهشة وغريبة :

وتدخل الدولة السودانية الأولى أو أرض د ناهسو ، كما كانت تسمى أرض النيل جنوب أسوان .. تدخل هذه الدولة من ٣٤٠٠ ق م إلى ٢٧٢٠ ق م

يدخل هذا الجزء من تاريخ السودان مرحلتين من مراحل الحضارة المصرية
 إتفق على تقسيمها إلى مجموعات الأسرات : ومنها الدولة القديمة أو الم.
 (٥٠٠٤ — ٣٠٦٤ ق . م) أو دولة منف من الأسرة الأولى إلى الأ.
 العاشرة ثم تدخل في الدولة الوسطى أو الطيبة الأولى تبتدىء من عام (٦٤٠
 — ١٧٠٢ ق م) أو دولة طيبة وتبتدىء من الأسرة الحادية عشر وتنتهى
 الأسرة السابعة عشر :

زعم المصريون القدماء أن أصلهم جاء من تسعة آلهة خلقت « نو » المحيط الآ.
 مكان الآلهة رع « آلهة الشمس في باطنه ثم ظهر هذا السكون فبسط النور على السه.
 والوديان وطرده الظلمات وقسم هذا السكون إلى ماء ويا بسة . ورأت الآلهة
 هذه الأرض عند بدايتها كما خلفها « نو » .

رأت الحياة بدون حياة ولانباتات وزرف الدموع السخينة التي نزلت
 من عينيه الزرقاء وخلقت الدموع الحيوانات والنباتات .. ورأى الأرض
 منبسطة .. فظهر الآلهة « شو » ورفعها على ذراعية الجبلتين .. وجعل لها الجبا
 أوتادا وأعمدة لتساعد على تماسكها .. وبانت الأرض .. حسب ما وصل إل
 تفكيرهم في الوجود بأنها عبارة عن صندوق مربع قائم على أعمدة من الجبا
 قفطية المياه من كل جانب قاعدته هذه اليابسة ..

وعندما توصلوا لخلق الحياة على هذا المنوال خلقوا حسب نفوسهم وأعماله
 آلهة الخير لتقابل الأيام والفصول والحوادث الطيبة . وكان هذا شيئا ضروريا
 بأن يخلقوا الرمز لسلوك تصوراتهم التي يجب أن يجدوا لها مدلولاً ومفهوماً .
 وجعلوا الآلهة « رع » آلهة الشمس حاكما على الأرض . وجعلوا إقامته في عين
 الشمس وفكره أنه لا يمكن أن يعيش وحيدا فجعلوا له رعيتة . يخرج عند شروق
 الشمس الصافية في زورقه تصبح حاشية من الآلهة .. طائفا بالأرض ناشرًا حكمته

ونصائحهم على رعاياه في كل الأرض .. مسديا لهم النصيحة والخبرة .. حتى
ركب الشيطان رأس خادمته « ايزيس » لتفكر في أخذ الطاسم السحري الذي
ورثه عن والديه الذي يضمن لحامله الملك الذي ورثه عن والديه ويحفظه من
الضرر والاذى .. ونجحت خادمته في سرقة الطاسم السحري حتى ضعفت سلطة
رع الأرضيه وتجمع البشر خلفه .. وعندما شعر « رع » بذكران البشر الخبير
وأبوته جمع الالهة غاضبا من البشر وحكموا على البشر بالقتل ونولى الالهة هاتور
تنفيذ وصية الالهة.

وبدأ في إرسال الاوبئة لفتك البشر .. ومازال هاتور يفتك بهم حتى اشفق
رع صاحب القلب الطيب على نكبه البشر من هاتور .. فانقذهم .. ثم صعد
على ظهر بقرة إلى السماء .. ثم تستمر سلسلة الالهة التي تصورها الانسان القديم لتقف
مكان الحقيقة ثم جاء « اوزيريس » من سلالة رع فاحبة الشعب واحبه رع وخلفه
ملكاً على مصر ثم تزوج اوزيريس باخته « ايزيس » وجعلها شريكته في الملك
وعلم المصريين الفلاحة وأخترع لهم الآلات الزراعية وعلمهم ايزيس الطحن بالرحى
والغزل بفسح السكتان ومبادئ السحر والطب وسنت لهم قوانين الزواج الشرعى .
ووضع لهم اوزيريس السكتب والطقوس والقوانين الدينية وبنى طيبة وقيل
ولد فيها ..

ثم دخل الملك إلى ايزيس ورحل عن بلاده مع بعض الالهة على شعوب
الأرض الأخرى يعلمهم ما علم المصريين . ثم عاد إلى مصر فدبر له أخاه بتفنون
آلهة الشر وقتله غدرا .

وكان لاوزيريس طفل حين قتل يدعى حوريس وعلم الطفل بعد أن كبر بقصة
مقتل والده اوزيريس على يد عمه « بتفنون » .. وأضطرب للتمنازل عن أرض

الدلتا فانقسمت مصر بعد ذلك إلى مملكتين الأولى الوادى وهى واقعة بين منف والشلال الأول وكانت من نصيب العم ، بتفون ، والاخرى الدلتا وكانت من نصيب حوريس ثم جاء الى أرض مصر إسرطان عظيمتان حكمتا مصر وأمتد ملكهم الى الفرات شرقا وإلى الحبشة جنوبا وربما كان المقصود بالحبشة أرض السودان رغم قدم حضارة الحبشة .

واشهر ملوك هاتين المملكتين « توت » الذى علم المصريين الكتابة والبحث فى أحوال الفلك وأوجه القمر وحركة الشمس وقسم السنة الى أيام وشهور وفصول .. فصل التخضير (نمو الزرع) وفصل الحصاد وفصل الفيضان وسمى شهور السنة بأسماء الآلهة فجعل الشهر الأول توت والثانى بابه والثالث هاتور .

وظلت مصر تحت حكم الآلهة الذين كانت السلطة فى أيديهم ثم بعدهم الجنود ثم بقية السكان من فلاحين وعمال وعبيد ..

وزاد ظلم الكهنة واستبدادهم حتى ظهر ديمينا ، وحرض الجنود على الكهنة حتى اعتزفوا به ملكا .. وبذلك تغير نظام الملك على وادى النيل وأصبح الكهنة يساعدون الملك بعد أن كانوا هم يصرفون الملك وعمقوا فى تلك الفترة التى حكموها فكرة الآلهة وعقائبا وابتدعوا ما شاء لهم خيالاتهم من الآلهة حتى جعلوا لكل شىء إله وظل هذا التأثير الأول والايما ان المطلق بالالهة هدف صنع واختراع دولة الكهنة الأولى وظل هذا الاعتقاد قرونا طويلة حتى جاءت المسيحية ثم الاسلام .. وقد امتد هذا الايمان بالالهة على طول النيل حيث امتدت دولة الآلهة ثم المملكة المصرية التى توسعت لتتلى حافات العمرات التى قامت فى وادى النيل لتخليد الآلهة والموتى .. وبما ساعد الى خلود الايمان بالآلهة أن الملوك بعد تنازل الآلهة عن الملك جعلوا للملك نفسين أحدهما سيدة الدلتا والاخرى سيدة الصعيد .. وان الملوك يتناسلون من الشمس .

هذا المفهوم الدينى الذى عمق بين عامة الشعب من رجال حكام. وكهنة
تفرغوا للتفكير الدينى جعل الشعب فى حالة سلبية لأى ظلم يقع عليه.. فلا يصح
أن يخضب العميد من الكهنة والملوك آلهة كما علموا واعتقدوا وبذلك سخر
شعب وادى النيل لخدمة الالهة وجعلوا كل البشر عبدا لهؤلاء
الملوك والالهة.

هذا هو النظام الملكى الذى شب على أرض وادى النيل.. حد من أى
تمكيد للتمرد عند الناس وجعل من ملوكه آلهة وخلق أساطير الالهة لهم.. وهى
أخطر فكرة لتشل حركة الناس ضد الظلم ويبدو أن كهنة القرون الوسطى فى
أوروبا قد استلهموا هذه الفكرة ووقفوا حائلا بين تمرد الشعوب الأوروبية على
ظلم الاقطاع الاوربى وجعلوا هذا الظلم من مشيئة الرب.. وجعلوا الملوك
أبناء الرب المختارين وأى تمرد ضد هؤلاء الملوك إنما هو تمرد ضد الرب حتى
وصل هذا الظلم لرجال خرجوا من الكنيسة وحطموا هذا الاعتقاد وأنقذوا
البشرية من سباتها لضلال كهنة القرون الوسطى مثل مارتن لوتر.

ثم ظهرت عبادات الحيوانات على يد الملك كاكرو واشتهر العجل « أيبس »
فى منف ثم بقية أراضي النيل وزاد حب المصريين بملوكهم بعد عهد الملك ميتوتريس
الذى سن القوانين وأباح للنساء حق تولي الحكم.. وجعل الملك نائب الالهة
وابن الشمس.

تطور الفنون ونشأتها في السودان

نشأة الفن الأول

لقد تحدثنا عن نشأة المجتمع البدائي وعليها الان أن نتحدث عن نشأة الفن وبدايته أو الفن البدائي .. في الرسم والنحت والموسيقى والرقص والغناء .

لو حاولنا أن نبحث عن أى نوع من أنواع الفنون لاكتشفها الإنسان الأول ، بين الرسم والنحت والموسيقى والغناء . فلاشك أنه قد توصل إلى واحدة تلو الأخرى .

لا نستطيع أن نكتشف هذا الفن الأول إلا إذا وضعنا في إعتبارنا نظرية وهى أن كل الفنون تخضع للإمكانات الطبيعية .

الفن هو الإنسان ذاته إذ أن الإمكانات الطبيعية التى حوله بما فيها من نباتات وإمكانات اجتماعية وحضارية الخ .

فلو حاولنا أن نطبق هذه النظرية على الفنون البدائية الأولى لنكتشف أى

ين استطاع أن يكشفها الإنسان دون غيرها فسوف تقدم الرسم والنحت على
الفنون الأخرى لأنها أخذت في طورها الأول تقليد الطبيعة من الصورة
أنطبع في ذهن أو محاكاة الطبيعة .

أما الموسيقى فقد كانت تحتاج إلى آلات وإحساس أدهف وكذلك الرقص
نما يحتاج لامكانيات حسية وفنية في الإنسان لم تمكن قد تكونت بعد في
الإنسان الأول الذي عاش وحيداً بين الادغال والحيوانات ، يفترسها
ترسه لا فرق بين ، حياته وحياتها غير بعض التصرفات العقلية التي كان يأتي
أوى يأوى إلى كوخ من البرد والحر والمطر أو يختبئ من الحيوانات أو في
ية صيد حيوان قوى .

هذا الإنسان الأول ترك لنا آثاره على السكوف والصخور تلك الآثار
اتنا فكرة عن مقدرة الإنسان الأول على محاكاة الطبيعة إلا أن معظم المؤرخين
بحاولوا أن يبحثوا عن الفنون الأولى التي نشأت كالرسم أو النحت بل
معظم المؤرخين مع النحت وذلك للآثار التي وجدت أما الفنون الأخرى
لم تخلف تراثاً مادياً فلم يحاولوا أن يبحثوا عنها كالموسيقى والرقص وإنما
تغوا بتطور هذا الفنون بعد تطور النحت وهي مرحلة بعيدة في حياة الإنسان
نارية .

كانت ظروف الإنسان الأول تهيئة للرسم قبل النحت فالنحت عملية
ب من الرسم وذلك للمواد التي تستعمل في كل من الحالتين. فقد تعلم الإنسان

الأول الرسم بالصدفة . . . جلس على شاطئ النهر أو تحت شجرة وبدأ يخط بيده على الأرض . . . أشكالاً غريبة غير مقصودة ووجد نفسه أنه يعمل أشكالاً على الأرض لم يحدد ماهيتها وبدأت هذا الخطوط على الأرض تأخذ شكلاً آخر في ذهنه ، بعد أن كانت عملية عضوية أو حركة غير مباشرة من يده بدأ يوظف هذه الحركة لتقليد شيء مما يراه أمامه . . . وهو بلا شك لم يخلق شكلاً جميلاً به كل المقاييس الفنية ولكنه استطاع أن يرسم الشكل الذي أراده إن كان لشخصه أو لحيوان أو شجرة أو طير . . . وبدأت له هذه العملية جميلة تملأ فراغه وتشغله وصار يمارسها كلما وجد الوقت والمسكان المناسب لهذه العملية .

بعد أن توصل الإنسان بالصدفة بتخطيطه على الأرض إلى الرسم توصل كذلك على النحت على الحجر بعد أن جرب إمكانياته على تقليد الطبيعة وحين اضطرته الظروف إلى الاحتماء بالكهف لم يمارس النحت في بدايه أمره لملاً الفراغ الذي يحتويه بل بدأ يلعب على الأرض يخط أشكالاً غريبة أو مقصودة لمظاهر الطبيعة ثم اكتشف وجود حجر حاد بجانبه فبدأ ينقش على الكهوف تلك الأشكال التي كان يخطها على الأرض بعد أن تمرس عليها . بعض تلك النقوش التي كان يخطها على جدران الكهوف احتفظت بشكلها لتصل إلينا وتطمينا وثيقة خطية على مقدرة الإنسان على العمل الفني مستحدثاً الإمكانيات المادية التي حوله .

أما الموسيقى والرقص والغناء أيهما سبق الآخر فيمكن التوصل إلى النتيجة بنفس النظرية الأولى ، فقد بدأ الرقص والغناء في لحظة واحدة . . . وجاء ذلك تعبيراً لاندعاش والفرحة في لحظة معينة ومعبراً عن سروره . . . حين حاول الإنسان الأول أن يصطاد حيواناً . ونجح في اصطاد ذلك الحيوان وبدون أن

يشعر بدا يقفز فرحاً ويصدر أصواتاً ليست جميلة على كل حال ولكن لها إيقاع يسير الحان والقفر ويعبر عن حالته النفسية وفرحته وهي عبارة عن مهمة وقفزات عالية ثم جاءت الموسيقى في حياة الإنسان الأول حين وجد نفسه سائراً وحيداً يلعب بأصابعه فتعطيه فرقة الأصابع إيقاعاً منتظماً متنوعاً وصار يكرر هذا الإيقاع وينسجم إليه بمفرده ثم طور هذا الإيقاع بالضرب على الأيدي مع المجموعات للتعبير عن الفرح مصاحباً الرقص الجماعي حين تصطاد حيواناً . أو العائلة حين تجد وليمة أو حيواناً ، أو تعبيراً عن اللقاء والعودة إلى المنزل أو المسكن الذي اختارته للقاء فيه .

أقد حاولنا أن نعطي صورة عن بداية الفنون مع بدايه الانسان الاول . ولا بد الآن علينا أن نتتبع تطور هذه الفنون في السودان عبر التاريخ بعد أن انتظم الإنسان في مجموعات وتطورت حياته البدائية لحياة اجتماعية لها قوانين ونظم وذلك خلال مسيرة الإنسان على النيل حتى وصل إلى الحضارة الفرعونية ثم المسيحية والإسلامية .

نود أن نضيف نظرية أخرى للفن وهي أن الفن تعبير عن إمكانيات الطبيعة والمجتمع .

إستعمل الانسان إمكانيات الطبيعة التي حوله تخلق منها الفن الذي يمكن أن يأتي من تلك الامكانيات ...

فلو نظرنا في ظروف الحضارات التي قامت حول البحر الأبيض المتوسط وهي الحضارة الفرعونية والاشورية والاعريقية والرومانية لوجدنا أن أعظم ما خلقته تلك الحضارات لا تتمدى عن إمكانيات الطبيعة ، فقد وجد الانسان الأول على النيل الامكانيات المساعدة لتشديد العمارة والنحت من حجارة الجرانيت

الذى يساعد على النقش الغائر وكذلك يجد الجير الأبيض وأنواع عديدة من الحجارة في كل منطقة .

فقد وجد الانسان على النيل مواد حجرية مختلفة استعملها كلها بما يناسب إمكانيات تلك المواد للاعمال الفنية مثال ذلك حبر الجرانيت الأحمر ذى الحبيبات الخشنة لصنع التماثيل الكبيرة التى لا تحتاج لصقل وشكل ملمس ناعم واستغل الجرانيت الأسود الحبيبات الصغيرة للتماثيل الصغيرة وذلك ليجمعها ملابس رقيقة على اليد وإمكانية صقلها فى أشكال صغيرة مختلفة . . . واستغل حجارة الجير لرغوتها وإمكانية صبغها بالألوان واحتفاظها بتلك الألوان .

توفرت مثل هذه الامكانيات للانسان على النيل فى حين لم توجد مثل هذه الامكانيات فى منطقة الحضارة الاشورية التى كانت تقيم مبانيها من الطين وقد ساعدتها ظروفها الاقتصادية وإمكانياتها المادية على استيراد هذه الأحجار للتماثيل من خارج منطقتها ولذلك ساعدت سلسلة جبال الألب وغناها بالأحجار المختلفة على قيام التماثيل وعمارة الأعمدة عند الاغريق والرومان .

أما فى السودان فقد هيأت الظروف للمنطقة الشمالية فى السودان قيام مثل تلك الفنون من نحت وعمارة وذلك لغناء تلك المنطقة بسلسلة جبال تحيط بمجرى النيل مما يساعد على بقاء تلك الآثار القديمة عبر التاريخ واحتفاظ تلك الآثار الحجرية بتاريخها عبر التاريخ رغم الخراب البشرى والطبيعى الذى تعرضت له .

أما إذا سردنا جنوب المنطقة الشمالية فنجد قلة الجبال التى تصلح لبناء عمارة كالتى قامت فى الشمال وكذلك التماثيل الأمر الذى جعل أثر هذه المنطقة خلال العصر الفرعونى غير معروف . . . ولكن هذه المنطقة استغلت إمكانياتها الطبيعية

وهي (الطين) ، لبناء المعابد والتماثيل من الصلصال وصنع الفخار الأمر الذي جعل آثار هذه المنطقة قابلة للتلف بواسطة الإنسان والطبيعة مما جعلنا لا نعثر على آثار كافية لتلك الحضارة التي نشأت في مروي القديمة قرب الدامر وذلك لاعتماد عمارة وفن تلك المنطقة على بناء فلاحها ومعابدها من الطين وتماثيلها وأوانيها من الصلصال .

وقد امتازت أرض السودان وجماله بالمعادن كالذهب والنحاس والحديد الأمر الذي ساعد الحضارة الفرعونية لاستغلال هذه المعادن في التماثيل والأواني والزينة إلى أبعد حد...

وقد برع الفنانون في تشكيل تلك المعادن وإخراج تماثيل غاية في الجمال والروعة وقد احتفظت لنا منطقة البركل (نباتاً) ببعض هذه التماثيل الذهبية كما تضم المتاحف الأوروبية ومتحف القاهرة الكثير من آثار تلك الحضارة التي قامت في السودان من المعادن والذهب والأحجار .

وهناك إمكانية أخرى وهي النباتات الطبيعية من أشجار ونبات نبت على ضفاف النيل استغلها الإنسان في كثير من حاجياته اليومية وقد ظهرت المصنوعات الخشبية ضمن الآثار المعروضة في متحف القاهرة وإذا ابتعدنا عن النيل نجد إمكانية أخرى استغلت نفس الاستغلال لحاجة الإنسان للجمال وهي المصنوعات المصنوعة من جلود الحيوانات المختلفة والطيور والأشجار وقد اختص جنوب السودان بنوعين من المصنوعات الفنية وهي المصنوعات الخشبية . وذلك من الأعشاب القابلة على التشكيل كما استغل الأبنوس والعاج وظهرت في غرب السودان المصنوعات الجلدية للحيوانات والزواحف والطيور والنباتات وفقدت تلك المنطقة المصنوعات الحجرية والصلصال وذلك لطبيعة الأرض الرملية وقلة الأحجار الصالحة لهذا الفن إن كان للعمارة أو النحت .

تطور هذه الفنون :

هذه فكرة عامة عن نشأة الفنون عند الإنسان وتويع هذه الفنون في السودان باختلاف الأماكن والامكانيات الطبيعية لأن قلوب العنسون وتوعها جاء نتيجة تلون واختلاف الامكانيات الفنية .

فالإنسان عنصر واحد متساوى في كل الامكانيات البشرية الخلاقة ، وما يظهر هذا التنوع هو الطبيعة أو المساعدة الفنية المصنوع منها الفن ومظاهر الطبيعة نفسها توحى بالفن ومما كانه . لأنه لا يعقل أن يرسم سكان غرب السودان أو النيل الدب النطبي أو الحيوانات البحرية والقطبية كما لا يجوز أن يصنع الإنسان في الجنوب مصنوعات الفنية من المرمر والأحجار الصالحة للفن وهي غير موجودة بحوزته ولا يدرك الامكانيات التي أعطتها له الطبيعة كالعاج والأشجار وجذورها والحيوانات ومخلفاتها والطيور ولا يعقل أن لا يصنع الفيل والتمساح والطيور المتواجدة بجانبه بكثرة ويفسك في صنع الجمال الصحراوية والحليل والحيوانات التي لا تقطن المناطق الاستوائية .

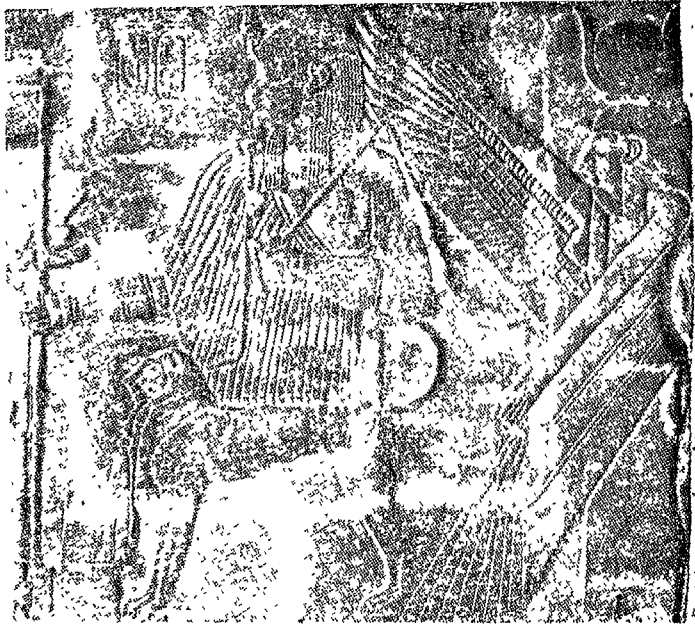
من الامكانيات التي حول الإنسان ومن مظاهر الطبيعية خلق الإنسان فنونه وبدأ يطورها بمرور الزمن والعصور وإن كنا لم نعلم على أثار قديمة لسكان النيل قبل الحضارة الفرعونية فلا يعنى ذلك أن تلك الفترة التي سبقت الحضارة الفرعونية لم تخلق فناً ولكن الأمر يرجع إلى أن تلك المصنوعات لم تقاوم مادتها الطبيعية كل هذه القرون بجانب المناطق الأخرى التي لم تتوافر لها مثل هذه المواد الحجرية القابلة على البقاء والتي كانت مصنوعات من الطين والصلصال ومخلفات الحيوانات من عظام وجلود ومن أخشاب الأشجار وثمارها .

ظهر الفن في شمال السودان ذلك الذي خلفته لنا آثار الأسرة الثانية عشر

— ٥٧ —



الطبيعة المتنوعة الغنية وفقدت مكانتها بينها وبين الإنسان

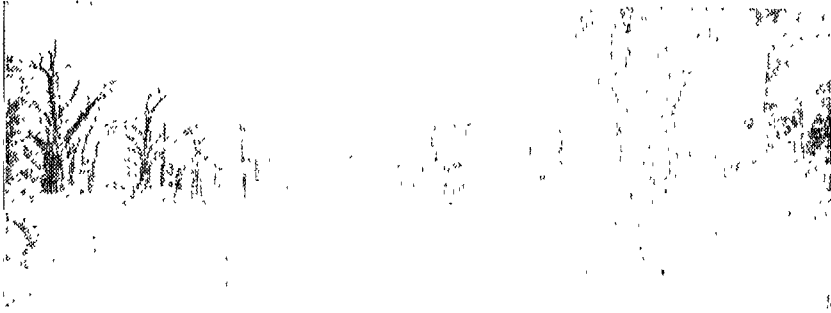


احد ملوك مروي القديمة حيث امتدت الحضارة الفرعونية بعباداتها وفنونها
داخل السودان . جمال الخطوط ودقتها تبين ما وصل اليه الفن في منطقة
مروي من جمال وروعه .

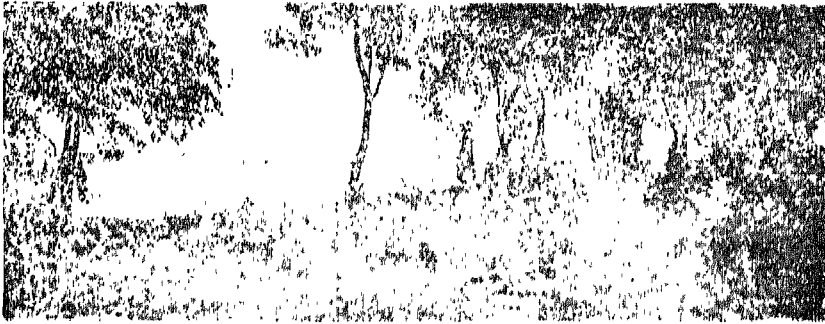
— ٦١ —



اعشاب بحر الجبل مثال لصورة أعشاب الجنوب وقف الانسان حائراً امامها !!



غابات النيل الازرق طيبة سهلة تختلف عن غابات الجنوب . وفرت المرعى
للماشية واتاحت للإنسان ان يرتادها ويستفيد منها



الطبيعة على النيل الازرق غنية بسيطة في تركيبها اتاحت للإنسان الذي عمرها
امكانيات لا تحصى

الطبيعية (٢٧٥٩ — ٢٩٦٣) ق . م وكذلك ظهرت آثار هذا الفن الفرعوني في منطقة النوبة وأسوان قبل هذه الأسرة في عهد الأسرة السادسة الأسوانية (٣٦٠٣ — ٣٢٩٩) ق . م .

لم يظهر الفن في السودان بظهور الحضارة الفرعونية في القرن الأربعين قبل الميلاد إنما ظهر الفن تبيل ذلك بآلاف السنين واستخدمت نفس المادة التي استعمل صنع الفن منها بعد ذلك في عصر الفراعنة ولكن ما ظهر في هذه المنطقة هو التأثير الفرعوني وتوظيف هذا الفن لخدمة العبادات واستعانة الانسان ببعض الأدوات الفنية التي تستعمل للنقش والنحت على الحجر ، أما نوع الفنون قبل التأثير الفرعوني والأغراض التي كان يستعمل من أجلها وهي لاشك في معظمها محاكاة للطبيعة وربما أغراض دينية وثنية أيضاً لم تدثر على آثار لها ولكن بما لا شك فيه أن المجتمع على النيل داخل منطقة النوبة وجنوبها قد انتظم وعرف النظم الاجتماعية الأولى وترقى في هذا السلوك الاجتماعي الأمر الذي أتاح له ان يجد الوقت لصنع الأشياء الجميلة وتقليد الطبيعة والكشف على مقدراته الخلاقة كما كشفت من قبل مقدراته على خلق مجتمع مستقر مستقر منتظم وعلى كسب القوت والسكن وحاجياته الطبيعية للحياة .

إن ما تعطينا له الآثار عن أثر الحضارة الفرعونية يجب أن لا يوقف تصورنا عن وجود آثار قديمة اندثرت بفعل الطبيعة أو بفعل الانسان أو بفعل الحضارات المتعاقبة .. وعلمنا أن نضع في اعتبارنا إن الاستقرار وتنظيم الحياة المعيشية وضمان سبل العيش من العوامل المساعدة للاستقرار الذي من داخله تأتي الأشياء الخلاقة وتفتح في ظله المواهب الانسانية الرقيقة ويقود تهذيب السلوك والأخلاق التي يتعكس أثرها في الفن .

إذن هنالك فن نشأ على النيل قبل قيام الحضارة الفرعونية يختلف باختلاف

إمكانات النيل الطبيعية وذلك بسبب ما أعطاه النيل للمجموعات التي عمرته من خيرات وعيش مضمون من زراعة وحيوانات وماء ... الخ ...

كانت الحضارة الفرعونية قفزة في حياة المجموعات التي سكنت النيل وذلك بسبب بسيط وهو تسخير كل إمكانات الناس في أيدي فئة قليلة من الملوك والسكينة الأمر الذي أمكن استغلال كل تلك الإمكانيات البشرية لخلق الحضارة التي قامت على القسوة والسخرية على حياة الأفراد العاديين .

عرف الفراعنة فن النحت والنقش وأبدعوا فيه وانتقل هذا الفن إلى السودان بعد أن وصل إلى أعلى مستوياته في عصر الأسرة الثانية عشر الطبيعية قبل ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد والتي وحدت الحياة في مصر من جديد وعادت طيبة من جديد عاصمة الدولة المصرية التي مهدت نفوذها إلى السودان حيث اكتشف الذهب في السودان الأمر الذي حتم ضم « إثيوبيا » أي « بلاد النوبة » إلى المملكة المصرية الفرعونية وانتشار الفن الفرعوني . وقد كان الذهب من العوامل المساعدة لنقل الحضارة الفرعونية للجنوب والاحتفاظ بالأراضي التي تصل إليها وذلك من أجل المزيد من الذهب للمعابد وتمائم الآلهة والملوك والزينة والأدوات المفزلية . .

وساعد وجود الذهب بأراضي السودان لانتقال العمال المهرة من مصر والفنيين لتتقن صناعة الذهب وصبه في سبائك ونقله إلى مصر وانتشر في السودان صناعة التماثيل الصغيرة الآلهة والحيوانات المقدسة كما أن استخراج العديد من المعادن نشر صناعة الآواني وآلات النقش كان لأرض المعدن الغنية بالذهب أثر كبير لاهتمام المصريين بالأراضي الجنوبية .

الرقص :

يصعب تحديد نوع الرقص القديم الذي عاش على أرض السودان ولما سكن بعض

اللوحة الاثرية وما وجد من آثار في مصر يستطيع ببساطة أن يعطينا صورة عن نوع الرقصات التي كانت سائدة على النيل إذا اعتبرنا أن ظروف المعيشة على النيل تسكاد تكون متشابهة رغم اختلاف الظروف الاجتماعية تحت النظام الفرعوني والملكية في أرض النوبة والنظم الأخرى المنتشرة جنوباً التي لا شك لها تأثير أيضاً على الرقص ، وقد خلفت لنا الحضارة الفرعونية العديد من الرسوم مما مهد لتقديم دراسات طيبة عن حال الرقص عند المصريين ونحن سنحاول أن نقرب من تلك الدراسات واضعين في اعتبارنا الاختلاف الذي سيطر نتيجة الظروف المعيشية والمناخية والاجتماعية .

وقد أظهرت اللوحات التي وجدت بعض الرقصات لاهالي الجنوب في النوبة والزوج بآلاتهم الموسيقية وحركاتهم . . .

وقد ضم كتاب الرقص المصري القديم لايرينا سكسوفاً دراسة جيدة للرقص المصري كما تضمنت السبعة والسبعين لوحة التي جمعها الكتاب أنواع الرقص وأوضح اشتراك بعض أهل جنوب مصر في بعض الرقصات وبعض آلاتهم الموسيقية انتشار معظم تلك الرقصات في أرض السودان بعد أن انتقل إليه بعض الحكام المصريين في عهد الأسرة الثانية عشر . وإذا أردنا أن ندرس الحركات التي تسيطر على الرقص على النيل في مصر والسودان والتي ما يزال جزء من تلك الرقصات والحركات باقياً حتى الآن لبقاء نفس الظروف المعيشة بالنسبة لعامة الناس وهي حركات تشبه حركة الرجل الذي يحفر والذي ينظف الذره والقمح بالريش ثم حركات الرجال على المراكب ثم حركة غرس الزرع والبذرة . .

بعض الرقصات هادئة وبعضها مثيرة كرقصات النياو وقد كان يحمل الرقصات

يشتمل على الرقصات الاستعراضية مثل رقصات القوة ، ثم رقصات الافراح
ثم رقصات الطبقات الخاصة والموائد والقصور ورقصات الزرع والحصاد ورقصات
البهلوانية وكثير من هذه الرقصات كانت تفرضه الظروف الاجتماعية التسليية
الاغنياء والملوك والطبقة الخاصة التي كانت تحتفظ بالعبيد والراقصين من
الجنسين . . . ثم كانت الرقصات الدينية داخل المعابد وخارج المعابد .

وقد ظهرت في بعض الصور الرقصات الزنجرية ومعها الطبلية الافريقية فقد
كانت إمكانيات العصر الفرعوني وبلاطه تستطيع أن تستورد كل ما تريده من
أدوات اللهو والمرح وبذلك أعطت للفن المصري إمكانيات لأحد لها باستجلاب
كافة الفنون والرغبات التي يرغب أهل البلاد إلى مصر لتعيش فيه وبذلك غدت
الفن المصري بفنون جديدة عليه استقاد منها شعب وادى النيل . .

أما في المناطق الأخرى البعيدة عن النيل فقد كان فيها لاشك يختلف عن فن
سكان النيل نسبة لاختلاف الظروف المعيشية والبيئية إذ عادة ماتأتى رقصات
الشعوب من حركات العمل أو مشاهة لها في كثير من الأحيان .

وإذا أردنا أن نجد منطقة غنية بالسكان فسوف نجد منطقة البحر الأحمر
حيث سكنت قبائل مختلفة وحيث لم نجد أثارا تنبئ عن حضارة هذه المنطقة
وتكشف لنا إمكانياتها السابقة إلا أننا نجد في بعض رقصاتهم اليوم مايسير
ظروف معيشتهم في التنقل والجري وصيد الحيوانات البرية كالارانب والطيور
وحركات رقصهم في يحملها تعبير عن الفخص والوثب والحركة الحريية السريعة
بما فيها المبارزة التي هي إحدى رقصاتهم .

الموسيقى:

عرف سكان وادى النيل مجموعة كبيرة من الآلات الموسيقية ما زال كثير منها باقيا حتى الآن وقد كان للحضارة الفرعونية وما صاحبها من عبادات وثنية وطقوس دينية تحتاج الموسيقى مع وجود طبقة خاصة مرتاحة تبحث عن اللهو والمرح شجعت الفنون والموسيقى من أجل متهتها الخاصة وأناحت خالق فن عام وفن خاص لهذه الطبقة في مناسباتها المختلفة .

وقد انتشرت الآلات الموسيقية بآنتشار الفن ، فن البلاط وفن المعابد وفن الطبقة الخاصة وفن عامة الشعب وقد استعملت آلات موسيقية مثل الجناك والكنارة والطنبور والجيتار ، المزمار ، الدف والصفقة على الأيدي والطبول . . .

وقد أهتم بالاحتفال بالأعياد ، كعيد الحصاد وفيضان النيل والاحتفالات الدينية وقد انتشرت هذه العبادات في السودان بعد تمرركز الحضارة الفرعونية فيه بعد القرن السابع والثامن قبل الميلاد وبعد أن دب الخلل في الدولة الفرعونية وأمتدت إلية آثار حضارة جديدة من الشرق ومن شمال البحر الأبيض المتوسط وبقيا دالة نيتة السودانية لتتبعهم السودان ومهم وتطرد عنه خطر الاشوريين والليبيين .

وقد كان لشراء مصر الفرعونية أثر كبير في استجلاب الآلات الموسيقية من أماكن بعيدة وأحضار المواد التي لم تتوفر محليا وهذه الآلات التي كانت تستجلب ولا توجد موادها محليا كانت للخاصة والبلاط والمعابد . أما عامة الشعب فقد كانت المزمار وهي من البوص والطاو المصنوع من جلود المساعز والربابة آلات يمكن صنعها من المواد المحلية بواسطة عامة الشعب . .

وقد كانت الآلات الرئيسية للموسيقى قد انتشرت في السودان كالربابة والطار والطبلة الأفريقية وهي الآلات التي يمكن صنعها من المواد المحلية من نباتات وحيوانات . وقد كان للطبقة الحاكمة في نبتة ومروي نفس الفرق الموسيقى التي كانت لفرعنة مصر نسبة الامكانيات المادية ولمسكانه المعابد والطقوس الدينية بجانب البلاط الملكى وأهمية هذه الطقوس الدينية التي كانت الموسيقى عنصرا هاما فيه .

فقد عرفت الطبقة الحاكمة والخاصة أنواعا عشتى من الفنون والموسيقى والرقص لم تكن متاحة لبقية سكان النيل كما كانت للمعابد موسيقاها الخاصة والاعياد التي حافظ حكام السودان عليها في ظل الحضارة الفرعونية على التمسك بها مثل تقديس النيل وأعياد الحصاد والفيضان والافراح وهي عادات ما زالت آثارها باقية حتى اليوم .

العمارة :

كثيرون يسألون عن حضارة السودان وأثارها بعد منطقة البركل شمال السودان فلا يجدون إلا بعض الآثار البسيطة التي لا تفيد كثيرا ولا تعلى صورة حقيقة عن نهضة تلك الحضارة . وقد فات على البعض عن إمكانيات الطبيعة ومواردها لحفظ أثار تلك الحضارة .

فقد اختصت المنطقة الشمالية من السودان بنوع خاص من الاحجار صالح لبناء المعابد والقصور والاهرامات لا تؤثر فيه الطبيعة من رياح وأمطار ولا تتأكل سريعا بفعل العوامل الطبيعية الامر الذى ابقى اشلال السودان الكثير من أثار تلك الحضارة رغم عبث الناس وتخطيطها بواسطة الأفراد والجماعات وإستغلال تلك الآثار لأغراض كثيرة عبر التاريخ أما المنطقة التي تقع جنوب مملكة سوبا

— ٧١ —

المسيحية قرب ملتقى النيلين حيث قامت حضارة وعمارة عظيمة لم تترك لنا الايام منها الا بعض الاثار البسيطة فيرجع ذلك إلى المواد التي لا تستطيع أن تحافظ على نفسها الا الف السنين لان معظم العمارة التي شيدت في مروي وسوبه المسيحية كانت مصنوعة من اللبن والاحجار التي لا تحمل تغيرات الطبيعة من رياح وامطار وجفاف لتبقى آلاف السنين .

ونحن إذا حاولنا أن نبهت عن إمكانيات هاتين المنطقتين مروي القديمة وسوبه المسيحية لنجد الطبيعة هنا أغنى من شمال السودان حيث هنا الاراضى الزراعية أكبر مساحة وأخصب والمراعى لا حدود لها الأمر الذى اقترح لهاتين المنطقتين من الخيرات الطبيعية من نباتية وحيوانية ما يجعلها غنية تنفصل عن شمال الوادى وتجلب منه ما تريد . . إلا أن مناخ هذه المنطقة كان له أثر مباشر في اندثار آثار تلك الحضارة التي قامت في منطقة الخرطوم وسوبه .

* * *

الالهة عند الفرس

كان الفرس يتبعون عادات وتقاليدهم أعرف منها مايلي : — لم يكن لديهم أية صورة أو تماثيل للالهة ولا معابد ولا مذابح — إذ كانوا يعتبرون استعمالها علامة من علامات الخرافة . وأظن هذا راجع إلى عدم اعتقادهم بأن طبيعة الآلهة من طبيعة البشر ، كما كان يتصور الاغريق ، ومع ذلك كان من عاداتهم يصعدوا إلى قمم الجبال ويقدموا الذبائح لجوهر وهو الاسم الذي يطلقونه على المجموعة الكونية كلها كما كان من عاداتهم أيضا أن يقدموا الذبائح للشمس والقمر والارض والنار والماء والرياح . هسة فقط هي الالهة التي توارثوا عبادتها من اسلافهم منذ أقدم العصور الغابرة .

أعظم يوم يحتفلون به هو يوم عيد ميلادهم من بين أيام السنة .

ذكرنا هذا لاتصال حضارة الفرس بالحضارة الفرعونية بعد أن وهنت الأخيرة وخرج ملوك السودان في القرن الثامن الميلادي من منطقة البركل لصد أثر الفرس عن مصر وعدم احترامهم لديانة الفراعنة التي هي ديانة ملوك نبيته إلا إن بعد عاصمة دولة نبيته عن ضيعة وحدود الفرس حال دون استمرار انتصار دولة نبيته العظيمة ووقف خطرهما على عبادات وادي النيل حيث حاولوا الاستمجان بها وعدم تقديرها واحترامها بعد ما دخلوا مصر .

جولة في متحف الآثار المصرية

و المقابر الملكية بمحيط بلانه وقسطل ببلاد النوبة ،

(العصر البيزنطى)

فى عام ١٩٣١ قرر أعضاء بعثة مقابر بلاد النوبة تحت إشراف مستر أمرى أن يفحصوا بالتفصيل الكهفان الكبير الممتدة على جانبي النيل بالقرب من قريتي بلانه وقسطل على بضعة أميال إلى الجنوب من أبي سمبل وشمال حدود السودان مباشرة . وقد تبين أنها كانت تغطى مقابر العصر البيزنطى وتشبه ما سبق العثور عليه فى حمى وفركه وادى وجزيرة ساسى وكلها فى السودان إلى الجنوب من وادى حلفا . وهذه المقابر محفوة فى الرواسب الغرينية وتتكون من طريق طويل منحدر طويل يؤدي إلى حفرة كبيرة بنيت فيها حجرات من اللبن الأحمر .

وعندما كان يوضع الملك أو الأمير المتوفى الذى من أجله أقيمت المقبرة فى حجرة الدفن وعليه ملابسه من الجلد كانت تودع أمتعته الشخصية والأطعمة والنميمة فى غرفة مجاورة ثم يغلق الباب الخشبي المسكوب بلوحات كبيرة من البرونز مسمرة عليه ثم يختم ويبنى عليه جدار من اللبن .

وكان يؤتى بخيول صاحب المقبرة إلى هذا الطريق المنحدر وقد طهمت بسروج رائحة وأقم من الفضة (توجد تماثيل لهذه الخيول رأيتها محفوظة ليست للعرض الآن) وعدد مزرقة بألوان مختلف بين الأحمر والأزرق ثم تقفل فى مكانها بضربات الفسوس (وفى الخزانات فأسان منها) وتدفن أترافق سيدها

في الآخرة وعلى مقربة من هذا المسكان دفن العبيد والخدم بعد خنقهم بحبال معقودة وهؤلاء أيضاً كان يراد بهم خدمة سيدهم بعد الموت وفضلاً عن الخيول فقد عثر على طائفة أخرى كبيرة من الحيوانات كالجمال والأبقار والخيول كما عثر كذلك على سلحفاة وقد ضحيت جميعها لنفس الغرض .

أما الكشبان التي أهيلت وسط المقبرة فتتكون من كميات هائلة من أتربة نقلت من الجهات المجاورة ويختلف حجمها تبعاً لأهمية المتوفى وقد بلغ ارتفاع بعضها لأثنى عشر متراً ... وفي هذه الكشبان عثر على عدد من الآثار الهامة المعروضة بالمتحف ومن بينها الصندوق المزين بالوواح من العاج ورقعة اللعب والدروع والحرايب وبعض قطع فريدة من الحلى كالأقراط المصنوعة من الفضة وحجر الجشت والاساور الفضية المرصعة بأحجار نصف كريمة .

الملاحظة

١ — يوجد أوان ومباخر من الفضة من ضمن الآثار المسيحية التي يرجح أنها نهب من السكائن (

٢ — إناء من الفضة عليه رسوم يمام (أو نعام وأسماك ويبدو أنها رموز مسيحية نهب من أحد السكائن .

٣ — صحن من الفضة صور الإلهة (أبولو هومس تحيط به رموز خاصة بمجبودات أخرى منها إسكريبوس وهرقل ومارس وديوتيسوس وفولسكان . تبين أثر الفن الأغريق والرومان .

صورة أبو للو ممسكاً بيده عصا مزركشة ويمد قطعة من التفاح أبو النضج

إلى الشيطان أمامه وعلى شماله الفرس المجنح ذو المنقار والأرجل الحيوانية والمعز.
وفأس ومقبض ووجه أسد في شكل تجر يدي .

٣ — مباخر وموائد صغيرة وملقط شعر وقطعة على هيئة صقر وجوه
الحيوانات على شكل غريب مرعب الألوان غاية في الدقة والترف . . وخنجير
على شكل ثمرة الاناناس .

٨ — (١) قطع من البرونز والعاج والفضة وألواح من العاج في صناديق . .

ملاحظة :

العاج يظهر فيه أثر الفن الافريقي .

(٢) إصلاال من الفضة من تاج ملسكى وزرار وأقراص من الفضة كانت تزين
ملابس من الجلود .

توجد قطع حديدية على شكل فأس وأسود .

وليس هنالك ما يدل على حقيقة هؤلاء القوم إذ لم يعثر في مقابرهم إلا على
النادر القليل من السكّات ويرى على كثير من جرار النقيذ الكبيرة والأوان
المعدنية بضع كلمات باليونانية وربما كانت هذه الأوانى مستورده من الإسكندرية
وقد عثر على رمح من الحديد وإناء عليها نقوش مقتضبة جداً بالخط المروى ذى
الخطوط المستقيمة كما أن السكّات من الأوانى الفخارية والأشكال من
الأشكال التى تتميز بها المملكة المروية وإذا أضفنا ذلك إلى أن هذه الطرز لم
يعثر على مثيل لها شمال قسطل لاستنتجنا بأن هؤلاء القوم كانوا على صلات
وثيقة بمروى .

ويظهر أن أهالى بلانة وقسطل استمروا دهرًا طويلا بعد دخول المسيحية إلى

مصر وهم يعبدون المعبودات المصرية كهوريس وبسى وايزيس كما ان بعض
الالهة المختلطة وجدت مرسومة بسكينة على احفاء السروج ولوحات الفضة .

وقد امدتنا هذه المقابر بكمية وافرة من الاثار المختلفة الاثار مختلفة الاذواع
وقد عرض منها مجموعة كبيرة كاملة التمثيل ولعل أجدرنا بالملاحظة ذلك الصندوق
المزخرف بلوحات عاجية عليها صور لاتكاد تبارى في دقة وتهذيب — وقلمك
التيجان الفضية المرصعة باحجار حسنة الصنع ثم الطبق الفضى ذا النقوش
الباردة واللحم الفضية الخاصة بالالجنة ووقاياات أيدى الرماة ثم الاثار المخروصية
الشكل وهى أن كانت ذات صلة بالرماية إلا أن طريقة استعمالها مازالت غير معروفة
وما هو جدير بالذكر أن بعض القطع البرونزية عليها شارات مسيحية وهى أما أن
تكون قد سلبت أو أشتريت من العشائر المسيحية أو الكنائس وبلاحظ أن من
بين المنسوجات عينات صنعت من الحرير .

ويرى على كثير من الجثث أثار واضحة لاصابات حصلت في ميدان القتال
ويشبه أشرف بلانه وقسطل الزوج إلى حد كبير وإن لم يكونوا من الزوج فعلا
— أما خدمهم وعبيدهم فكانوا من أجناس نوبية مختلطة ، وخلاصة الاحتمالات
أن هذه الجثث كانت لجنس من النهابين الميالين للقتال يعرفون بالليميين الذين
كانوا حتى القرن الثالث بعد الميلاد لا يزالون تحت سيطرة مروي .

وقد هاجم الليميون الحدود الرومانية أول مرة عند أسوان عام ٢٥٠ م
ثم مرة ثانية ٢٦١ م ثم عادوا عام ٢٦٨ م فاجتاحوا مصر حتى وصلوا إلى
كيتوس فقط وبتلبايس .

وقد دعا الامبراطور دقلد يانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) بعض قبائل النوبة
(النوباديون) الذين كانوا يقطنون الصحراء الغربية ليستوطنوا فيها بين بلاد

البليمييين وأمالك روما وبالرغم من هذه الخيطة فإن البليمييين احتاجوا الواحة الخارجنة حتى عام ٤٢٩م ويظهر أن طرد البليمييين النهائي حدث في أواسط القرن السادس عندما اجتاحت سلسكو ملك النوباديين الذي كانوا قد اعتنقوا المسيحية إذ ذاك بلاد البليمييين ومن بعد ذلك لم يذكر التاريخ عنهم شيئا .

وقد قام مستر امرى بالنشر عن هذه المقابر ووصف أقوام البليمييين في مؤلفه To. Entry The Royal Tomps of Bauana and Bustol

(وهو الكتاب المطبوع بالمطبعة الأميرية بدلان) بعضه حقائق بلاد النوبة (٢٩ — ٣٤) .

(٢٩) أكواب وجرار وقوارير من الفخار بعضها ملون وبعضها محلى بزخارف مساح وأباريق وأوان وأوعية للطرح وحوامل — ويسهل ملاحظة ما في الكثير منها من تأثير الفن المصرى القديم على الفن اليونانى والرومانى .

تمثال من البرونز يشبه كوبين . أغريقى الفن — تمثال من البرونز يمثل إليه يحمل شمعان .

١٥ — جلب لحفظ السهام وبقايا حقينة للحلى وأدوات للزينة ومعها قفلها وقطع ملابس ونعال وأجزاء من لجام وكلها من الجلد — ثم قطع من سلال من القش وخرز منضود فى خيوطه الاصلية ونموذج من الحجر الرملى المائدة قربان من الطراز المروى .

١٦ — نماذج من الاقشمة المختلفة والجبالي التى كانت تستعمل فى اطقم الخيل . ملاحظة النسبج ممتاز ودقيق . . . وسميك . . وبعض أنواع الشمع . . من صوف الماعز والضأن وخلافه كانت تستعمل لكساء الخيول . . .

— ٧٨ —

والانسان . الاقشة تشبه لحد كبير نوع الاقشة هـذة الايام رغم جوده صنع القديم .

١ — الفخار كبير . . . تستعمل الماء وحفظ الاشياء . . في شكل برام وحلل وزجاجة . . وبخسه . . يوجد من نفس النوع مصنوع من النحاس والبرونز من والفضة .

١ — أدوات الزينة موجودة . . وقد عثر معها على أصباغ الوجه .

ودلاية (مقبض) من الحديد من الطراز الرومانى أمشاط من العاج الملون على زهرة . . دقيقة الإسنان . . ومكحلة من الخشب على هيئة الالهة . (رع) وجه قريب من وجه البومة .

لوحة للعب مطعمة بالعاج وزواياها ملبسة بالفضة وجدت في الركام في السكوم الذى نعلو المقبرة وكان باسفله حقيبة من الجلد بها قطع اللعب والزهر .

اعة هذه الأدوات تكشف لنا إمكانيات
، نهر عطبرة لاستخراج المعادن وتوظيفها

شواهد شكها

موائد وقرابين

من العهد المروى

هــ هذه الموائد كانت توضع عند مدخل المقابر وكلها تقريباً مستطيلة الشكل وبأحد جوانبها بروز به قناة تنصب منها السوائل أما في الوسط فيغلب أن تكون عليها رسوم أو أن خبز منقوشة نقشا بارزا وكذا بعض مناظر من الاساطير المصرية أما الكتابة التي حولها فتبدأ دائماً بدعاء موجه إلى أحد الالهة لإريس أو يا أوزيريس ثم بعد ذلك أسم المتوفى وأوصافه وتكتب بعبارة للترحم عليه . ويدكر في أوصافه أنه كان طيب كريم الأصل . . . الخ . . . ويلحق غالباً باسماء والديه .

ملحوظة :

وربما يزيد من الاكتشافات التي تجرى في منطقة مروى القديمة جنوب نهر عطبرة نستطيع أن نعثر على المزيد من الوثائق والآثار التي يمكن أن تعطينا صورة كاملة عن تلك الحضارة التي قامت جنوب نهر عطبرة وتكشف لنا عن حدودها جنوباً ومدى سيطرتها وعلاقتها بالقبائل التي سكنت أرض الجزيرة وقبائل الشامك خاصة والمجموعات الأخرى التي سكنت السهول

حضارة السودان الفرعونية

رغم قلة المعلومات لدينا عن حالة الحضارة قبل دخول السودان تحت تأثير الحضارة الفرعونية في عصر الأسرة السادسة الاسوانية (٢٦٠٢ — ٣٣٩٢) ق.م. بانتقال السلطة في الوجه البحري إلى الوجه القبلي إلا أننا بتطور حالة المجتمع على أرض النيل وما وصل إلينا من رقى يمكن لنا أن نقيس حالة المجتمع جنوب مصر من جراء تشابه الظروف الطبيعية والاجتماعية .

فالمجتمع هنا زراعي كما في الشمال . . مجتمع مستقر تطور من الجموعات الصغيرة إلى الممالك الكبيرة . . .

فقد عرف سكان السودان الحسك النظامي شبيه بالنظام الملكي في مصر إلا أن . . تدخل كهنة الدين الملكي في مصر جعل إمكانيات وطاقة شعب مصر في يد السكينة والملك حتى تطور ذلك النظام باستغلاله لطاقة شعب مصر إلى أقصى إمكانيات الاستغلال ، حتى تطور ذلك المجتمع من الوجه الحضاري في استغلال إمكانيات شعب مصر لبناء السفن والعمارة وخضوع هذا الشعب لسلطة ورهبة السكينة الأمر الذي لم يعرف في السودان حيث لم يصل الدين إلى ما وصل إليه كهنة آمون .

باستقلال الناس في السودان عن سلطة السكينة وبذلك وتحرر إمكانياتهم من سيطرة الملك ، جعل المجتمع السوداني على النيل جنوب الحضارة المصرية مجتمع ممالك ، أقل ثروة ، وأقل سيطرة على أفكار الناس حيث كان يعتمد النظام المصري على السيطرة الروحية ، وتقديس السكينة ، ثم الملك مما خلق طبقة معينة ، منفردة بالحسك لم يجد من قوتها إلا بتوسع مصر ، وتوسع أعوانها بخلق جيش عظيم هو جزء من السلطة حتى وصل الشعب في بعض الظروف إلى حالة التجنيد

«اجبارى» وبذلك استطاع أن ينتقل من حالة العبودية والطاعة والاستغلال إلى مستوى الجندى المحترم المنطوى تحت نفوذ القصر والمعبد .

ولبعد المجتمع السودانى من هذا التركيب الاجتماعى ، وتحالف القصر والمعبد عاش النظام الاول للملكية فى السودان باحترام جميع الافراد فى التجارة والملكية والعبادة حتى ظهرت الحضارة النوبية جنوب النوبة فى عهد الاسرة السادسة السودانية ، ومحاارلها اخضاع اراضى النوبة وضما اليها ، أو الاستيلاء على خيراتها وعملها ، لبناء الحضارة الفرعونية الجديدة ، التى كانت فى حاجه إلى كل يد عاملة ، وإلى كل امكانيات هاديه لتسند هذا العمل الذى خلده النيل .

فقد غار حكام الوجه القبلى «على أرض النوبة» ، وزوج السودان وبندرا أنهم توغلوا بعيدا عن أرض النوبة وكرمه لحاجتهم للعمال وخيرات النيل بعد انشقاق الدولة إلى قسمين ومحاولة ملكة الوجه القبلى (أسوان) أن بسط نفوذها على كل الممالك التى حوالها وإخضاعها لسيطرتها وليس هناك مجال لبسط نفوذهم غير جنوب النيل ولذلك كان طبيعيا أن يمدون نفوذهم إلى الجنوب ويستولوا ويخضعوا الممالك السودانية التى كانت قائمة على أرض النيل .

ولنا أن نسال هل كان هذا الاخضاع لإدارى فقط ، أم أنه امتد إلى اخضاع حضارى بأدخال المعادات والعبادات الفرعونية على الاراضى الجديدة وهذا كان يتوقف على نوع السلطة الادارية التى أقامها حكام أسوان على جنوب النيل . .

ونحن لانعرف على وجه التحديد هل أنابوا عنهم فى هذه المناطق الحكام المحليين أم فرضوا على تلك الممالك حكاماً مصريين ، عن طريقهم يمكن أن تدخل مظاهر الحضارة الفرعونية بما لاشك فيه فى الحالتين أن سكان السودان

عرفوا بعض العادات والتقاليد الفرعونية من جراء حملات الجيوش وبقائها مدة طويلة لأخصاع جزء كبير من أرض السودان كانت في أثناء الشعائر والعادات المصرية كما إن إستجلاب عدد كبير من السكان المحاصرين لمصر ليعملوا في الجندية أو كعبيد والاستفادة منهم في أوجه النشاط المختلفة قد شجع هؤلاء بالتقاليد والعادات والديانات الفرعونية التي بدورها سافروا في نقلها إلى الجنوب بما في ذلك العلوم والفنون والعبادات والتقاليد.

إننا يجب أن ننظر إلى هذه الفترة من التاريخ بفترة مليئة بالحركة والتوسع حتى يمكن لنا أن نتصور حالة المجتمع القديم.

وقد خضعت أرض النوبة مرة أخرى في عصر الأسرة الثانية عشر (٢٩٦٣ - ٢٧٥٠) ق م ويبدو في هذا العصر ظهرت دولة أثيوبيا عند الرابع ويبدو أن مملكة أثيوبيا كانت قائمة منذ قديم الزمن ، إلا أن الأسرة السادسة لم تصل إليها ، ويبدو أن هذه المملكة الأثيوبية كانت نفوذها على الأراضي جنوب أبي حمد وكانت غنية وكانت ذات حملات في حاصلات السودان مع مصر مما شجعها بأثار الحضارة الفرعونية ، ومصنوع حتى جاء زمن كانت فيه هذه المملكة وريثة للحضارة الفرعونية لما لها إستعداد وتقبل ومالها من امكانيات ونفوذ على أراضي شاسعة .

وقد ظلت أرض النوبة متمردة على مر الزمن على النفوذ الفرعوني وذلك لرفض هذه الشعوب للعادات والحضارة الفرعونية ولكن لما كان يفرض عليها من ضرائب والتزامات من جانب تلك الدولة المتوسعة القوية وهذا يؤكد لنا انفراد السلطات المحلية بالحكم وعدم توظيف حكام مصريين على هذه الشعوب مما جعل تمردا سهلا . . . ولكن امتداد الحدود المصرية حتى حلفا

عهد الاسرة السابعة عشر الطيبية (١٩٨٣ - ١٧٠٣) ق : م

فقد وصلت الجيوش المصرية حتى المملكة الاثيوبية عند الشلال الرابع ..
وبما جعلنا نعتقد بقيام الدولة الاثيوبية في زمن بعيد هو محاولة بمالك الوجه
البحري الفرعونية أن يصلوا إليها ويستولوا على خيراتها ... فزواج (اموزيس)
١٧٠٣ ق م من ابنه ملك اثيوبيا يدلنا على أن هذه المملكة كانت قائمة وكان
لها شأن عظيم كما أن هذا الزواج كان يعبر عن نشأته النشأة الاثيوبية والمصرية
حتى سمح بزواج هذا الملك من تلك الاسرة المالكة عند الشلال الرابع وهذا يكشف
لنا أيضا انتقال الديانات والعلوم والفنون الفرعونية لهذه المملكة في عصر قديم ..
وربما تسكن هناك بعض الدماء المصرية في هذه الاسرة وربما لانكن ولكن
هذه الدولة الاثيوبية كانت صديقة حميمة لدولة طيبة وعبادة آمون والحفاظ
على عبادة الالهة المصرية حتى كان عهد الاسرة الحادية والعشرين (١١١٠ - ٩٨٠ ق م)
وتوحدت دولة طيبة واثيوبيا ومدت نفوذها حتى سنار والحبشة نافذة مظاهر
المضارة الفرعونية إلى تلك المناطق .. وهذا يفسر لنا قوة شأن هذه المملكة التي
لم تصل إلينا وثائق تكشف عن إخبار ملوكها وحضارتها إلا إنها كانت ذات
علاقات طيبة بملوك طيبة :

من هذا الرد تكشف لنا الحقائق التاريخية أن دولة اثيوبيا كانت قائمة قبل
ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ولكن أخبار هذه المملكة لم تصل إلينا ونسكاد
لأنعرف شيء عن حياتها الداخلية وحضارتها إلا في القرن الثامن قبل الميلاد
بظهور ملوك عظام استقلوا ضعف الحالة في مصر فبسطوا نفوذهم شمالا إلى
فلسطين وبلاد فارس :

(٥٠٠٤ - ٣٠٦٤) ق : م (الاسرة الأولى إلى العاشرة) :

(١) الاسرة الأولى حكمت ٢٥٣ عاماً (الاسرة الطيبية ٩ ملوك)

أول حكومة ملكية حكمت مصر بعد السكنة .

أول ملوكها ديننا : قاله نفوذ السكنة .. أسس القوانين والشرائع ظهر في
عهد علم الجراحة والالاب واسطة الملك (نينا بن مينا) أشهر ملوك هذه الحقبة

الاسرة الثانية الفابية (٤٧٥١ - ٤٣٤٩) ق م

أول ملك : بعار

خلفه كاكاو .. منع عبادة العجل د أبس ،

بينويرس : أول من سن القوانين وأباح للذماء تولى الملك

زعم أن الملك نائب الآلهة وأبن الشمس . ظهرت عبادة المصريين للوكمهم
درجة نهل إلى الإلودية .

الاسرة الثالثة الفابية ٤٢٤١ - ٤١٣٥ ق م (المنفية) نسبة إلى مدينة منف

أول ملوكها نحر : حارهم الليديون

خلفه توزرتوم ، عالم بالطب وكتب فيه وذهب بفن قطع الاحجار
ونحتها حد السكال

آخر ملوك هذه الاسرة : سمقرو د أول فرعونى ، وجدت له آثار .. ظهر
في عهد هذه الاسرة : المال والهلول في الجيزه وهو تمثال حيوان ضخم له جسم
اسد ورأس انسان اماره إلى القوة والعقل :

الاسرة الرابعة الفابية (٤١٣٥ - ٣٨٥٠) ق م

تحسنت احوال الادارة والنظيم في عهد هذه الاسرة .. أوقفوا هجياتهم
على عرب الصحراء شرقاً والليبيه وأهتموا بالاصلاح الداخلى .. توسعت
المملكة شرقاً وأستولت الى خيرات أراضي سيناء

أعظم ملوك هذه الأسرة خوفو أو خيويوس الذي بنى الهرم الأكبر في
الجيزة وسماه خوت .. ويقال أنه منخر المصريين في بنائه ثلاثون عاما -
كان يستخدم منهم كل ثلاثة أشهر حوالي ألف شخص

وتولى أيضاً في عهد هذه الأسرة «خفرع» أو «خوفو» ..

كان عهد هذه الأسرة فاسياً على الرعية في آسيا عظيم لتجديد هذه المباني
الضخمة مما قادم الموت الكثيرين وغضب الشعب . وبأن الغضب الشعبي ضد هذه
المملكة أن الجماهير بعد أن ضاقت بالتسخير أن خرجت جثتي هذين الماسكين
وحطموا تابوتيهما .

وجاء بعد ذلك منقرع باني الهرم الأصغر المجاور الرمي «خوفو» و«خفرع»
وقد سماه «حور» أي الأعلى وكان عادلاً رحماً بالرب . فأباح للناس التفرغ
لشئونهم الخاصة بعد عهد السخرة التي عمت في عهد «خوفو» و«خفرع» ...
وأبقى الفن والنحت والعمارة في عهد هذه الأسرة شاملاً بعيداً .

الأسرة الخامسة المنفية (٣٨٥٠ - ٣٦٠٢) ق.م

أول ملوكها اسكاف .. كان محباً للعلم وعطوفاً على الرعية . سن لها القوانين
وبعده «نفراركارع» ومن أشهر أثار هذه الحقبة الآثار التي وجدت في مقبرة
سقارة وقد بنى هذه المقبرة «ن» صهر الملك عنوس . تابع ملوك هذه الأسرة
وقد اهتمت هذه الأسرة بالحياة الداخلية وقل نشاطها الخارجي مما قلل دخلها
وانحط في نهايتها الفن لانشغال الناس بأعمالهم وعودتهم لحياهم الطبيعية بعد حياة
التجديد والتسخير .

الأسرة السادسة الاسوانيه (٣٦٠٢ - ٣٣٩٩) : ق م

ظهور النوبة في التاريخ القديم :

ظهر لاسم النوبة لأول مرة في عهد هذه الأسرات وبذلك يمكن أن نؤرخ دخول أرض النوبة والسردان بخضوعها للأثار الفرعونية والعبادات والفنون من هذا التاريخ . . . ولاشك أن هذا التدرج الذى قاد الأسر الفرعونية من الشمال إلى الجنوب جاء بعد صراع مرير وأخضاع لتلك المنطقة الجنوبية فقد إشتكت شعوب جنوب منطقة أسوان (النوبة) فى عمارة الأسرة الرابعة والخامسة واستخدم سكان تلك المناطق كعمال لبناء الاهرامات والمعابد لحاجة العمران للأيدى العاملة . ويبدو أن شعوب أرض سيناء وليبيا قد تمسوا على القتال وأصبحتوا فى حالة طيعة للدفاع عن أراضيهم ولاشك أن تأثير الحضارة على 'عرب شمال النيل والدلتا والتجارة بين شعوبهم قد اثمرت فى تنظيم الادارة فى جنوب النيل . ورغم أننا لم نتحصل على وثائق تثبت حالة الادارة فى أرض النوبة والسودان قبل هذا التاريخ إلا أن التدرج الطبيعى للحياة الاجتماعية المستقرة على النيل قد خلق نظاماً ادارياً يكفل الأمن والنظام بين شعوب النيل جنوب أسوان . . فقد انتقلت تلك الشعوب من حياة الافراد إلى المجموعات فى الممالك الصغيرة التى نشأت على النيل وسارت فى نظامها الادارى الملائكى بخلاف ما كان فى شمال الوادى حيث لم تخضع هذه الشعوب للألهة والكهنة مثل ما خضعت شعوب الدلتا ووسط مصر .

فى عهد الأسرة الاسوانيه انقسمت مصر إلى قسمين الدلتا يحكمها ملك من منف والصعيد ويحكمه أول ملك من الأسرة الاسوانية . . ويبدو إن مملكة الصعيد كانت أقوى من مملكة الدلتا للفتوحات الجديدة التى خطتها فى أراضي النوبة والسودان والخيرات الكثيرة التى جاءت إليهما حتى تمكنت الأسرة

الأسوانية في عهد د. بليز هريترع ، ووحيد المملكتين الدلتا وأسوان وجعل
العاصمة أسوان وبذلك إنقضت تلك الحضارة إلى الجنوب وانفتح بذلك السودان
لأثرات الحضارة الفرعونية في عهد هذه الأسرة واكتشفت المعادن في السودان
في هذه الفترة وجاء بعد د. مريترع ، الملك فيوبس ، الذي حدث في عهده
ثورات كثيرة منها تمرد النوبة والزنج . . ويبدو أن هذا العهد توسع الملك
في الشمال بعيدا داخل أراضي السودان لذكر إسم د. الزنج ، بجانب النوبة في
هذه الفترة . ثم خلفه د. مريترع ، الثاني ثم خلفته أخته د. نيتوفريس ، ذات
الحسن والجمال كما قال د. مانيثون ، المؤرخ الاغريقي .

الأسرة السابعة إلى العاشرة (٣٢٩٩ - ٣٠٠٦٣) ق م

حكمت هذه الفترة أسرتان من منف والأسرتان الإهناسيتان بعد
إنقراط الأسرة السادسة الأسوانية ويبدو أن تمرد الجنوب وإسرداده
لسلطته إضعف أسرة اسوان مما جعل أسرة منف تعود للسلطة من جديد وتنقل
العاصمة من أسوان إلى (إهناس) وفي هذه الفترة بعد أن خضع السودان
والنوبة للثورات الحضارية الفرعونية وتمكن من الاستقلال عنهم خضع
لأشك للديانات المصرية والحضارة الفرعونية بعد إن فرضت عليه في عهد الأسرة
الأسوانية .

الأسرة الحادية عشر الطايبية (٣٠٦٤ - ٢٩٦٣) ق م

يبدو اهتزاز الملك بين الأسرات السابقة وانتقال السلطة وإنشاقاق الدولة
وانتقالها لآسوان ثم إلى إهناس كان في عهد وصات فيه السلطة المصرية دورا
من التدهور بما قاد إلى هذا التغير السريع والتنقل . . وإذا كان هذا التنقل

وهذا الانشقاق قد كان كارهه على الدولة المصرية لكنه كان له فضله الجنوب في دخوله تحت تأثير هذه الحضارة في عهد الأسرة الاسوانية التي : الحضارة للجنوب والنوبة والسودان . . حتى بات السودان بعد انتقال الد . للشمال بره أخرى ذات سيادة وحضارة ذات طابع فرعي مستقلة كل الأسرة ولا يمكن أن يكون لتلك الحضارة التي انتقلت للسودان في عهد الأسرة الاسوانية من لرق ما كان في الدلتا ووسط مصر ولكنه كان بلا شك بدايه جديده الرقي والحضارة والتفكير الديني ونظام الدارة .

ويمكن لنا أن نؤرخ تلك الفترة بفترة النوشة الأولى التي خضعت بعد إنتقال الأسرة من أسوان وإزمال تلك الحضارة عن الشمال .

وبعد إنتقال الحكيم في الجنوب إلى الشمال مرة أخرى بدأت الحياة تد في الدولة المصرية مرة أخرى في عهد الأسرة الطيبية (نسبة إلى طيبه) وذل في عهد هذه الأسرة « منتوحب » الرابع الذي نزح الدلتا من ملوك أهنا ووحده مصر تحت سيطرته وعمر البلاد ووسيع مملكة حتى سينا وفلسطين : جاء بعده ملوك لم يكن لهم شأن يذكر . انصرفت على يديهم اصلاحات هذ الملك .

الأسرة الثانية عشر الطيبية (٢٩٦٣ - ٢٦٥٠) ق م

وفي عهد هذه الأسرة التي حكمت مائة وثلاثة عشر عاماً هادت لمصر مرة أخرى وحدثها وعادت طيبه مرة أخرى عاصمة الدولة الموحدة .

وبعد أن استتب النظام لهذه المملكة الطيبية وحدثت السلاطة الداخلية ورات المستعمرات القديمة التي تمرد عليها فكرت في إعادة أرض (النوبة وأثيوبيا)

مرة أخرى . وقد ظهر اسم اثيوبيا هنا لأول مرة وقد كان يقصد به جنوب النوبة . . فقد كانت النوبة واثيوبيا وبهمنه تطلق على الارض جنوب مصر .

وقد خضع السودان مرة أخرى لسلطة هذه الدولة الطيبية ويبدو هذه المرة أن جنود هذه المملكة قد ساروا داخل السودان وكان ذلك في عهد الملك (منتجب الأول) الذي عرف بالحكمة والحزم وحين حانت وفاته دعى ابنه وقال له هذه الوصية :

(يا بني لقد أصبحت حاكم الأقاليم الثلاثة) الوجه البحرى - القبلى - النوبة (وهذه أول مرة تصبح النوبة جزءا لا يتجزأ من المملكة الفرعونية) وقال : (فأقند بأحسن ما كان يفعله أسلافك وحافظ على نظام الرعية ولا تكن في معزل عنها ولا تعجب بنفسك ولا تقتصر على مصاحبة الغنى دون الفقير . . ولا تسرع بتقريب الوافد إليك فأن ضمائر خافية عليك) .

وفى عهده استخرج الذهب من أرض النوبة وقام بغزوات عديدة لها ورجع بالكثير من الغنائم والسبايا وأخضع كذلك الزوج خلف أرض النوبة .

ثم جا . بعده ابنه (أوسرتيس) ثم جاء بعده منتجب الثانى أو (سيزوستريس) الذى شاد حصونا وقلاعاً فى وادى حلفا وقد وجد على بقايا هذه الحصون (هذا حد مصر الجنوبي وضع فى السنة الثامنة لحكم الملك (أوسرتيس) .

الأسرة الثالثة عشر الطيبية (٢٧٥٠ - ٢٥٦٦) ق م :

وكذلك يبدو أن حدود مصر امتدت أبعد من حلفا فى عهد المملكة وكذلك أن هذه المملكة وغزواتها كانت تذهب بعيدا عن حلفا وربما كانت الهراشب

- ٩٥ -

تجبي من ملوك الممالك السودانية جنوب حلفا وفي عهد هذه الأسرة توسعت
فترات الممالك المصرية للجنوب حتى وصلت الشلال الرابع شرق كريمة . . .
وربما خلف المصريون على هذه الاراضي الجديدة التي اخضعوها بعض الامراء
الوطنيين أو بعض المصريين ولكن هذا الامتداد الجديد للجنوب قد نقل
الحضارة الفرعونية إلى داخل السودان ونقل معها الديانات والنظام الادارى -
وربطت هذه الممالك بحركة الدولة المصرية التي كان عليها أن تحافظ على هذه
الحدود .

وجد بمدينة بوهين بقايا مدينة قديمة بها معبدان وقلاع من الأسرة الثانية
عشر . زارها شامبليول وروسيني ونقلوا آثارها إلى فلورنسا . أخذت شمال أمون
من فاعدته التي وجدها كابتن ليونز وارسل إلى فلورنسا بجمع تاريخه إلى الأسرة الثانية
عشر . وكان على أمراء هذه الممالك أن يهتموا فرصة أي ضعف في الشمال
ليعيدوا استقلالهم وكان أهالي السودان أكثرية ظنة للبحث عن ضعف في الدولة
العربية وفي نفس الوقت كانوا يحارلون أن يتقربوا للممالك المصرية واعتناق
ديانتهم والاستفادة من نظامهم ومداهنتهم . . . وهذه حال الشعوب والممالك .

والأسرة الرابعة عشر والخامسة عشر (٢٣٨٢-٢٥٦٦) (٢٣٨٢-٢١٤٣) ق. م.:

حكمت مصر في هذه الفترة الأسرة السخاوية أو دولة العاقلة والعه . .
وهم من قبائل الشام اتهموا فرصة الشقاق في مصر . . وقد كان العاقلة من
العرب العاقلة .

الأسرة السادسة عشر الصانانية (٢١٤٣ - ١٩٨١) ق. م.

ظهر في عهد الأسرة الصانانية التي جعلت صان ناصبه لهم أيضاً من العرب

ومنهم (أبوقيس) الذى لقبه العرب (بالركبان بن الوليد) أتزع ملوك هذه الاسرة الوجه القبلى من فراعنة مصر . . . وفى عهد هذه الاسرة ظهر سيدنا يوسف عليه السلام ومن قصة سيدنا يوسف عليه السلام تبدولنا صورة المجتمع فى تلك العصور وحالة الشعب والرعية ورهبة الفراعنة واستبدادهم وتحكمهم فى مصائر البشر كما تكشف لنا عن انتشار السحر والشعوذة سلطة الملك وحوله مجموعة من دجالى الدين الذين احترقوا الشعوذة والسحر . . وارهبوا الناس . .

الاسرة السابعة عشر (١٩٨٣ - ١٧٠٣) قم

من تاريخ هذه الاسره يظهر لنا أن الصعيد كان قد انفصل عن الشمال حتى اضطرت لاعادته وبذلك تكون الممالك السودانية قد انفصلت واستغلت ادارتها عن الشمال والسبب عدم استقرار الملك على ارض النيل هو توسع هذه المملكة شرقا وجنوبا وغربا مما جعلها تخضع اجناسا مختلفة كما فعلت الدولة العثمانية فى العصور الوسطى مما سهل انفصال هذه الشعوب عن المملكة المصرية واعادتها مرة أخرى وبذلك أصبحت تخضع للعادات والتقاليد الفرعونية ثم تعود مرة أخرى لتقاليدها المحلية . . وفى تاريخ هذه المملكة التى حكمها الرعاة ٣١ عاما لاشك قلت فيه نهضة الحضارة الفرعونية رذخات عليها مؤثرات جديدة .

وفى نهاية هذا العصر ظهرت الدولة النوبية الاثيوبية فى ارض النوبة .

وجد بمنطقة بوهين مع التماسال نائمة بعشرين مدن أخرى بين بوهين ودنقلا .

وتدل القائمة على غناء هذه المنطقة بالذرة والمحاصيل الاخرى

الاسرة الثامنة عشرة الطيبية (١٧٠٣ - ١٤٦٢) ق م :

يبدو أن سلطة الاسرة الثامنة عشر الطيبية قد امتدت إلى الجنوب اكثر

عما سمعتم من ممالك . . ففى عهد هذه الأسرة ظهر ملوك وملكات عظام على مصر وسعوا حدودها وأخضعوا كل جيرانهم . . وقد ظهر لنا توسع الأسرة الثانية عشر الطيبة إلى الجنوب حتى الشلال الرابع ويبدو أنهم أقاموا مملكتهم الجنوبية هناك وقد تعبت تلك المملكة الجنوبية وصارت تابعة لهم ، أما عن ظهور المظاهر أو الحاكم المقيم . . . رغم انفصال هذه المملكة عن سيطرة مصر فى عهد الأسر المقبلة وليسكن زواج أول ملوك هذه الأسرة الملك (ام تريس) الأول من أمينة ملكة إثيوبيا وهذا ما ترجمه بأنه كان يقصد به مملكة الشلال الرابع (كرمه) وليست إثيوبيا الحبشة .

تزوج أموزيس بأينة ملكة إثيوبيا (كرمه) وهذه المصاهرة لا يمكن أن تكون قد قامت بدون مقدمات . . فلا بد أن نكون مملكة إثيوبيا قد بلغت شأوا من التقدم والازدهار حتى تتطاول لمصاهرة ملك الشمال . . أو أن هذه المملكة كانت لم تحدرت من ممالك الأسرة الثانية عشر وأحفظت برعامة إثيوبيا وتعود مرة أخرى بعد استتباب الأمن فى هذه الأسرة الثامنة عشر لتساعدنا فى حروبها على ممالك النوبة والعرب المالقة حتى انتهى منهم بمساعدة دول إثيوبيا . . وبهذا الاتحاد بين الجنوب والشمال ، خضعت منطقة النيل حتى الشلال الرابع لمظاهر الحضارة الفرعونية مرة أخرى . . وبهذه المصاهرة بين ملك طيبة وأبنة ملك إثيوبيا فقد نشطت التجارة بين الشمال والجنوب وازدهرت العلاقات وأصبحت الممالك النوبية الكثيرة المتمرد محصورة بين ماكين توحدها بالمصاهرة ضد أعدائها وبذلك قلت خطورة وتمرد الجماعات الصغيرة . وربما تسكن فى هذه الفترة قد خضعت كل بتروعات الغيل لأشراف الدول الإثيوبية وتم تمهينها بمظاهر الحضارة الفرعونية بعد تمرد النوبيين الذين عرفوا بعدم الخضوع لآى نفوذ جديد .

ثم بعد وفاته استلمت وصاية الملك زوجته نفر تارى على ابنه (امنوفيس)

حتى شب هذا الملك وفي عهد وصايتها قوبت بمملكة إثيوبيا وجاء ابنها فأتى
لإخضاع الممالك النوبية وضمتها لمملكته . ولا شك أن هذا الإخضاع هذه المرة
كان كاملا لا يتوقف على الجزية والعقوبات وإنما كان بطريقة أشمل بتعيين نواب
على هذه الممالك . وهؤلاء النواب لا شك كانوا من القوات المصرية والإثيوبيين .

ثم جاء بعد أمنوفيس الثالث (تحتمس الاول) مصمما على ضم الشام
والنوبة ، وبايع النوبة خلفه تحتمس الثاني بلا قتال وهذا يعني خضوع هذه
الممالك لهذه الأسرة والاعتراف بأى ملك جديد تم كشف عن نفوذ وتبعية
هذه الممالك النوبية وذلك من جراء الدم الذى تسرب إلى بلاط المملكة الفرعونية .

ثم جاء تحتمس الثالث الذى استولت أخيه (هاناسو) على الحكم
نسبة لصغر سنه وانفردت بالحكم ووسعت بلادها وتوسعت فتوحات المصريين
في هذه الفترة .

ولما أوفت عاد الحكم إلى أخيها تحتمس الثالث أعظم ملوك مصر الذى
وسع مملكته وجنسه لهذه الفتوحات حتى أخضع الحبشة والنوبة ومعظم
أراضي السودان وقد وصلت فيه لأول مرة جنود الحضارة الفرعونية إلى نهر
العظيرة . ولكن لا يمكن أن تعزل الحضارة قد دخلت إلى هذه السهول والحبشة
فقد كان الإخضاع عسكري وتجارى لم يسمح ببذر بذور حضارة شمال النيل
وفي هذا العهد توسعت المملكة المصرية إلى الموصل والعراق واليمن وكرديستان
وأرمينية وجزيرة قبرص ثم جاء بعده أمنوفيس الثالث الذى أمكنه
أن يخضع السودان لسيطرته حتى النيل الأزرق . . . وبعد هذا التوسع المنقطع
النظير كان لابد أن يثقل كاهل الدولة بمراقبة الأمن والنظام وهذا يحتاج وجود
ملوك عظام على مر الزمان .

ولكن ما حدث في نهاية هذه الأسرة الثامنة عشرة الطيبة ان اضطرب الحكم في هذه المملكة التاسعة .. وتمردت الممالك السودانية هذه المرة التي اشادت لها قلاعاً وحصونا على طول النيل وعرفت المعابد المصرية بدخول الجنود المصريين والكهنة ورجال العبادة حتى تعلم أهل النيل هذه الفنون والعبادات وكثرت مظاهر الحضارة الفرعونية من عادات وتقاليد عند أهل السودان رغم ما عرفوا به من عدم الخضوع لأي سلطة خارجية فقد كانوا كثيرى التمرد والعصيان الامر الذى قاد لارسال جيوش مصرية عظيمة في عهد الفتوحات وبناء القلاع المصرية للحفاظ على طاعتهم . ولكن الفتوحات المصرية كان قل تعدادها في عواصم النيل والنوبة حتى اصبح عدد هذه الممالك مرهوناً بقوة الملك في طيبة واستعدادا السريع لنأديب هذه الممالك المتمرده .

الأسرة التاسعة عشر الطيبة (١٤٦٢ - ١٢٨٨) ق م

كان رمسيس الاول اول ملوك هذه الأسرة الذى وجد تركه ثقيلة وبمملكة واسعة الارحاء تفككت أوصالها في الشمال والجنوب والشرق وكانت آسيا مصدر قلق لهذا الملك .

وعادت الحروب من جديد لاختضاع لثيربيا والنوبة والعراق والشام وإعادة لها إلى حدود المملكة القديمة . . . وتطورت الفنون في عهد هذه الأسرة التي ظهر فيها ملوك عظام مثل تحتمس الرابع ورمسيس الثاني . . . ولكن بعد عهد هؤلاء الملوك اختفت مظاهر التمرد والعصيان من جديد . . . وتعرضت مصر لهجوم من الشمال من اليونانيين والليبيين وساء حال الحكم في مصر وذلك لكثرة الجنود الذين أصبح في أماكنهم التمرد وقد كانوا من شتى الشعوب التي خضعت لحكم مصر . هنا تجمع أعداء آخر ملوك مصر لخلعه ووضعوا على عرش الملك رجل من عامة الشعب .

الأسرة العشرون الطيبية : (١٢٨٨ - ١١١٠)

ظهر رمسيس الثالث في عهد هذه الأسرة وهو من سلالة أولئك الملوك العظام ولكن حال هذه الأسرة لم يختلف عن الأسرة السابقة في مواجهة صعوبة الحفاظ على هذه الممالك الواسعة وهذه الشعوب المتمردة ..

الأسرة الحادية والعشرون الصانبة (١١١٠ - ٩٨٠)

بعد انتهاء الدولة الطيبية الثانية استولت على الحكم أسرة من (صاى الحجر) وانقسمت مصر إلى قسمين مصر الوجه القبلي تتبع لملكهم أمون وعاصمتها طيبة والوجه البحري وكان فراعنتها الصانبين وقاعدتها صان ..

كان سمنوس هو أول ملوك صان وقد حاول إخضاع طيبة في عهد ملكها الكاهن (حرحور) - الذى لم يرضى بتغلب الصانبين عليه فأتحده مع الممالك الجنوبية الاثيوبية ووسع مملكته حتى سنار واتحاده هذا لاشك كان مع مملكة كرمة عند الشلال الرابع التي استطاعت أن تقوى نفوذها وتحفظ بسيادة جنوب النيل حتى النيل الأزرق : . . . ويبدو إن المنصر المصرى والديانات الفرعونية كانت خاضعة لامون الأمر الذى حتم تطويع هاتين المملكتين في زمن الشدة ومحاولة الصانبين القضاء على عبادة آمون . . .

الأسرة الثانية والعشرون البسطة (٩٨٠ - ٨١٠)

وقد عاد الاضطراب مرة أخرى لمصر بدخول شعوب كثيرة إليها حتى سقطت مصر في أيدي الشعوب المجاورة وخاصة شعوب آسيا الذين مهد لهم ملوك الدلتا بالعمل والوصول إلى مراكز عظيمة ولانتقل الحكم في عهد هذه

الأسرة إلى مدينة بسطة وهي من الأسرة الطينية واستولى اشششف على الحكم وهو من العنصر السامي ثم حارب ملوك طيبة وأخضعهم وبذلك مهد لافصال اتحاد مملكة طيبة واثيوبيا واستقلال السودان مرة أخرى

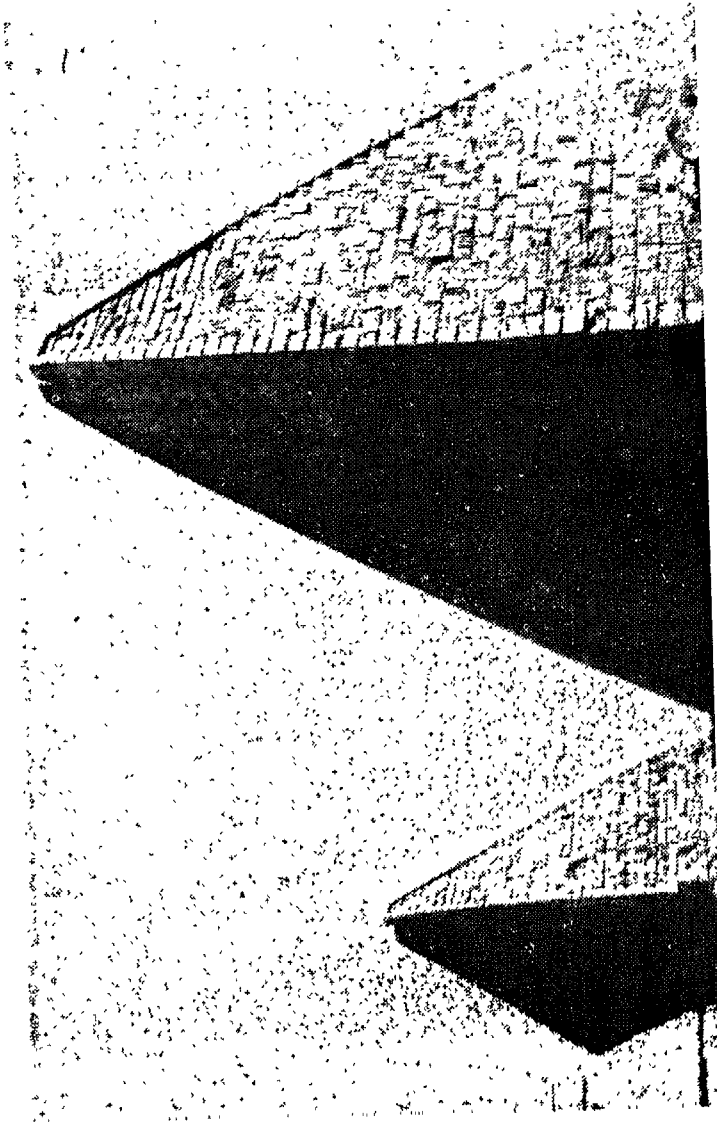
ولم يستتب الأمر لأسرة من هذه الأسر المتعددة التي بائت تتربص بعضها البعض ومحاوله إستجلاب الأجانب والجنود المرتزقة للتمرد على الملك وخلعه : ثم ظهرت الأسرة الثالثة والعشرون الصائنية .. (٨١٠ - ٧٢١ ف . م .) خالعة الأسرة الصائنية التي ساعدت على انقسام مصر إلى أكثر من عشرين أماراة وبذلك تفككت الدولة المصرية العظيمة وأصبحت غير قادرة على الحركة في الداخل والخارج بعد أن انتهكتها أطماع الأسر المختلفة للملك ..

وقد اغوى هذا الحال مملكة اثيوبيا للتمسك بدم وإستيلاء طيبة حتى عاد الصايون مرة أخرى لاسترداد طيبة من الاثيوبيين .

الأسرة الرابعة والعشرون الصاوية (٧٢١ - ٧١٥)

سامت الظروف في مصر وأصبح الملك أممية كل قادر وأصبحت الأسر القديمة التي ورثت الحكم كل منها تحيك المؤامرات للآخرى حتى خضعت طيبة مرة أخرى لنعوذ للاثيوبيين وذلك لاختلاف ملوك الوجه البحري .. فتمد انتهز الاثيوبيين بمساعدة الصاويين لاستعادة ملكهم واستولوا على أرض الوجه القبلي حتى ظهر تفتحت وطلب من الاثيوبيين فرض الشروط التي يطالبونها والاعتراف به ملكاً على الوجه البحري وكان هذا مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين . وجاء بعده (بكوريس) القانوني الشهير الذي قضى سبع سنوات في نزاع مع الاثيوبيين طمعا في طردهم من مصر ولاشك أنه كان يستعمل العرائض وتفسير القوانين بعدم شرعية حكم الاثيوبيين وبقيامهم في مصر ..

— ٩٧ —

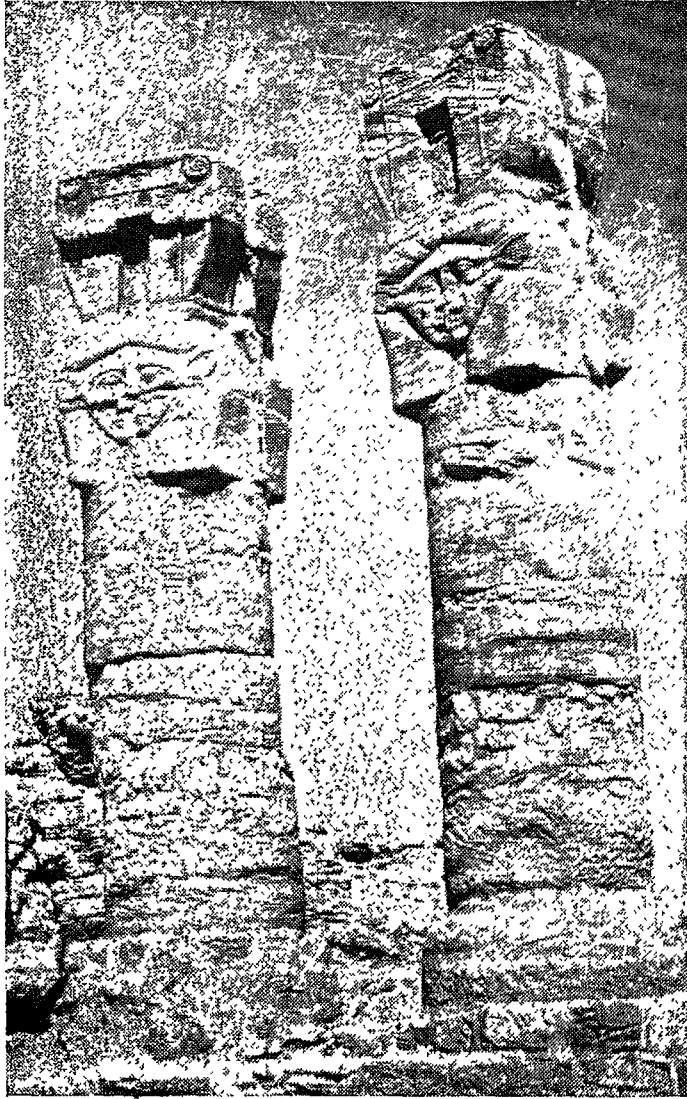


أهرامات مروي شرق معبد البركل حيث قامت على كفة نبتة في القرن الثامن قبل الميلاد.

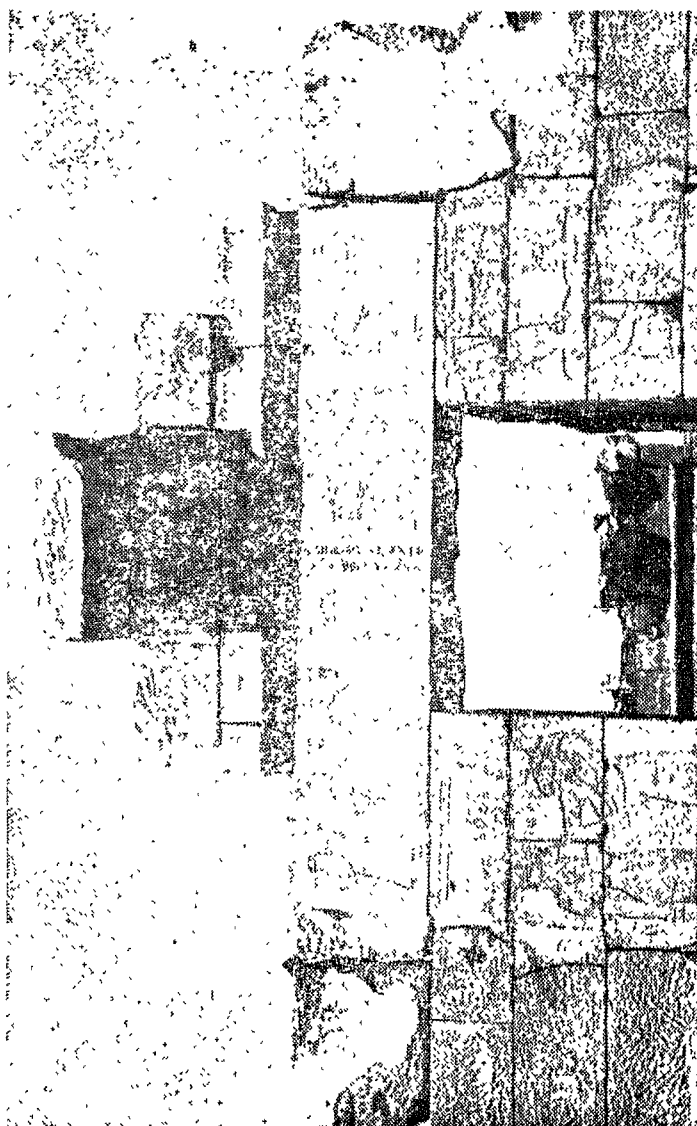


معبد الأسد بالنجعة . . بناء الملك نايكلامين (١٥ ق . م — ١٥ م) تابع لمروى القديمة .

- ١٠١ -



واجه الآله حاتور على وجهة أعمدة معبد جبل البركل من مخلفات
ملكه نبتة خلدما ملكها طهرقه العظيم .



أثاؤ حضارة مروى القديمة جنوب نهر عطبرة حيث أمتدت الحضارة الفرعونية إلى الجنوب ..
اللوحة عبارة عن واجهة معبد آمون بالنجعة العهد المروى (٣٥٠ ق.م — ٣٥٠ م)

كما استمر الآثيوبيون في محاولتهم لضم الوجه البحرى لإلهم ولكن يبدو أن الدولة الآثيوبية بدأت تدخل مراحل التوسع الذى طرأ على المملكة الأولى وأصبح بعد عاصمتهم (نباتا) على الوجه البحرى حائلا دون توسعهم حتى ظهر الملك (بكوريس) ملكا على الوجه البحرى فعارب الآثيوبيون فى عهد ملك (نباتا) (الملك سباقون) الذى خلع (بكوريس) وأحرقه وأستولى على ملك مصر جميعها وانتهى بذلك عهد ملوك الاسر المصرية لتدخل مصر فى حكم شعب الجنوب من القرن الثامن قبل الميلاد ...

الاسرة الخامسة والعشرون الآثيوبية (٧١٥ - ٦٦٥)

أحب شعب وادى النيل ملكهم سباقون بعد أن قضى على الفتن والمؤمرات للملوك ومعاملته الطيبة الحسنة للرعية وخط سياسة وشيدة لدولته الجديدة حيث لم تختلف ديانات وعبادات دولة نباتا عن الوجه القبلى وعبادة آمون . . وأعاد الحياة والتجارة بين شمال النيل وجنوبه وتوسع فى مملكته وأشاد المباني وأعاد بناء القديم وتوسع فى منشآته من المدن والمعابد والقصور ولأول مرة ينعم شعب وادى النيل بالاستقرار ويتفوغوا للعمل والحياة الطبيعية ولكن إطماع هذه الدولة الجديدة الشابة المنتهضة حاولت التوسع جنوبا حتى النيل الأزرق وسهول البطانة والحبشة وإخضعت لإواسط السودان وضمته لهذه المملكة وفرضت عليه مظاهر الحضارة الفرعونية التى إنتقل مركزها من الدلتا إلى طيبة ثم النوبة حتى وصل إلى البركل ثم مروي القديمة ...

ومن فضائل (سباقون) انه ألغى حكم الاعدام . . . وبعد أن نظم حكم مصر وترك مصر تحت رعاية أمة المملكة (اميزيوس) . . . وذمب لنجدة ملك الشمال (هوشع) ملك إسرائيل (وحزقيا) ملك يهوذا وأمراء فلسطين

الذين استجندوا به من ملك آشور الذي هزم هؤلاء جميعاً بما اضطّر سباقون للعودة لمصر ووجد أمراء الوجه البحري قد تمكّلوا في غياية وإسماعهم بأنهمزام جيشه أمام الاشوريين اعلنوا استقلال الوجه البحري (الدلتا) وحاربوه حتى طيبة حيث أقام إلى أن توفي بها . .

وخلفه ابنه سيخون ورأى نار الفتنة تدب من جديده بين أمراء الوجه البحري فأغار عليهم عارلاً لإسترداد الدلتا إلى مملكة حتى تمكن من إسترجاعها . . .

هنالك اختلاف حول إستلام ترهاقا للسلطة فبعض المصادر تفيد أنه قتل شبكتو بعد أن استولى على هرش نباتا والبعض تفيد أن شبكتو أوصى به له .

ثم إستلم السلطة ترهاقا بعد أن اقصى سيخون (شبكتو) وفي عهده فاض النيل وإستقرت الناس بعهد . . وكانت الدلتا وأرض فلسطين والعراق تضج بالحركة وتطلع ملوك آشور لامتداد سلطانه إلى النيل ، وتطلع ترهاقا لبسط نفوذه على أرض الشاميين والفلسطينيين التي كرهت سلطة الفرس وبهشهم . وكان ترهاقا ذكياً فطناً فلم يعمد إلى محاربة خصمه (أسرحدون) ملك آشور مباشرة بل عمد إلى دس الدسائس بين الولادة التابعين لآشور حتى يفكك جبهة القتال التي تقف بينه وبين (أسرحدون) وقد بلغ الأخير محاولات ترهاقا لبسط التفرة بين عماله على فلسطين والشام . . فأغضبه ذلك وتقابل الجيشان وانهزم ترهاقا وتابعته جيوش الاشوريين إلى ما وراء الشلال الاول . . . واستولى الاشوريين على منف ثم عاد ترهاقا واستعادها ثم استردها الاشوريين مرة أخرى وصار الصراع بين الاشوريين وترهاقا على مصر حتى تنازل الاشوريين وعقدوا صلحاً مع ترهاقا . . . ومن ثم قامت سلطة الاثيوبيين على الوجه البحري ..

بظهور دولة الآشوريين القوية في الشرق ودولة نباتا القوية في الجنوب
 جعلها مصر أرضاً للحرب وميداناً للقتال بين قوتين ناشأتين حين دب فيها الفساد
 فأمرها بالاستطيعون أن يلقوا صراحة مع آشور أرض من مملكة نباتا ولا يستطيعون
 أن يعادوا هذه ولا تلك والحرب يوم نصر لهذا ومره لعدوه مما أضعف الوضع
 فيها وإضعف اعتماد حكام يساندون أحد القوتين لتخفيف نصر كامل حتى اقتنع
 الآثوريين بظيعة ثم جاء بسماطيك الأول الصاوي على الوجه البحري واستعان
 باليونانيين على بناء دولته وعلومها وحفظ ود الآثوريين بزواجه بأهيرة من
 بنات الأسرة المالكة الآثورية فاسترجع طيبة وضم مصر الجنوبية وعادت دولة
 لآثورية إلى قواعدها الأولى حتى ظهر قمبيز ملك فارس وأدخل مصر تحت
 حكمه عام ٥٢٧ ق . م وبذلك دخلت مصر عهداً جديداً في خضوعها لمظاهر
 الحضارة الفارسية ثم بعد ذلك لمظاهر الحضارة اليونانية والرومانية . . .

أما دولة اثيوبيا فقد أصبحت بعيدة عن سهام الفرس كما إنها اقتنعت
 بحدودها وسمت نظرها لبسط نفوذها للجنوب حيث كانت تمتد جنوب النيل
 الأزرق قبائل الشلك والعناصر السودانيين التي كانت تسكن أرض الجزيرة
 الغنية والنيل الأزرق .

دولة نباتا

بعد انتهاء حكم الآثيوبيين في الوجه البحري والقبلي وجلاء الآشوريين عنها اعتلى عرش الوجه البحري الأسرة السادسة والعشرين الصاوية . وفي عهد الملك بساتيك الاول الذى استعان باليونانيين على تنظيم البلاد وتمكينهم والاحتفاء بعلماهم استطاع بمعاونة اليونانيين من طرد الآثيوبيين من طيبة وجنوب مصر وبذلك انتهى أثر السيطرة الآثيوبية على مصر وكان ذلك فى عام ٦٥٠ ق م وبعد أن استتب الامر لبساتيك ، بدأ إعادة الحياة لمصر وقرب اليونانيين وجندهم وجعل منهم قواده وأكرمهم إلى حد جعل جنود المصريين يغضبون عايم ويقصدون لاثيوبيا حيث رحب بهم ملك نباتا وكرمهم واستفاد بهم فى تنظيم جيشه وفتوحاته لداخل السودان .

ورغم قلة المصادر حتى الآن عن دولة طيبة بعد القرن السادس الميلادى إلا أننا يمكن أن نتصور حال البلاد بعد أن اكتفت دولة نباتا بالانتصارات الداخلية وامتداد فتوحاتها إلى الداخل وانتشار العبارة والفنون والاستفادة من الجنود المصريين الذى تركوا خدمة بساتيك الاول الذى بدأ فى ادخال علوم اليونان وقواتهم اليهم بذلك لدخول الحضارة اليونانية محل الحضارة الفرعونية :

نرى السودان يتوسع فى نشر هذه الحضارة الفرعونية جنوبا وتخضع له كل الممالك التابعة على النيل الا ان حتى سنار وتظهر عاصمة ثانية عند مرمى القديمة ناحية كبوشية لتولى اداره البلاد وتتولى نباتا العاصمة ادارة الجزء الشمالى .

كان هذا فى هذا العصر الذى بلغت فيه الحضارة الفرعونية عظمتها ورقيا

في السودان وامتلا النيل بالمعابد والقصور والفنون الفرعونية من حلفا حتى أرض الجزيرة .

وبمرور الزمن دخلت الحضارة الفرعونية في عصر الركود والخبول من جأه دخول الحضارة اليونانية ثم بخصرع مصر لحكم قبيز ملك فارس عام ٥١٧ ق . م وتأسيسه الاسرة السابعة والعشرين الفارسية التي نكلت بالمصريين وبعباداتهم وحرمت عليهم عبادة الديجل آيس ، وأبطال الشعائر الدينية افرعونية ، وكان السودان في ذلك الوقت ملجأ للمصريين من بطش الفرس والراغبين في نهضة السودان لانقاذ مصر من وحشية الفرس يبدو ان حكم نبالم ينكروا في هذا العمل مرة أخرى بعد هزيمة ماوكم العظام بعانخي وترها نأحاناب قوة الدولة الفارسية التي ارهبت العالم ونكلت باعدائها أشد التنكيل هذا كله جعل حكم نباتا لايقدمون لانقاذ مصر خوفاً من ادخال أنفسهم وممالكهم في حروب مع هذه الدولة القوية السريشة التي ربما زحفت عليهم ودمرت حضارتهم بعدها دمرت حضارة مصر واذانة شعبيها من العذاب وحرمت عليهم شعائرهم الدينية وعباداتهم . . وبذلك انفصل تاريخ السودان من ذلك التاريخ عن مصر ولم ياول ان يدخل نفسه في شئوننا وذلك للضمف الذي بدأ على درله نبتة وتوسعها وانقسامها الى امارتين وخصوع مصر لسيطرة دولة قوية تختلف ديانتها عن ديانتهم وحضارة السودان الفرعونية - وربما حفاظا على هذا التراث من المؤثرات التي طرأت على مصر وازدهرت فيها واعادت لها الحياة من جديد

اقتنع السودان بأثار الحضارة الفرعونية التي لم يأتي ملك عظيم ليرفع من شأنها أو يوقدها ولم يستتب الامر مع ذلك للفرس في مصر فاعمالهم الوحشية ومساعدته اليونانيين المصريين الذين كثر عددهم في مصر وبدوغ دولتهم حرض المهرين للثورة على الفارسيين حتى أقه وهم ولكن ذلك لم يعطها استقلالها نهائيا

وانما كان تمهيدا لإخضاع مصر مرة أخرى للحضارة اليونانية بدخول الإسكندر المقدوني عام ٣٣١ ق م . مصر ونهبها الامبراطورية الرومانية بعد ان فتح بلاد اسيا الصغرى وصيدا وصور . واستمر حكم اليونان في مصر حتى لمعتلى احمد قواد الاسكندر بطليمون بن لاغوس عرش مصر ودخلت مصر في عهد البطالسة حتى آخر ملوكها كليوباترة سنة ٣٠ ق م .

وفي هذا الانهاء تطورت حياة مصر العلمية والفنية بانشاء جامعة الاسكندرية وبدخول العلوم اليونانية كالفلسفة والفلك والعلوم العقلية وازدهرت حياة مصر العلمية والفنية خلال ال ٣٠٠ سنة التي خضعت فيها للحضارة الرومانية . ويبدو ان هذه الحضارة بعمارتها وفنونها وعاداتها قد وصلت للسودان وخاصة الفنون . لان حسن الجوار بين المملكتين كان قائما فلم تحدث اى غارات أو هجوم بين الدولتين خلال تلك الفترة ولم تفكر احدى الدولتين في بسط نفوذها أو مظاهر حضارتها بالقوة على الاخرى واستمرت الحياة التجارية والتبادل الثقافي والفنون الرومانية تفد للسودان عن طريق الهاربين والتجار والعمال ولكن هذا الاثر كان يسيطا لتعارض هذه الحضارة وتعاليمها مع الديانات المصرية بالسودان فلو سمح بدخول العلوم اليونانية ومعنى ذلك الاعتراف بديانة اخرى غير ديانة الفراعنة والحضارة الفرعونية التي استوطنت السودان .

ويبدو ان السودان دخل في مرحلة من مراحل الضعف والنفك في هذه الفترة فلم يحاول أن يستفيد من العلوم والفنون الاغريقية أو الرومانية على غرار جامعة الاسكندرية أو ارسال المبعوثين أو إقامة الاروقة وذلك لانعدام الصلة بين حكم مصر من الرومانيين وبين حكم نبتا ، الذين كانت لهم علاقات طيبة مع حكم مصر من الوطنيين وصلت حد المصاهرة والمعاملات والمساعدات العسكرية .

وظل تاريخ الممالك السودانية الفرعونية خلال تلك الفترة يقع تحت الاثرية وبقيت بقايا الاثار مبعثرة لم تكشف عن نفسها شيئا يذكر حتى دخل السودان في العهد المسيحي ، ولم تحاول الدولة اثيوبية مرة أخرى أن تعاود الهجوم على مصر الا في عهد أغسطس ولإل مصر الذي خرج لاحتلال شبه الجزيرة العربية وانتهم حكام « ناباتا » هزيمة وبمساعدة عن صعيد مصر لاحتلال مدينة إسوان وضواحيها ، وكان ذلك قبل ميلاد المسيح ببضع سنين ، ولكن أغسطس عاد وحارب الاثيوبيين حتى عاصمتهم « ناباتا » وأجلاهم عن مصر مرة أخرى وهذا يدلنا على قوة مملكتهم « ناباتا » حتى ظهور المسيح ودخول مصر في ملك الدولة الرومانية ..

المسيحية في مصر والسودان :

ولد المسيح بأرض فلسطين بقرية بيت لحم ولما بلغ من العمر سنتين أتت به أمه إلى مصر مع يوسف النجار حيث عاش فيها أربع سنوات ..

نظمت مصر تحت حكم متقلب بين قسوة القياصرة الرومان وعمتها الفتن وعاش الشعب في ظلم شديد في آخر عهد القياصرة . وفي هذا الانهيار عمت الديانة المسيحية الشرق ولقى روادها الاوائل الكثير من صور العذاب والاضطهاد وقد لقي رواد المسيحية بمصر النصب الأكبر من هذا العذاب ، من القياصرة الرومان . وقد ظهر بمصر رجالا حملوا عبء هذه الرسالة . وقد كانت الاسكندرية هي المقام الاول لهذه الرسالة ، ولكن قسوة قياصرة مصر لم يسمحوا للمسيحيين بإعلان إيمانهم بل طاردوهم وجند الجند للقبض على كل من ثبت عليه إيمانه بالمسيحية حتى قادت هذه المطاردة وهذا التعذيب لظهور مذاهب وسلوك رجاله الاسكندرية فيما بعد .

اضطر الاضطهاد الديني في مصر المؤمنين بالمسيح بعد البطش والتنكيل ،
أق هجر المؤمنين بالمسيحية المدن القرى وإعتصموا بالجبال والوديان وقد عبر
وادی النظرون بمجموعة من الهاربين من هؤلاء المؤمنين . كما كان صعيد مصر ملاذا
لهؤلاء النساك ، فوجدوا في وديانه وشعاب جباله وبعده عن أهين الجند وأعداء
الدين أماناً لحياتهم وللعبادة والهروب إلى حياة النساك وقد كانت الواحات
والصحارى أحسن الأماكن لإقامة هؤلاء النساك ومنهم الأنبياء ياقوم الذي تولى
الإشراف على النساك في الصعيد عام (٢٧٩م) وخط في حياة الكنيسة القبطية مبدأ
الزهد والعمل الجماعي . . لأن الكنيسة حتى القرن الرابع الميلادي لم تولد وحياة
الزهد لم تبدأ بعد بالصورة التي نراها اليوم . فقد عاش رجالها يناضلون ضد
الظلم والتعذيب حتى خطروا لسافهم هذا السلوك .

تعمل المسيحيون من الأقباط رسالة المسيحية والاحتفاء . . . بالواحات
والوديان وأوجدوا فكرة الدير .

عاشت المسيحية في مصر حتى القرن الخامس والسادس الميلادي في صراع
مرير بين الاعتراف بها من الحكام وبين التمييزات الدينية بين كنيسة
الإسكندرية ورجال وادی النهرون وكنيسة القسطنطينية وكنيسة الامبراطورية
الرومانية الغربية . . . وحركة الهرطقة التي ظهرت ووقفت فيها كنيسة
الإسكندرية ورجال وادی النظرون وقسماً مشرفاً في بث الديانة المسيحية .

نبذة عن ملوك السودان العظام

(كشتا - سباقون)

لم يترك لنا ملوك مملكة نباتا أُر الدولة الأثيوبية أى كتابات حتى يمكن عن طريقها كشف التاريخ القديم أو حياة هذه الممالك ونحن لا نستطيع أن نقول أنه لا توجد كتابات أو أنهم لم يخلقوا لنا أى آثار . ولكننا لم نستطيع حتى الآن أن نمر على آثار قديمة تكشف لنا عن تاريخ ملوك عظام رغم قدم الدولة الأثيوبية وصداقتها لدولة طيبة وتوسع هذه المملكة جنوباً حتى سنار والحبشة والنيل الأزرق .

من أخبار مملكة نباتا نعلم إن كشتا ليس هو مؤسس هذه المملكة ولكن بما خافه من الآثار نعلم أنه من أول المملوك العظام الذين وصلتنا أخبارهم ، إذ أنقذ مصر من سيطرة الليبيين ومؤثرات الأسر المتعددة للحكم وتطاع الآشوريين للسيطرة عليها فقد وصلت مصر في القرن الثامن قبل الميلاد إلى حالة من التفتك والمؤثرات مما جعل استتباب السلطة لبنت أو الملك أمراً مستحيلاً وقد رأينا أسر كثيرة متعددة الأسماء تتطاع إلى حكم مصر حتى تقسمت مصر في عهد الأسرة الثالثة والعشرين الصاوية (٨١٠ - ٧٢١ ق م) إلى أكثر من عشرين إمارة بما سهل غزو مصر الدولة العظيمة التي انتهت إلى أمارات صغيرة من جراء النفوذ والصراع على السلطة كما أن تدخل التي قامت بينهم وبين الأسرات المختلفة جعلت كما أن اشتراكهم واتحادهم مع أكثر من أمة تقيدهم بالديانات المصرية جعلهم يخافون

مصر في عهد الامرة الثالثة والعشرين الصافية لتلك الحالة من التملك وكثرة
الامارات فيها وتدخل الليبيين وتطلع الاشوريين لارحف عايتها الامر الذي
جعل مملكة نبتة القوية المنيعه حافظه ديانه امون التحرك لتنفذ مصر وتوحيدها
وكان ذلك في عهد الملك العظيم بعنخي .

وأول ملك اثيوبي (سوداني) أعتلى عرش مصر وكون الاسرة الخامسة
والعشرين الاثيوبية (سباقون أو كشتا) الذي ثار على بكوريس ملك الوجه
البحري واحرقه وأخضع جميع مصر تحت سلطنة ودانت له دولة تمتد من الدلتا
الى النيل الازرق وسهولة ..

ولنصف هذا الملك يحب عايتها أن نرى الظروف العصيبة التي كانت تعيش
فيها مصر والفتن الداخلية وأمر الامارات على بعضها وطمع كل ذي سلطة
قديمة في الملك حتى أضحي الوصول إلى الملك أو الامارة مغامرة من مغامرات
القرون الوسطى التي حدثت في أوروبا وانجلترا . جاء كشتا الى أرض طيبة
والوجه البحري وشعب مصر يقف معه ويحبه لما أبداه من حسن ونظام
وعدل وطرد الليبيين من مصر .

وفي الداخل مارالت أطماع الامراء السابقين ترادهم ولا يمكن أن . . .
يصمت مثل هذا العدد من الطامعين في الحكم بالهزيمة . هذا في الداخل أما
خارج مصر فتد استنجد به هو شع ملك اسرائيل وحذقيا ملك يهوذا وكذلك
امراء فلسطين من خطر ملك آشور الذي كان يستعد لغزو هذه الممالك الى
مملكة آشور .

فما كان من كشتا الا أن جود جيوشه وقاده بنفسه وسار تتبعه جيوش هذه

- ١١٥ -

الممالك الا ان ملك آشور هزم بجيشه العظيم هذه الجيوش المتحدة وفرقها
ما اضطر كاشتا للعودة الى مصر لاستجماع قوته واعادة النظر في خطته لهذا العذر

وفى هذه الاثناء انهنز امراء الوجه البحرى هزيمة جيوش كاشتا ضد جيوش
آشور فاعلنوا تمردهم وانفصلوا عنهم عن سلطة كاشتا وتصددوا للجيش الممزوم
وردوة الى طيبة حيث استقر واعاد النظام الى مملكته الواسعة حتى اوفى بها .

• * *

سليخون :

بعد وفاة (سباقون) إعتلى عرش طيبة ابنه سليخون ، وخلف له والده
عدواة أمراء الوجه البحرى ومرارة هزيمة الاشوريين ، فحاول أن يعمد هذا
الملك إلى سياسة فرق تسد بين أمراء الوجه البحرى إلا أن المنية عاجلته قبل أن
يتمكن من إعادة وحدة البلاد كما كانت عليها حتى أعطى فرصة لليبيين لظهور
مرة أخرى وتدخلهم لمساعدة أمراء الوجه البحرى لطرد الاثيوبيين

بهنخى :

ومن ملوك الدولة الاثيوبية بهنخى العظيم الذى خلف لنا اثارا كثيرة
تحدث عن مجده وعظمته وشهرته فقد سمع هذا الملك بمحاولة الليبيين لتجميع
أمراء الوجه البحرى وطرد الاثيوبيين من مصر فجرد بهنخى جيشا عظيما وأرسله
لمصر وخلص طيبة من سيطرتهم ولحقهم بهنخى بجيش آخر وطارت فلول
المنزعين حتى تمت له السيطرة على الوجه القبلى كله واستمد لمحاربة بقايا أمراء
الوجه البحرى وإحتل بنصره فى معبد آمون بالكرنك . . ثم واصل زحفه
على أمراء الوجه البحرى حتى وقف عند حصون منف القوية وقاد الحملة بنفسه
حتى كسر شوكة حصون منف وعامل أسراهم أحسن معاملة .

شِبْكَتُو : (٦٩٨ - ٦٨٣ ق . م)

خلف شِبْكَتُو عمه سِبا كوا على عرش نِباتا وقد اعتلى العرش وما ذالت
أحلام مملكة مصر هي توحيد مصر ، وطردها من الأشوريين منها تراود
حكاهم . ولكن المنية لم تسمح لهذا الملك أن يستمر في الحكم إلا أنه بحسب
درايته عرف من يستطيع من أسرته إتمام هذه المهمة الخطيرة بتوحيد البلاد
وتأديب الآشوريين غير أخيه الأصغر ترهاقا :

ترهاقا : (٦٨٨١ - ٦٦٢ ق . م)

ظهر ترهاقا وهو يدرك المسؤولية العظيمة التي ولاها له أخيه (شِبْكَتُو)
بالحفاظ على وحدة وادي النيل وطرده الأعداء منها والمحاولة لنبذة شعوب
فلسطين والشام التي أخضعها الآشوريين قسرا . . فما كان من ترهاقا إلى أن يعيد
الأمم إلى أمراء هذه المناطق ومحاولته إرسال المندوبين وتأليبهم على الآشوريين
حتى أن كشف خطته قبل أن تأتي ثمارها مما جعل (أسر حدرن) ملك آشور يختار
له جيشاً لمحاربه . والتقى الجيشان على الحدود وأنهزم جيش ترهاقا وفشلت
خطته في إزالة خطر الآشوريين . ولم يترك الآشوريين جيش ترهاقا المنهزم
فقط ، بل تابعته حتى الشلال الأول ، ولكن الملك الفتى لم يمتنع بالهزيمة فعاود
الكره على جيوش الآشوريين حتى إبتنعوا بمنف واستمر القتال بين الآشوريين
وترهاقا زمنا طويلا مرة ينتصر عليهم ومرة يهزمون عليه حتى ترك الآشوريين
مقابل أتاوة سنوية . . وقد أحييت هذه الحروب أطماع أمراء الوجه البحري
من جديد .

وكان الوجه البحري مصدر قلق وُرد للدوله الأيوبيه . خلال محاولة
بسط سيطرتها عليه .

ثانئون آموت :

لستلم السلطة بعد ، فاة خاله نرهاقا وكان ثانون كخاله شجاعا ذا اطاع وطموح في إعاده توحيد مصر وطرد الاشوريين والليبيين عنها فجرد جيشا لطرد الاشوريين وقوبل جيشه عند طيبه استقبالا حسنا من شعب مصر ثم سار الى الدلتا حتى دانت له ولكن الاشوريين لم يتركوه يضم امراء الوجه البحرى حتى عادوا مرة أخرى بجيوش عظيمة لطرد الاثيوبيين من مصر حتى اقننع ثانون امون بالهزيمة وعاد لعاصمة نباتا وبعده لم يتطلع ملك بعده لاعادة توحيد مصر بعد أن قويت دولة الفرس وأصبح خطرها يهدد دولة نباتا فاقننعت بالسلام معها وتوسعت مملكتها داخل حدود السودان .

(دولة نباتا ومروى القديمة)

بعد أن تعزز على ملوك دولة نباتا الاحتفاظ بالسلطة على مصر حارلت اصلاح امورهم الداخلية والرقى بعباداتهم ومنشأتهم فأنشأوا المعابد والقصور وأصبحوا حافظى حضارة الفراعنة بعد أن دخل الفرس مصر وأساءوا معاملة سكانها ودعاتها ومعابدها حتى قوضوا على معظم معالم الحضارة الفرعونية .

أصبح السودان بعد غودة ثانون أمون ملجأ للحضارة والفنون الفرعونية وبذلك أنشغل الحكام في ازدهار هذه الحضارة على أرض النيل جنوبا وأقاموا مراكز لهم في جنوب نباتا وفي هذه المراكز الهامة مروى القديمة التي اقتصمت الحكم مع نباتا وأصبحت هي المشرفة على المنطقة جنوب شندى حتى منطقة الجزيرة والنيل الأزرق .

دولة أكسوم المسيحية في الجانب الشرقى من السودان

تحدثنا عن علاقة السودان القريّة بمصر ، وقيام الحضارة العظيمة على النيل في الشمال رقيام درلة (نبالا) العظيمة لتزحف في القرن السابع قبل الميلاد لتحرر مصر من الاضطرابات وتبعد عنها خطر الاثوريين واللبين وتمسك بزمام ملكة طيبة ثم تستولى على الوجه البحرى . . .

ونابعا قصة الحضارات والإمبراطوريات العظيمة التى ظهرت في الشرق ودخلت مصر وأبعدت عنها السودانين . وذلك من قراءة الوثائق والاشعار التى خلفتها لنا الملك الحقة ولكننا لم نتطرق إلى شرق السودان والبحر الاحمر خلال تلك الفترة حتى ليظن أن هذا الجانب من القارة الافريقية . كان ميتا معدوم الحياة والسبب راجع لا رغبة المؤرخين في تجاهل هذا الجانب ، ولكن لفقدان أد دليل يفت النظر إلى ذلك الجزء من القارة الذى شد لانتباهها اليه في القرن السادس الميلادى وليفصاح الوثائق والروايات التاريخية عن حضارة عريقة في هذا الجزء من افريقيا والبحر الاحمر وعلاقته بالجزيرة العربية وخاصة اليمن .

تدلت الوثائق التاريخية والآيات القرآنية عن دولة عظيمة لها من القوة والمناعة ما يجعل تصور نشأتها وتطورها إلى عدة قرون قبل الميلاد .

ظهرت دولة اكسوم وملكها ملك الملوك د غالب ، الذى كشف تاريخه عن حضارة المباشرة وندمها وسيطرتها على هذا الجزء من إفريقيا وفرض سيطرته شعبها عن الامارات العربية في اليمن .

ونعكس لنا قصة اكسوم وملكها د غالب، ان الاثوريين كانوا يقومون بأعداد

كبيرة في اليمن وأن المسيحية دخلتها في القرن الرابع الميلادي وهي في أوج مجدها وقوتها وأصبحت هذه الامبراطورية العظيمة على الهضبة الحبشية قائدة للتبشير المسيحي في أفريقيا . وجنوب الجزيرة العربية وبل وفي السودان .

وإذا كانت الوثائق لم تكشف لنا حقيقة قيام دولة لكسوم بالهجوم على دولة مروي القديمة وتخريبها ولكن غير هذه الدولة على المسيحية ومحاولة بسط نفوذها وقرصنتها عبر البحر الأحمر على العرب تبين لنا أن الباعث الأول كان لتخطيم تلك الحضارة الوثنية التي أقامت على الجزيرة العربية والنيل الأمر الذي قاد لتخطيم تلك الحضارة الوثنية في السودان ومملكتها وظهور مملكة علوة المسيحية بعد هذا الدمار الذي لحقته دولة اكسوم بمملكة مروي القديمة .

وتروى قصه ملك الملوك « غالب » ملك الحبشة بعد أن تعرض بهمد الأحباش المسيحيين للقتل باليمن ، أن أرسل قواته لليمن وقتل منها أعداداً هائلة من عباد اليهودية وبناء الكنائس في محاولته الجريئة التي ذكرها القرآن بقيادة قائد جيشه ابراهيم وعبوره للبحر الأحمر ودخوله الجزيرة العربية ومكة لتخطيم الكعبة وفرض المسيحيين على العرب قصة الفيل والطير الابطال التي جاءت في القرآن والآله كانيات البحريه العظيمة التي كانت لدى هذا الملك للتحرك في هذه الحقبة لليمن أو الى مكة تكشف لنا عن مدى تقدمها وقوتها كما تكشف لنا وسائل النقل عبر البحر الأحمر كانت يسيره والسفن تعرف عبر هذا المضيق ولم يكن هناك مانعاً أمام الاولين بل كانت الملاحة أمراً عادياً .

فشلت حملة ابراهيم قائد جيش غالب ملك اكسوم عام ٥٧٠ م . وهادت المملكة الى حالتها الأولى بعد هذه الخسائر ومحاولتها لمحاربة اليهودية في الجزيرة العربية تكشف لنا عن العلاقات العربية بين القارة الافريقية والجزيرة العربية

وخاصة اليمن ووجود أعداد هائلة من الاحباش باليمن وكذلك وجود أعداد هائلة من العرب بالحبيشة .

هذه المملكة القوية كان لها أثرها على الحياة السودانية في فرض المسيحية ديناً عليه بقوتها وبطشها ، وربما لولا محاولة المملكة أكسوم وتحطيمها للمملكة مروى لما تقدمت المسيحية كثيراً في السودان كما يكشف لنا أهمية شاطئ البحر الأحمر وحيويته ونشاطه من قديم الزمن وقيام ممالك قديمة بالقرب منه .

وقد حاول العرب الاتصال بالقسطنطينية لتمدها بالجيوش لتردع جنود أبراهام وتنتقم منه بتهديم مملكته في الحبيشة إلا أن القسطنطينية لم تلبى طلب العرب واعتذروا بأن الملك غالب أخ لها في الديانة المسيحية ولا يصح أن تحاربه وتعاون من يحاول أن يحاربه ولم يفتتح العرب بهذا المنطق بل حاولوا الفرس ولكن محاولاتهم لم تنجح .

وأرسل إمبراطور الفرس لينقذ اليهود العرب بحبيشه تعداد أربعة ألف جندي واستطاعوا القضاء على كل الحبيشة المسيحيين الذين كانوا بالجزيرة العربية وخلصوا الملك الحبشي الذي كان على عرش اليمن وبذلك انتهت المسيحية في الأراضي العربية لتفتتح المجال لظهور الإسلام بتعاليمه الجديدة .

ويظهر الإسلام في الجزيرة العربية وإسلام اليمن وسيطرتهم على البحر الأحمر ضعفت قوة دولة أكسوم الحربية بعد أن ساءت علاقتها مع جيرانها من العرب : حتى كان القرن العاشر (٩٦٠ م) وقد وصلت حالة من الوهن والتدهور والنطاحن على إنتاج الأمر الذي قادها إلى الخلافات الداخلية العكسيرة وشغلها ضيقها هذا عن محاولة الامتداد أو التدخل في شئون السودان .

وظهر هذا الشقاق بمحاولة الاسر والمتعددة للوصول للسلطة كما ساءت حالة الكنيسة وخضوعها للملك وذلك بفرض رئيس عليها من اقاربه دون اعتبار للمكانة العلمية . الامر الذى جعل علاقة هذه الكنيسة مع كنيسة الاسكندرية ضعيفة وجعل مكانة رؤسائها مشكوك فيه وسرى عليها النظام الذى كان ساريا فى وسط أوروبا .

محاولة ملوك أكسوم لإخضاع الكنيسة لسيطرتهم واحتفاظهم بسلطانهم الآلهية القديمة على الشعب جعلتهم يدخلون فى شئون الكنيسة ويسلكون نفس الأسلوب الذى اتبعته الكنيسة الإقطاعية فى أوروبا الامر الذى أفل من هيبة الكنيسة وأحظ فى شأنها الدينى والعلمى حتى ضعفت وأصبحت غير قادرة على حماية المسيحية وذلك كان واضحا فى البعث التى أرسلتها كنيسة علوة من البشريين اطالب العون العلمى من كنيسة الحبشة فهجرت عن تقديم العون العلمى لرهبان كنائس سوبة وحاولت الاستنارة بكنيسة الاسكندرية كما جاء فى الروايات التاريخية وإنما هو تبرير للرفض . . . وأقرت عدم تقديم العون لهذا التبرير بعدم موافقة كنيسة الاسكندرية حتى اليوم .

السودان بين الركود والعزلة بعد القرن الثالث الميلادي :

آخر الاخبار التي وصلتنا عن السودان هو دخول بعثة التبشير المسيحية الارثوذكسية وتمهيدها ملك علوة وأفراد أسرته وحاشيته ودخولهم في الديانة المسيحية في القرن السادس الميلادي وانتقال نقل المملكة السودانية من جوار مصر إلى داخل السودان إلى سوية وبذلك لم تعدت عن أخبار الحياة والنشاط السياسي الذي كان يربطها مع مصر . وتركت مصر إلى تنفصل عنها في أمورها السياسية إلا أن هزمت قواها وكثرت فيها الجيوش الأجنبية وتغيرت الملامح الحضارية في مصر بدخول الفرص والإغريق والرومان من القرن السادس قبل الميلاد إلى القرن السابع بعد الميلاد . ثلاثة عشر قرناً وهي خاضعة لتأثير حضارات هذه الشعوب حتى بعدت الشقة بينهما وبين السودان وأصبحت العادات والعبادات تختلف . وذهبت المملكة السودانية بهذه الحضارة الفرعونية بعيداً عن هذا التأثير الفارسي والإغريقي والروماني والمسيحي . ولم تعدت الصلة الحضارية وانحصرت حضارة النيل القديمة داخل السودان وانمحت آثارها ومظاهرها من مصر ، إلا من هذه الآثار الباقية التي لم تعد تشد إليها روح المواطن المصري بعد أن فرضت عليه العبادات الرومانية والمسيحية إلا غيرة ملوك السودان التي لم تقف سلبية عن مصير هذه الحضارة الأم . وقد رأينا في أوائل القرن الأول للمسيحي محاولة النوبيين لاسترداد طيبة والصعيد مرة أخرى إلا أنهم نالوا ما يستحقون من العقاب والحزيم في تلك الدولة الرومانية التي يستطاع نفوذها وحضارتها على البحر الأبيض المتوسط بما جعل ملوك السودان يوفونون التفكير مرة أخرى في العودة لمثل هذه المحاولة مع الامبراطورية الرومانية .

ثم ظهرت المسيحية والسودان يتابع الاحداث في مصر ويشارك في إلهواه المصريين المسيحيين . ثم قبل المسيحية ديناً له في القرن السادس الميلادي وبدأت

الضلالة تقوى من جديد بربط ملوك الممالك السودان بكنيسة الاسكندرية و ملوك مصر ، إلا ان هذه البداية لم يكتب لها الاستمرار إذ ظهر عمر بن العاص في القرن السابع الميلادى وفتح مصر ونشر الدين الإسلامى بين ربوعها وانتشر الجند العرب يحرسون المدينة الإسلامية . . . وصمت السودان إلا من محاولة النوبة وملك دنقلة للوقوف ضد هذا الدين الجديد الذى جاء ليغير ديانة مصر المسيحية بعد أن اعتنق السودانيون المسيحية ولم تعمّر أكثر من قرن يأتى هذا الدين ليفرض عليهم ديانة جديدة بعد أن عدلوا من عباداتهم الوثنية بالديانة المسيحية بجوارفة للتأثير العام الذى حدث فى وادى النيل وأصبحت الديانات الفرعونية غير قادرة على مقاومة تأثير هذه الديانات السماوية .

ووجه العرب السودان الشمالى غير مفرى لبقائهم لضييف النيل فى تلك المنطقة وشراسته أهله غير ملام لبقائهم ولحياتهم البدوية القديمة فغادروا بعد أن ضمنوا سلامة إقامة الشعائر الإسلامية وعادوا وتركوا السودان المسيحى عن مصر المسلمة المسيحية الوثنية . . فالديانات الوثنية القديمة تلم نقرط كتيبة فى حياة المسيحية حتى ظهور الاسلام ثم عمت المسيحية أراضى واسعة ولم تتمكن من القضاء نهائياً على الوثنية وإذا بالاسلام يظهر على أرض الدلتا والوجه البحرى ، فانقطعت العلاقات بين السودان وبين مصر التى باتت تحت أيدي المسلمين العرب وانزوى حكام دنقلة بعد المزيمه التى منوا بها فى عهد عبد الله ابن السرج فى حين عاشت الممالك الجنوبية فى خوف من وصول جنود هذه الدولة الإسلامية التى نشرت نفوذها على كثير من الشعوب ولم تحاول الممالك المسيحية فى نباتا أو مروى محاربة هذه الدولة العظيمة بل قاد ظهور هذه الدولة فى تغيير عواصم الممالك المسيحية السودانية فانتقلت إلى الجنوب وأصبحت سوية عاصمة الجنوب وسيطرت على أملاك الدولة القديمة على النيل الأزرق والجزيرة الخصوبة تلك المنطقة من شمال السودان . الاسم الذى قاد لكافة سكان منطقة

النيل الأزرق والجزيرة دون غيره من مناطق النيل التي كانت فقيرة في السكان بعيدة عن بعضها ، تعداد سكانها بسيط ومبانيها قليلة وتعيش على ضرائب التجارة أما عطبرة فلم تكن موجودة غير خيام بعض الأعراب في أوائل القرن التاسع عشر يعيشون على الرعى وفي حالة من الفقر والاعتماد على خدمة القوافل التجارية ثم الدامر مدينة المجاذيب وعيشة سكان هذه المناطق .

يقول جون لوبيس بوكهارت الذي زار هذه المنطقة سنة ١٨١٤ م ويمكن من وصفه تتصور حالة هذه المنطقة القليلة السكان إلا على ضفاف النيل قبل ظهور العرب المسلمين ونزولهم في الشمال وتعمير سهول البطانة وإستيطان النيل يقول « مقرن (نهر عطبرة) وهو الحد بين إقليم رأس الوادي والدامر . ورأينا السواقي على ضفافه المنزلية ترفع الماء من البرك ودلنا ترتيب الحقول هنا ونظامها ، ووجود المساق الضغيرة على أن الزراعة تلقى من العناية قسطاً لا تلقاه في الأقاليم التي جزناها من قبل » .

« الدامر قرية أول بلدة كبيرة قوامها خمسمائة بيت من السكان وهي نظيفة تفضل في شكلها برير لما فيها من مباني جديدة ولخلوها من الخرائب وفي بيوتها شيء من التانسيق وشوارعها منتظمة وتنمو في كثير من أرجائها الأشجار الوارفة الظلال ويسكنها عرب من عشيرة آل المجذوب ويردون أصالهم إلى جزيرة العرب وجاههم من رجال الدين أو الفقراء وليس لهم شيخ يتزعمهم بل فقيه يسمونه « الفقيه الكبير » وهو الرئيس الفعلي والقاضي الذي يفصل في خصوماتهم » وليس في البلد سوقاً يومية ولكن فيها سوقاً أسبوعية يعرض فيها كل تاجر بضاعته . وذكروا إن المبيع في الماشية فيها كثير وأن الحصر البامرية المصنوعة من خوص الدوم تلقى رواجاً كبيراً في البلاد المجاورة كلها » .

أما شندى فيقول عنها بوكهارت (أكبر بلد في شرق السودان بعد سنار

وكوني بدارفور ويقول التجار إنها أكبر من عاصمتي دنقلة وكردفان وتتألف من عدد من الأحياء تفصلها عن بعضها البعض الميادين العامة أو الأسواق ، وقوامها ثمانمائة بيت إلى ألف وهي هبزية فوق السهل الرملي على نحو نصف ساعة من الساحل الرملي وتشبه بيوتها بيوت بربر ولكنها أعمر منها بالمباني الكبيرة وأقل منها ضرائب .

هذا جزء من صورة المدينة والجماعة التي سكنت الشاطئ وسنعود لذلك في فصل منفصل ولكننا لو أردنا أن نتصور حالة هذه المنطقة والمناطق الأخرى من العمران قبل ألف سنة قبل دخول العرب إليها والتأثير فيها ويظهر لنا اعتماد هذه المنطقة النيلية على الزراعة والتجارة فشندى تتاجر مع بربر ودنقلة وسنار وهي أكبر مركز تجارى وسط السودان وكذلك مع شعوب دارفور ووقوع شندى في وسط السودان وعلى أرض نيلية خصبة وأراضى زراعية أكثر من الشمال جعل لها أهميتها من قديم الزمان . . . وهذا مايدوا مارشح مدينة دروى القديمة المجاورة لها أن تحتل هذه المنطقة الغنية بالأراضى الزراعية والصالحة للزراعة المسيطرة على طرق التجارة .

ونعود مرة أخرى إلى حالة الركود والعزلة التي عاشتها السودان في القرن السابع الميلادى إلى القرن الثامن عشر الميلادى وقد رأينا تأثير الأحداث في مصر في العصور الأولى كان له تأثير مباشر على السودان وكانت الممالك السودانية القديمة تحاول أن تكون عاصمتها قريبة من حدود المملكة المصرية ولكن بعد انفصال مصر ودخول العرب الإسلام فيها ، أن قنعت الممالك السودانية بالزحف لداخل السودان وبذلك بعدت عن أخبار مصر ومشاكلها . . . وقاد هذا الركود والعزلة الداخلة لضعف الممالك المسيحية القديمة ولانقسامها إلى دويلات عديدة داخل السودان الأدر الذى فكك وحدة الدولة القديمة الى كانت تقود الفتوحات . وهذا التفكك آتى لاشك نتيجة لتوسع أفراد الأسر المالكة خلال

الفترة المسيحية ، مما ساعد على ضعف سيطرة الملوك على سكان السودان نتيجة للخلافات الداخلية بينهم . فقد كانت الديانات الوثنية الفرعونية حتى القرن السادس الميلادي تجبر الأفراد على عبادة الملك وتجعله ابن الآلهة آمون وكانت للملوك سلطة روحية على هذه الشعوب فجاءت المسيحية تحرر العقول من هذه السلطة الوثنية وعادت للناس حرية العبادة الأمر الذي كان له أكبر الأثر في تفكيك الدولة الوثنية بفقدانها سلطانها روحياً قوياً على الناس وبذلك قل ولاء الناس المطلق للملك والعبادات الوثنية ، كما تدخلت الكنيسة في كشف جانب كبير من الحياة الروحية والعقلية لهذه الشعوب منها حياة الدير والرهبنة وسماعهم لأول مرة مثل هذه الآيات المسيحية :

- (١) بالحقيقة نؤمن بالرب . . .
- (٢) الله الرب ضابط السكك . . .
- (٣) خالق السماء والأرض ماري وما لا يرى . . .
- (٤) نؤمن برب واحد يسوع المسيح بن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور . . .
- (٥) الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا . . .
- (٦) الذي ليس له كنه إنقضاء . . .
- (٧) نؤمن بالروح القدس الرب المحي . . .
- (٨) ونانتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي .
- (٩) ونعترف بمعمودية واحدة لمغفر الخطايا .

مثل هذه الآيات الكريمة من الانجيل كان لها ولاشك تأثير بليغ على التفكير العام عند الناس . فقد كانوا يؤمنون بالاسطورة والوهية الاصنام والبشر وإذا بهذه الآيات تفتح لهم أفافا جديدة في التفكير للحياة والآخره وتعيد لهم انسايتهم وفرديتهم وحريتهم من التبعية لأى فرد . مثل هذه الافكار الواردة فى تلك الآيات الكريمة . لاشك خلقت نوعا من الانفصال والتمرد وعدم الطاعة وفصلتهم من حياة للسخره لأن طاعة الملك كانت عندهم طاعة الالهة وأرضاءه هو ارضاء الالهة وذا بهذا الدين الجديد يفتح اذ هانهم لعالم الحق وعبادة صحبحة تذهب إلى اله واحد خالق لكل هذا الكون

كان تأثير هذه الآيات ليس وفقا على عامة الشعب ولكن على الملوك الذين أول من آمن بالمسيحية وأنفتح عقولهم للحقيقة الحياة وانكشف لهم نور الحق ولاشك لانهم تأثروا حتى أنهم مرت ادمعهم للتكفير عن خطاياهم السابقة وتسخيرهم للبشر وإقتنوا بالايان بمعاملة الناس بالحسنة واللين ومايرضى الله وقلة مطامعهم فى الدنيا وأنشغلوا بالعبادة ومعرفة أسرار هذه الآيات التى فتحت أذهانهم للحقيقة الكاملة مثل هذه الآيات (الذى به كان كل شيء) وأيضاً بأق من مجده ليدن الاحياء والاموات ، وكذلك مثل هذه الصلاة : « يحيا البشر الصالح ، سيدى يسوع ، لطامب إليك لا تطرحنى عن شمالك مع الخطاة . ولا تقبل ارضا أنى لست أعرفك ، اذهب عنى يا مسعد للنار الابدية لا لأنى أعلم بالحقيقة لأنى خاطى . . : أمتحنى يارب توبة كى أنوب قبل أن يغلق الموت قفاى فى أبواب الجحيم » وهذه من الصلوات الخاصة بالرهبان التى كثيرا ما كان يسمعها أهل الحاشية ولا مكانية البيت المالك دخلت المسيحية عليهم وائرة فيهم قبل غيرهم فى قلوبهم وتفكيرهم حتى شغلته بنفطايهم وأنامهم والتكفير عنها .

دخلت المسيحية وفتحت العقول نحو الحياة الابدية والخطايا والغفران

وشغلتهم عن مكاسب الدنيا والفتوحات وقل بذلك نشاط الحياة اليومية لانشغال الناس بالعبادة والخوف من العذاب في الحياة الأخرى بما شجع لصرف الأموال في سرعة فائقة لبناء الكنائس والأديرة واحترام الرهبان والمتعبدین وشاركت الحزينة العامة بتصميم وافر في هذا العمل المفيد في الآخرة :

ملا الإيمان بالله قلوب الناس والملوك وأصبحوا يتساعجون بحسب وصايا الرب في كل شيء حتى مع العرب النازحين من الشمال ببشائر دينهم الجديدي . وترك لبقية الناس حرية العبادة ولم تفرض عليه الديانة الجديدة وما جاء نقلا عن « جاكسن » في عهد السلطان عبد القادر الذي خلفه السلطان عميرة حوالي ١٥١٧ م أن أهالي جبال موبا وشندي ظلوا يقدمون فتاة كل عام قربانا للالهة كي لا تمنع عنهم المطر وذلك نتيجة للتسامح الديني الذي جاءت به المسيحية .

هذا يكشف لنا الوضع العام للحياة الاجتماعية والحرية التي تمتع بها الفرد بعد دخول المسيحية ورغم أن السودان كدولة موحدة لم يظهر ويهتم بالأحداث الخارجية إلا أن الحركة التي خلقها العرب والإسلام في الأراضي المجاورة قادت لشل هذه الحركة رغم تعرض السودان لكثير من المناوشات من الشمال والشرق مما قاد لتدهور الممالك السودانية من ظهور ممالك إسلامية جديدة لم تستطع إخراج السودان من عزله وتفاعله مع الأحداث نسبة للاضطراب التي عمت الشرق وأفريقيا وسنحاول أن نتبع الحياة قرنا بقرن حتى نستطيع نملا هذا الفراغ الذي أوجدته الكتابات التاريخية .

دخلت المسيحية السودان وفن الحضارة الفرعونية في السودان يتدهور بتدهور الدولة وضعفها ، وانقسامها وانفصالها عن أرض طيبة وأصبحت الحضارة الفرعونية معزولة عن أرضها الأولى وزهبت تجوب أرض

السودان حتى وهنت قواها ووقفت حركة البناء والتشييد التي هي عماد العبادات الفرعونية وحضارتها .

كانت العبادات الوثنية الفرعونية هي الحافز الأول لازدهار النيل بهذه الحضارة الفنية وهذه التماثيل الجميلة وهذه المعابد العديدة . عرف الإنسان الأول الفن كأجل شيء يمكن أن يؤثر ويريح الفرد فطور هذا الفن بعيد أن أصبحت الآلهة قطعة فنية . فكان لزاما على الفنان الابداع في خلق هذه الآلهة في أبداع صورة فنية . وكان تسابق الفنانين لأرضاء الآلهة والفراعنة والكهنة هو الدافع الأساسي لهذا التطور الفني الذي مأل النيل وفاق حد التصور في تلك العصور البعيدة حتى تطور وفاق كل الأعمال الانسانية الأخرى .

نشطت حركة الفن في تلك العصور من جانب مواهب الإنسان الأخرى ولكن الآلهة كانت هي اسمى ما يتمناه إنسان النيل . أن ترضى عنه الآلهة . . . وكانت منية الفنان أن ترضى عنه الآلهة لينحدها ويضع لها تماثالا أو يرضى عنه الملك أو الكهنة باعتبارهما يمثلان الآلهة ورضاها جزء من رضا الآلهة . . . وكان الأبداع ضرورة أوجدها هذا الحافز وهذا الحب فانتشر الفن في كل أرجاء النيل وأصبح عمل التماثيل الكبيرة والصغيرة هواية وأمنية لكل فرد . . . وهذا تكشفه لنا الأعداد الهائلة من التماثيل الصغيرة للآلهة الى خلفتها لنا تلك الحقبه من الحضارة . . . وقد قال المؤرخ الإغريقي هيردوت الذي زار مصر في القرن الرابع قبل الميلاد أن المصريين يتمسكون بدينهم وعاداتهم لدرجة بالغة ويتلون المراسيم أكثر من أى شعب .

هذا ما قاله هيردوت الذى رأى المصريين وحبهم لعباداتهم وهو تصور بسيط للحالة التي كان فيها الإنسان على النيل . . . فقد كانت العبادات بما فيها

عبادة الآلهة والملك والكهنة هي القوى المسيطرة على طاقة سكان النيل وكان سكان النيل عجيبة طيبة في يد الفراعنة والكهنة لتسخيرهم هذا التسخير وتقديم آلاف الضحايا للقيام بنقل الأحجار الهائلة في ذلك الوقت الذي لا توجد فيه الرافعات الحديثة والإمكانات التي لدى الإنسان الآن .

ظلت الآلهة هي القوى المحركة والمسلطة على طاقة الإنسان وكان الفن هو طلب الآلهة فأبدع إنسان النيل ليرضى هذه الآلهة وقامت المعابد في سبته وبوهمين والبركل . وبقايا آثار البركل تكشف لنا روعة فن النحت والبناء الذي يكاد لا يوجد عند إنسان عصرنا بل يكاد فن النحت لا يوجد عندنا الآن لا بتلك الروعة ولا بأقل منها لانحطاط هذا الفن من عصور ساحقة قديمة منذ ظهور المسيحية الى وجدت الحضارة الفرعونية قد وقف نموها في مصر وغابت عليها الحضارة الرومانية وحلت محلها إلا من المجاورين للمعابد القديمة والذين حافظوا على عباداتهم الوثنية ولكن رعاية الملك لها وتسخير إمكانات الدولة المادية لارقي بها قد وقف . وكذلك الحال في السودان بعد أن سقطت حضارة الفروغونية في مصر تحت إقدام الحضارة الفارسية والإغريقية والرومانية التي تقابلت فيها . ووقفت عندها حركة التقدم الفني ، وأصبحت المعابد القديمة كافية لتقضاء العبادات وقلت حمية الناس للعبادات بعد أن سقطت مدائن آلهة عباداتهم تحت تأثير عبادات أخرى كما قلت نزعة الملوك لتسخير الناس البناء والتعمير حتى قلت الأيدي الماهرة ، وضعفت عند الناس الرغبة في صنع الآلهة بنفس الحماس القديم حتى جاءت المسيحية لتنهي عبادة الأوثان ، وهي تعان بمذهبا الجديد لإيقاف صناعة التماثيل والمعابد ومات فن النحت في السودان ، وانتشرت الأيدي على طول النيل وانتشرت تعاليم المسيحية تحرم عبادة الأوثان وبذلك وقف فن النحت في السودان ويمكن أن نؤرخ لبداية وقوف هذا الفن من القرن السادس الميلادي بإيمان ملء علوة بالمسيحية . وبإيمان المسيحية فقدت

العبادات الوثنية ممثلها وهو الملك والذي كان يحبر الناس على لإنشاء التماثيل
وقيام المعابد . . .

وربما ظل بعض الأفراد على عباداتهم الوثنية يصنعون تماثيلهم الصغيرة
ولكن هذه الحالة لم تكن كافية للاحتفاظ بالفنون التي نشأت في حضن
العبادات الوثنية .

جاءت المسيحية ولم تؤثر في الحياة العامة كثيراً مثل تأثيرها على إيقاف تطور
الفن جاءت المسيحية وعادات أهل السودان القديمة ما زال منها بقية حتى الآن
ولو نحن تابعنا ما قاله هيردوت الذي وصل إلى جنوب مصر في القرن الرابع
الميلادي وما سجله عن عادات وأخلاق أهلها التي لا تختلف في كثير من عاداتها
عن عادات أهل السودان على أرض النيل .

عادات أهل مصر في العصر الفرعوني

إن معظم اخلاقهم وعاداتهم مناقض تماما لاخلاق وعادات غيرهم من البشر فنعلم نساءهم الاسواق وبتاجرون ، بينما يملك الرجال في البيوت أمام الأنوال وبينما يتبع بقية العالم في النسيج أن تكون اللحمة فوق السداة فإن المصريين يجعلونها اسفلها . كما إن النساء يحملن الاثقال فوق اكتافهن بينما يحملها الرجال على رؤوسهم . ويتناول المصريون طعامهم في الطوقات خارج بيوتهم وبأون الى بيوتهم للأغراض الخاصة وحجتهم في ذلك أن العمل غير اللائق والضرورى في وقت واحد يجب أن يتم في سرا أما الامور الحالية من أى شىء غير لائق والضرورى فيجب أن تحدث في الطرقات علنا وعظور على المرأة الاشتغال باعمال الكهنة سواء للآلهة أو للرياء في حين يقوم الرجال بوظيفة الكهنة لكليهما، ولا يلزم الابناء بكفالة والديهم الا باختيارهم — أما البنات فلهزمات بذلك سواء كان هذا برضاهن أو على كره منهن .

يطبل كهنة الدول الاخرى رؤوسهم أما كهنة المصريين فيحلقون رؤوسهم ومن العادة في جميع بلاد العالم أن يحلق الناس شعورهم حداداً على الاقارب اما المصريون الذين من عاداتهم أن يحلقوا رؤوسهم في الحالات العادية فيتركون لحاهم وشعورهم ورؤوسهم تطول عندما يموت قريب لهم ويعيش الناس في البلاد الاخرى بهزل عن الحيوانات ولكن المصريين يعيشون دائما مع الحيوانات وتتخذى الشعوب الاخرى بالشعير والقمح بينما يعتبر المصريون ذلك عارا أى عار ويتخذون بالذرة الهندية التي يطلق عليها البهض اسم زيا ويعجنون الدقيق بأرجلهم أما الطين فيخلطونه بأيديهم كما يحملون القاذورات والتراب بأيديهم ايضا هم الشعب الوحيد في العالم الذى يعرف الختان ومن يعرفه من الشعوب الاخرى

فقد تعلمه من المصريين ويابس رجالهم ثوبا من قطعتين إما ثوب النساء فمن قطعة واحدة كما يلبسون الخوانم ويربطون حبال الاشرعة من داخلها إما غيرهم فيربطها خارج الشراع . ولا يكتبون كالاغريق من اليسار إلى اليمين بل من اليمين إلى اليسار ورغم هذا يصرون على أنهم يتجهون نحو اليسار ويتخذون نوعين من الكتابة ويطلقون على أحدهما اسم « المقدس » وعلى الثاني اسم « العادى » .

ويتمسك المصريون بدينهم إلى درجة بالغة ويملون المراسيم أكثر من أى شعب آخر ويتبعون هذه المراسيم بشرى في أفداح نحاسية .

ويجلبونها كل يوم ولا يبتعد عن هذه العادة أحد قط فيلبسون ثيابا من التبل يحافظون دائما على أن تكون منسوجة حديثا ويحاولون الختان بقصد النظافة مفضلين أياها على حسن المظهر . ويحاق الكهنة جميع جسمهم كل يومين حتى لا يملن به القمل والافذار الأخرى . وهم يقومون بخدمة الآلهة . وثيابهم كلها من التبل وأحذيتهم من نبات البردى ولا يصلح لهم أن يرتدوا ثيابا أو أحذية من مادة أخرى غير هاتين ويستحمون مرتين يوميا بالماء البارد ومرتين في كل ليلة وعلاوة على هذا العادات لهم آلاف من العادات الأخرى .

وقد استرعى هيرودوت عدم تعفف الفلاح المصرى في السكن مع أغنامه . وجميع رؤسها بأيديه والاستفادة منه وخطط الطين بأيديهم . كما قال أنهم الشعب الوحيد الذى يعرف الختان وهذه العادات التى مرت عليها آلاف السنين تسكاد تجددها عند الفلاح المصرى ، وتند معظم سكان السودان إن كان خاصا بالختان الفرعونى الذى ما زلنا نحفظ به في الأقاليم أو غيره . وهى لا تدرى ما هو تاريخه أو ماضيه .

بقاء معظم هذه التقاليد القديمة والتي لا تسير التطور ولا تعاليم الأديان .
 تكشف لنا عن حقيقة هامة وهي أن لإنهزام المضارة الفرعونية لم يكن لإنهزاما
 لكل عاداتها وأخلاقها . . كما يكشف لنا أن تعاليم الكنيسة التي دخلت قبل
 الإسلام لم تكن بالتوسع والانتشار حتى تطور تلك العادات والتقاليد . وكان
 يجب أن يحرث هذا . أن نضيف الأديان إلى حضارة الشعوب ثقافة وفكر
 وبعثا ، والذنب ليس ذنب المسيحية أو دعائها أو رسالها الذين دخلوا السودان
 ولكن ظروف هذه الدعوة في السودان والأحداث الخارجية فيعقد قرن من
 دخول قبائلها للسودان وظهر الإسلام ناسخا لكل الديانات ، وأصبحت مصر
 دولة إسلامية ، وانعزل السودان عن حركة المسيحية في العالم حيث كان لها
 سند عالمي لشهرها والدعوة لها بعد أن استقرت في شرق البحر الأبيض
 واعترفت بها قياصرة الروم .

جاء الإسلام إلى أرض النيل والمسيحية ما زالت في مهدها في السودان
 تمارس تعاليمها بصعوبة فائقة ، فكتبها باللاتينية والقبطية بخلاف لغة أهل
 السودان وكتبهم المروية القديمة . وتخريج رهبان من أهل السودان كان يتطلب
 زمنا ليس بالهين ودخول الدعوة المسيحية عليهم ليس بالأمر اليسير ، ولكن
 رغم ذلك لأيمان ملوك دنقلا وعلوة بالمسيحية ، توسعوا في إنشاء الكنائس
 وقامت الأديرة بجوار الكنائس . لكن الدير في السودان حسب ظروف
 دخول المسيحيين لم يجذب الناس إليه كما كان في مصر . فقد اضطهد المسيحيون
 في مصر حيث دفعهم الاضطهاد لأخذ أسلوب خاص في العبادة . . أما في
 السودان فقد دعى ملوك علوة ودنقلا لهذه الديانة . فكان أمرهم أصعب لنشر
 الدعوة ثم ترغيب الأفراد في أخذ حياة الدير كنوع من السمو في العبادة .

عملت الديانة المسيحية على تحرير العقل السوداني من تسلط المملوك

— ١٣٩ —

والكهنة والعبادات الوثنية وفتحت له الحياة من جديد ليأخذها بمفهوم جديد بخلاف ما توارثت عليه الأجيال . ولكنها عجزت أن تقف بمحاذاته وتسدد له هذا الفراغ الكبير الذى حدث فى عقله بعد عبوديته لتلك الأوثان والتفكير فيها لم تكن إمكانيات المسيحية بالقدر الذى يتيح لها أن تعلم الناس جميعها تعاليمها أو المغة الجديدة التى جاءت بها الديانة .

✱ ✱ ✱

— ١٣٧ —



أحد أفراد قبيلة الشكل التي أمتد نفوذها في العصور القديمة
إلى أرض الجزيرة . .

الزينة كانت من أجمل الأشياء المحببة إليه . . تكشف عن
طبع رقيق وغم الصرامة البادية عليه .

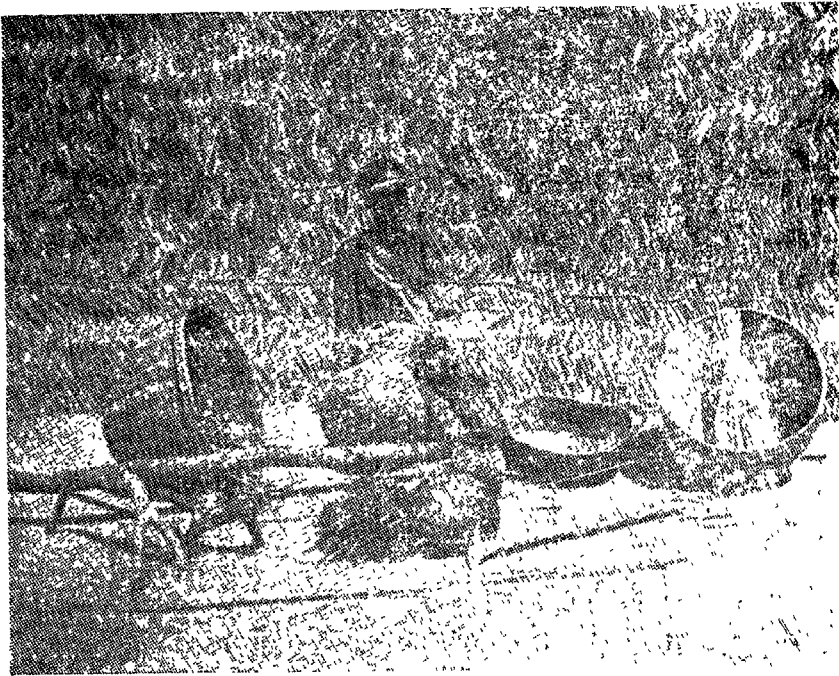
— ١٣٩ —



التقاليد الافريقية عريقة قديمة لها قدامتها واحترامها . . أفراد من قبيلة
الملك في زيارة لاحد القرى . . يجلسون خارج القرية قبل دخولها.



استخدام الألوان والحركات الرياضية استعداداً للحرب والرياضة.



يد الانسان كلها لمست شيئاً جعلته جميلاً . والى انسان بطبعه لا يترك الطبيعة
كما هي . . . أنظر إلى أدواته المنزلية ومحاولة الشئك خلق شئ مقبول الشكل .

الكنيسة وماقدمته للحضارة في السودان

وقبل الاجابة على هذا السؤال يجدر بنا ان نعود الى نشأة الكنيسة في الاسكندرية ووادى النطرون ومما كنا نوباديا ونشأه الأديرة والنظم الكنيسيه في مصر والعالم الذى استقار بخبرتهم وتعاليمهم .

بعد الاضمحلال الذى وجده المسيحيون بمصر ومحاربة أباطرة الاسكندرية وقيصرية الروم للمسيحيه وقتل كل ما يعتنق هذه الرسالة التى تخالف تعلم أبائهم وأهلهم لجأ معظم المسيحيون الى الجبال والوديان والكهوف للعبادة والتمسك بالسالكين في ذلك مسالك المسيح وحياة الوحده والصوم والصلاة جعلتهم مثلاً يحتذى به بين الافراد المسيحيين وأرضح ذلك في رساله بولس الرسول الى الكورنثيين حيث تضمنت رسالته اليهم تفصيله لهذا النوع من الحياة وإن لم يكن أمراً لهم ولاكنهم كان دعوه لأفضل الطرق للحياة المسيحية كما تصورهما حين قال (إنى أريد أن يكون جميع الناس كما أنا) أى اعزب (ولاكن لكل واحد موهبته الخاصة من الله الواحد ، هكذا والاخر هكذا ولاكنى أقول لغير المتزوجين والارامل أنه حسن لهم اذ لبثوا كما أنا - اذن من تزوج فليقبل ومن لا يتزوج يفعل أحسن .)

وبهذا المفهوم للعبادة خرج المضطدون في المسيحية من المدن المصرية الى الصحارى والجبال ولم يكن في خلدكم لمنهم بهروبهم هذا والتجاءهم للوحدة من الظلم والبطش والعيش على الكهف سيخطئون المبادئ العامة للحياة المسيحية ورجال الكنائس في المستقبل .

وقد كثر عدد الرجال المحبين بالجيال يؤدون صلاتهم وصومهم وشعائهم

الدينية كل في ادى منفرد بعبداً عن الآخر .

وقاد الضفط والارهاب إلى إزدحام هذه الاودية ومنها وادى النظرون وجبل آتريا وسليا ويرة شبيب والصحراء الشرقية وسينا والصعيد حتى وجد هؤلاء النساك الزاهدون في الحياة في وقت ما أنهم قد ملأوا الاودية والصحارى وأصبحوا يسكنون في عششهم قرب بعض دون أن يجتمعوا حتى بلغت شهرة بعضهم في النسك والعبادة أن دفعت بالكثيرين الذهاب إليهم لتعليمهم حياة النسك والوحدة والعبادة . وكانت هذه أول خطوة لميلاد تعاليم النسك والرهبة في العالم وأزداد عدد المسيحيين الهاربين كما راجت سيرة هؤلاء النساك من الذين بذوا الآخرين في هذا السلوك وجعلوهم مثلاً أعلا للراغبين الذين انفقوا حوالهم طاماً للتضحية والارشاد لترويض الجسد على تحمل الجرع والتعسف ونكران الذات والشهوات الجسدية .

وكان وادى النظرون هو أول مدرسة يجتمع فيها هؤلاء التلاميذ حول المشايخ من النساك ليخطروا تعاليم المسيحية ومستقبلها .

وما يذكر إن القديس أنطونيوس (٣٥١ — ٣٥٦ م) هو المنشئ الحقيقي للنظام الرهباني بعد أن مهد له ماسبقه من النساك .

فقد ذهب الشاب أنطونيوس إلى الكنيسة فسمع الكاهن يتلو من الانجيل ،
ولسكن آية واحد وفتت في نفسه وملكت عليه فكره وهي (إن أردت أن
تكون كاملاً اذهب وبع كل مالك وأعط الفقراء وقم أتبعني ويكون لك كنز
في السماء) فما كان منه إلا أن عيل بما جاء في الآية وباع ممتلكاته وقسمها للفقراء
وخيرج إلى مكان قريب من قريته وبنا له كنوفاً إلى جوار الشاعى . يدرب نفسه

على حياة النسك والعزلة . . . ولكنه لم يقيم هذه المنطقة طويلا لوجود كثير من الغمام بالقرب منها . فرحل إلى المقابر ثم في حصن بجور في منطقة يسبير على الضفة الشرقية على النيل . . . وكان يمدد بعض الناس بالخبز الجاف ثلاث مرات في العام دون الاتصال به وجذبت شهرة القديس أنطونيوس كثير من التلاميذ اليه . ولكنه لم يقيم في هذا المكان طويلا وقد أشتك وتشجع المستشهدين والمسيحيين الذين لهم حنفيهم - ين هدمت الكنيسة وأيق المسيحيين أكبر مجازر القتل والاستشهاد ثم ارتحل القديس أنطونيوس إلى الصحراء الشرقية . وهناك يجانب الصحراء والوحدة شغل نفسه بالزراعة . . . ووجد القديس أنطونيوس بعد زمن وجيز أن المنطقة قد امتلأت بالهشش والأكوخ من تلاميذه الذين لم يروا أن يعدوا عنه . فاضطر إلى التوضيح لرغبتهم ليتردد من بجاربه في حياة النسك والوحدة وهكذا كانت المسيحية في مرحلتها الأولى هو اكتشاف الأسلوب المناسب لترويض الجسد والروح للعبادة ، فرضته ظروف الظلم والاضطهاد الروماني للمؤمنين ثم طور هذا النظام الراهب بياخوس سيوس الذي اشتراك في الحملة التي جردها الامبراطور قسطنطين الإحضاع إلى الحبشة المتمرد . ولما عاد بياخوس سيوس من الحملة ذهب إلى قرية تابنيس قرب قرية فنا وما لبث أن اجتمع الرهبان حوله وبدأت لأول مرة حياة الشركة الجماعية للرهبان وحاول بياخوس سيوس إلى خط العالم ونظام جماعته . وسمى المكان الذي اجتمع فيه جماعة من الرهبان باسم الدير . وفي داخل الدار وضع لهم بياخوس سيوس نظاما دقيقا لحياة الرهبان . وأول هذه الراجبات الطاعة العمياء للرئيس . ووسع هذا الدير حتى وصل عدد الرهبان به إلى المين وخمسمائة عاشوا حياة جماعية لأول مرة في حياة المسيحية وبدأ التوسع في الاديرة على نظام هذا الدير الاول .

في نظام الالباء بياخوس سيوس الخدمة في داخل الدير بين جماعة كل حسب قدرته الجماعية منهم الخبازين والطباخين والسفرجية والخدامين والبرابن من الشيوخ

الورعين، وبيت للضيافة يشرف عليه راهباً ورعاً يستقبل الراغبين في حياة الدير
وحتى يمتحنون ويثبت صلاحيتهم لهذه الحياة في فترة اختبار لمدة ثلاث سنوات
وجعل لكل دير راهباً مشرفاً مالياً عليه

ودخلت الدير اللغتين القبطية والأغريقية حتى تيسر للمجتهدين الاطلاع
والدراسة حتى تؤهلهم لمراكز قنابية في حياتهم الدينية والعلنية وظهر كذلك
دير النساء وقد تكون من اخوات هؤلاء الرهبان الذين حاولوا أن تشارك
المرأة في هذه الحياة الديرية حتى تسمحوا بتركها لمئات هذه الدنيا من أجل الحياة
الآخري ..

أما الحياة الداخلية للراهب فكان معناها الفقر والتعفف حيث تقول الآية
(انظروا إلى طيور السماء لأنها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن في الأهراء وأبوكم
السماوى يقوتها)

وقول السيد المسيح في الاغتياح الحابسين أموالهم عن فعل الخير .. (دخول
جمل من ثقب إبرة ليسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت السموات) وكتب
بولس الرسول ينصح العبرانيين د لتكن سيرتكم خالية من صفة المال وكونوا
مكتفين بما عندكم .. لأنه قال لأعمالك ولا أتركك) واما الكراهية للمال
وتكديسه لم تحاذق عليه الكنيسة في العصور التي تدخل فيها الناج في أوروبا في
ترشح رؤساء الكنائس ودخلت الكنيسة مرحلة الإقطاعيين في العصور الوسطى
كما كان في أوروبا وكنيسة الخبثنة أما في السودان فلم تتطور الكنيسة لهذا الوضع
الاقتصادي رغم أنها جدو كانت في حالة مالية حسنة بالنسبة لعدد الكنائس التي
قامت في شمال السودان ومدينة سرية التي وصلت فيها إلى عدد هائل ومباني
جميلة ورائعة .

وتقتضى الحياة اليومية عنده الرهبان وهي الأساس لتطوير الفكر الديني وتأثيره على المجتمع بالقواعد الالوتية: ومن أول هذه الواجبات الصمت والانعزال والصلوات ويقول النظام الذي وضعه القديس مكاريوس الكبير (إذا بلغت الساعة الثالثة (حوالي الساعة التاسعة صباحاً) فتقف قدام الصليب وأجمع أفكارك في فهم القراء التي قرأت وأسجد بتخشع لرَبنا بوجع ودموع ، ليعطيك فهم زمور داود وإذا ابتدأت بالقراءة فلا تستعجل بل أخفص المعرفة الخفية في المزامير وإذا لمكثت صلاة الساعة السادسة كالمأنة والقانون المصروع عن الإباء أقرأ كتاب الإباء إلى الساعة السادسة (منتصف الليل) وأفهم ماقرأه ثم ضع الكتاب وفسم التسبيح وأسجد قدام الصليب وأنظر بعقلك إلى يسوع المسيح ومن السادسة إلى التاسعة (الثالثة بعد الظهر) إن كان لك عمل يدوي فأصنع ماتريد ولاترك قانون المأنة (السجود ، من أجل عمل يديك لأن الإباء عملوا في العلية بمخافة الله من غير شره)

ومن هذا يتضح لنا إن الصلاة والصمت والتفكير والتأمل والانفراد كانت من أهم واجبات الراهب وعدم شغله بالحياة العامة ... إنما التفكير في الخطية الكبرى ومحاولة بيع حياة تأملية شغلت الرهبان عن مجربات الأمور خارج عالمهم والمشاركة فيه وعدوا أنفسهم أفضل العباده السلوك وما يعنيننا في هذا . السلوك هو التمسك في التفكير الديني الفلسفي أما عدا ذلك فقد كانت الصلوات والمزامير أفضل منه .. والكتب الدينية كانت أفضل منه دونها من الكتب ولذلك كانت مكتبات الأديرة فقيرة من الثقافة العامة وأمتلأت بالكتب الدينية وهذا لا ينفي وجود الكتب التاريخية والأدبية ولكنها لم تكن تجذب الرهبان مثل الصلوات والمزامير إلا للذين أرادوا أن يتزودوا من معارف الدنيا وأنشغلوا بأمور علمية داخل الأديرة وشغفوا في حبهم للعلم للاستقطاع من وقت صلواتهم للاطلاع والقراءة . الأمر الذي أخرج من الكنيسة الأوربية في

العصور الوسطى رجالاً منها ذو فسكر ثاقب ثاروا على جمع سود قدامهم
 وخضروا بالملك أوروبا ونورهم على موقف الكنيسة من مشاكل العصر
 تعرضت الشعوب الأوروبية للظلم وبطش الأمراء والملوك الاقطاعيين في أوروبا
 ورأت الكنيسة أن عذاب الجماهير نوع من الرضا والتكبر عن الخطايا ، أنه
 مفيد للحياة الانسانية المليئة بالخطية ولم ترى في جرم الاقطاعيين غير تركهم
 لعقاب الآخرة ولم تحاول أن تقف موقفاً إيجابياً ليقاف هذا الظلم الأمر الذي
 قاد لظهور موجة الاتحاد في القرن الثامن والتاسع عشر باتحاد . . الكنيسة
 الخاضعة لسلطان الملوك الاقطاعيين هذا الاسلوب السلبي من الجوع والمشرقة
 والمعذبين من بني الانسان في - ين تعيش هي التي تدعو للانفصاح حياة اقطاعية
 ونسيت الآلة التي تقول : (لا تحبوا العالم ولا شيء مما في العالم فمن أحب العالم
 فليس فيه محبة الله) واستكتوا الجوع والمبيد بهذا المفهوم ولم يحاولوا هم أنه
 يتجردوا من اقطاعيتهم ولم يحاولوا أن يجرّدوا الاقطاعيين من املاكهم
 ويقتنمونها ببطلان الحياة .

المسيحية في السودان

كان لرهبان وادى النطرون أثر كبير في حياة المسيحيين

كانت الفترة من القرن الاول لظهور المسيح إلى القرن الخامس والسادس فترة خصبة في حياة مصر بين صراع المسيحية وعداوة القياصرة الرومان وبين اصرار رواد المسيحية الاوائل وتحملهم العذاب والصمود أمام التعذيب والتشرد وضرب أروع الأمثلة في الإيمان والتكشف والتواضع وسلوك روادها الاوائل الهادى المتواضع جعل لهذه الديانة قوة سحرية بين عامة الناس وبين التضحيات التي قدمها أبناء الاغنياء من الاسرار الكبرية ولبسهم الوبر الأبيض والصيام عن الأكل وتحمل العذاب كل تلك الصور كانت تسيق المسيحية إلى الأراضى التي لم تظهر فيها وقدم الاقباط في مصر لهذه الديانة أروع الامثلة وخرج منهم نفر كان له الأثر الكبير في الدفاع وبقاء هذه الدعوة على أرض النيل .

ظهرت المسيحية في مصر وهي توزخ تحت بطش قياصرة الروم وانتشار ديانتهم وحضاراتهم وسلطتهم بملاء أرجاء مصر . ظهرت هذه الديانة والرومان معتززون بمجدهم وحضاراتهم وفنونهم وآلهتهم قد أثرت هذه الديانة التي جاء بها رجل بسيط . بسيط في كل شيء في ثيابه ومساره وحديثه وأفكاره وأمثاله جاء هذا الذي يشبه الراعى فطم آلهة هؤلاء المغرورين بديانتهم وآلهتهم . . . هؤلاء الذين كانوا يظنون أنهم أسباده على كل الدنيا وأنهم أفضل المجموعات . . . يتجرأ راعى بسيط ويقيم ديانة جديدة تدعوا إلى آلهة غيـر الهتهم ويجرؤ إلى تحطيم الهتهم وعدم الاعتراف بها . وبهذا المنطق صب قياصرة الرومان جام غضبهم وبتشهم على كل من يروؤ للاقتراب من هذه الديانة الجديدة . ولكن

الرسالة كانت أقوى من بطش القياصرة والايمان بها كان يسعد بالتعذيب . . . كانت مثل هذه القوة المقابلة تصل للمسيحيين من البسطاء الارقياء كافيا لخلق أروع أمثله الاستشهاد . الصبر على الاذى ورفع المؤمنين درجة عاليه من الايمان والاعجاب بين عامه الشعب .

أحدثت مصر وكنيسة الاسكندرية ورهبان وادى النطرون، مكانة سامية في تاريخ المسيحية. وكان لهم فضل كبير في حفظ المسيحية بعيداً عن بطش قياصرة الروم في أقصى الظروف حتى وضعوا لها من التقاليد ما بات منهجاً حتى اليوم وجزءاً من تعاليم المسيحية كما اضاف رهبان وادى النطرون فكرة الدير ، حياه الكنيسة وادخلوا دير الراهبات وكذلك لعبوا دوراً كبيراً في الصراع السكيسي الذي قام بين كنيسة الاسكندرية وكنيسة القسطنطينية وكنيسة روما حتى كان هذا الصراع سبباً كافياً لشدب الانتباه للمسيحية والتفكير في هذا الصراع الذي دار بين كنيسة القسطنطينية التي ادعت أن المسيح على لسان تسطوريوس أسقف القسطنطينية في تلقيه للسيدة العذراء بوالدة الالهة وأن المسيح شخصان متباينان يعمل كل منهما مستقل عن الآخر أحدهما آلهى وثانيها إنسانى فتضدى لاطسطوروريوس الانباء كيرلس الاول بابا الاسكندرية الرابع والعشرين وأعان في نو كسيد أن المسيح شخصية متكاملة جمع فيها بين اللاهوت والناسوت جمعاً لا اختلاط فيه ولا لمتراج ولا تغيير ووقف بجانب الانبا كيرلس رهبان وادى النطرون

وخرج الرهبان من المعتصمين بالجبال والأودية للدفاع عن قديتهم وارتفع شأن مصر وعلى أسم رهبانها بين كنائس العالم وأصبحت مزاراً لرهبان البلدان المختلفة وخرج منها رهبان إلى كل الشعوب أثروا في منهج المسيحية وسلوك روادها وابتدعوا لهم المشل الاعل لعبادة الدير وأعطوهم من تجاربهم الكثير .

وقد كان صعيد مصر وواحاتها ملجأ للرهبان من أيدي البطش والتنكيل وظهر الرجال البسطاء العزل المتخشفين بين السفوح والوديان بين القبائل النائية . . . فكان منظر هؤلاء الرهبان حافزاً كبيراً لجلب كثير من الانصار للمسيحية . . . وكسب عطف الناس على هؤلاء المساكين . . .

لقد كانوا في حاجة لكل عون إنساني وقد أحبوا الله في أجمل صورة . . . ولذلك لم يحدوا أى معاملة قاسية من الجماعات التي ينزلون عندها أو يقابلونها ووصل منهم البعض لشمال السودان فقد كانت ملكة نوباديا شمال دنقله مركزاً هاماً من مدارس الرهبان .

لحق المسيحيون الكثير على أيادي فياصرة الاسكندرية وبيد المسيحيون بمجموعات كبره وكان الهروب هو الوسيلة الوحيدة لهم ولما كان شعب السودان له ذا علاقة طيبة بهم لم يضهد الفارين من مجازر القياصرة وما فعله الملك دوقويس قيصر عام ٣٤٩ م من مجازر ومطاردة للمسيحيين والرهبان كقيل بأن يضطر هؤلاء العزل للهروب إلى الوديان والجبال والكهوف حتى اراحهم الله من هذا العذاب باعتناق قسطنطين الأكبر ٣٩٥ م للمسيحية وجعلها دين الحكومة بعد بطش الامبراطور دقلديانوس ٣٨٤ م بأهل مصر لتمردها عليها فقتل الكنائس وأحرق الاسكندرية واجبر الناس على عبادة الاصنام وعرف عامه بتاريخ الشهداء وهو تاريخ السنة القبطية .

وأثر رهبان مصر في نشر المسيحية وخرجوا إلى كثير من بقاع العالم بعد أن عمت المسيحية مصر وأصبحت دين الدولة ومن هؤلاء الرواد الرهبان الذين تتلمذوا على رهبان وادي النظرون القديس أوغسطين الذي ترك روما عام ٣٨٨ م قاصداً شمال أفريقيا ونشر المسيحية في الحبشة والشاطئ الأفريقي .

وأول ما أسسها بمدينة هيبو حيث عين قساً لها عام ٣٩٦ م فط الحياة الرهبانية وبعث المسيحية بين شعب شمال أفريقيا ونقل اليهم نظام الدير للرهبان والراهبات حتى كان زمن سيط عمت المسيحية شرق أفريقيا والحبشة .

وقد ظل السودان بعيداً عن هذه الدعوة إلا من التجأ اليه من المسيحيين حتى ظهرت المسيحية بين سكان النوبة وشمال السودان .

وأخذ الصراع المسيحي يقل بعد أن أصبحت المسيحية دين الدولة بين مذهب كنيسة الاسكندرية الارثوذكسية ومذهب كنيسة روما ... وكان من مظاهر هذا الصراع تنافس الامبراطور جستنيان (٥١٧ - ٥٢٥ م) وبين زوجته ثيودورا التي كانت تتبع للكنيسة القبطية . فقط سمعت أن زوجها قد كاف البطريرك ثيودوسيوس لنشر مذهب كنيسة روما في أرض النوبة والسودان وحيث كانت الكنيسة القبطية هي صاحبة الشأن في مصر .. علمت ثيودورا ينوايا زوجها وأتت بالاسقف لونيونيوس ليكون أسقفاً على بلاد النوبة وينشر المذهب الارثوذكسي قبل وصول البطريرك (ثيودوسيوس) في عام ٥٦٩ م

وقد نجح رسول الملكة ثيودورا في الوصول إلى النوبة قبل صاحبه حيث قفل الطريق أمامه للتقدم في أرض النوبة .. وقد وجد هذا المذهب الارض مهيأة لقبول هذه الدعوة فقد كان رواد الكنيسة الاوائل يجوبون هذه المناطق وكانوا يلجأون اليها للاحتماء بها بجانب اخبارهم التي وصلت إلى هذه المنطق وأستعد الناس لقبول هذه الديانة الجديدة وهم يرون ديانتهم الفروعونية قد طمسها الديانات الرومانية سمجاءت هذه الديانة الجديدة بصورة غير التي ألفوها وسمعوا بانتشار هابين سكان مصر ... فقلت عصبتهم لديانتهم القديمة وياتوا في انتصار هذه الدعوة الجديدة ... وقد كانت شخصيات هؤلاء الرهبان هي الدعاية

الطبيخ لهذه الديانة بين هؤلاء القوم الوثنيين عباد آلهة الفراعنة ، وكما نجح أوغسطين في (بيرو) ، وانتشار المسيحيين في الحبشة نجح هؤلاء في شمال السودان وقد اعترض حكام المقررة لونجينوس مبعوث المذهب الارثوذكسى حتى اضطر إلى الابتعاد عن النيل وسلك طريق القبائل البجاوية في الشرق حتى وصل إلى مملكة علوة وعبد ملكها وأفراد أسرته وحاشيته عبادا للمسيحية .

انتشرت المسيحية في مصر على أكتاف عامة الناس وقد إشتراك الاقباط في نشرها وظهور المذهب الارثوذكسى .. وحيث كانت اللغة الاغريقية لغة الانجيل فقد كان تعلم هذه اللغة ليس متسراً للكثيرين ولكن إنتشار هذا الدين المسيحي دفع لتعلم هذه اللغة في حين حلت اللغة القبطية في نشر هذه الرسالة .. وبهذه اللغة أدخلت المسيحية السودان وأصبح تعلم هذه الديانة والتعمق فيها يتطلب تعلم هذه اللغة واللغة الاغريقية الأمر الذي كان شاقاً على السودانيين ...

وكانت مهمة تعليم الرهبان من الافراد السودانيين فيه ، كثير من المشقة ويبدو أن هذه الدعوة لم تقف امامها هذه الصعاب فانشأت الكنائس بعد لإيمان ملك علوة والمقررة وحكام الأقاليم في شمال المقررة وجنوبها حتى حدود مملكة علوة وأرض الجزيرة وقامت الأديرة التي كانت المدرسة الأولى للحياة المسيحية وتخريج رواد صبورين ذاع شأنهم في الفيا في السهول وظلت المسيحية تتقدم في السودان وتجد المساعدة من تنافس كنيسة الاسكندرية وكنيسة روما وأرسال المبعوثين من لرهسان وتعميد بطارقتها حتى دخلت مصر في الفتح الاسلامي بدخول عمر بن العاص إلى القسطنطينية عام ٦٤١م ودخل الاسلام منافساً حديداً للديانة المسيحية . فأمن معظم الناس بالرسالة الجديدة التي كفلت حرية الديانة المسيحية وأعطي عمر بن العاص الضمان لطريق الاسكندرية وعدم التعرض للكنائس وراعيها وقدم لهم المساعدات ... ولكن هذا الدين المنافس الجديد الذي ظهر في الجزيرة العربية ووصلت أخباره إلى شعب مصر والروايات التي وصلت عن النبي عليه الصلاة والسلام جعلت عدداً كبيراً من الذين لم يؤمنوا بالمسيحية يميلون إلى هذا النبي الجديد الذين لم يفقهوا الإنجيل يميلون إلى هذا الدين السهل البليغ .

كان دخول الاسلام مصر يعني الحد من تقدم المسيحية والاحتفاظ بمواقعها كما يقولون وزحفت القبائل العربية وخرج الرومان من مصر وابتعد شبح الامبراطورية وقلة سيطرة الدولة في نشر الديانة المسيحية وأقام عمر بن العاص جامع عمرو وأقيمت الحوامع في المدن الكبرى ودخلت عظام الاسلام على ضفة النيل وزهد الرهبان في هذه الارض المتهولة وفضاها العمل في أديرة غرب أوروبا واسيا حيث فقدت المسيحية مساندة الدولة وتضيدها رغم إنها لم تقف معارضة منها .

وبذلك دخل السودان في المسيحية في القرن الثالث والرابع والخامس في شكل رهبان عارفين او افراد لاجئين حتى كان القرن السادس قبلها حاكم علوة والمقرة .

ولم يمض قرن حتى دخل الاسلام مصر وافقاً أمام توسع هذه الديانة بالدعوة للاسلام والايمان بسيدنا محمد عليه السلام بخاتم المرسلين . .

وبدخول الاسلام إلى مصر زحف العرب على النيل وأرسل عمر ابن العاص قائده عقبة بن نافع عام ٦٤١ م لاختضاع الغربية وقد قابله النوبة بالقوة ولم يستسلموا له حتى عقد الصاح بينهما ولكن عادت النوبة المسيحية مرة أخرى للتمرد على عهد عبد الله بن السرح فزحف جيش المسلمين عليها ولم يكتفى هذه المرة بتهديد المسيحيين من النوبة المجاورين لحدوده الجنوبية بل وصل إلى عاصمة النوبة المسيحية دنقلة وحاصرها وضربها بالمنجنيق عام ٦٤٣ م حتى استسلم ملكها قليدوروت وعقد صاهاً بين الطاهرين لم يمس عبادة النوبيين ، كما أنه ضمن سلامة حياتهم المسلمين الذين يعمنون الاسلام في أقامة شعائرهم .

... بعد الانتقال إلى تتبع حافة العرب في السودان بعد ظهورهم في مصر وأفريقيا يبقا يحق لنا أن نلتزم أرجح النشاط الثقافي والحضاري في هذه الفترة وما تركته الحضارة الفرعونية والمسيحية . كما رأينا دخلت المسيحية السودان دون حرب أو فرض عليها وكان دخولها تصاحبه بعض العتبات منها اللغة القبطية واللاتينية لغة الأديرة التي جاورت الكنائس التي قامت بكثرة وبسرعة على طول النيل في صادقا ودقلة والدقة وهروى وكورتى وشمال كريمة عند الشلال الرابع وأنقشرت المسيحية حتى وصلت بمسكة سوبا الى قامت فيها أعداداً هائلة من الكنائس الجميلة الرائعة .

دخلت الأديرة السودان وأحلت أبنية المبادئ الفرعونية القديمة وكذلك قامت بعض الكنائس على بقايا هذه الأعمدة والمباني القديمة التي لم تهدم صالحة للعبادة الفرعونية . .

وباثرت المسيحية رسالتها في نشر الدعوة وتعليم الناس رسالة المسيح في الحياة إلا أن الزمن لم يمهل هذه الكنائس أكثر من قرن حتى دخلت مصر بعروش العرب المسلمين وبذلك طردت عليها فرصة تطورها وازدهارها كما كان في الحبشة بل إنكمش رهبانها داخل أديرتهم ووقف تطورهم العلمي وانشغل الناس منها بالدخول في الدين الجاهل الذي ينافسها وأرضها وفقدت الكثير من العواطف والمساعدات التي كانت تلقاها من المواطنين وربما فقدت بعض أراضيها التي إقتطعتها لنفسها لعبادة الرهبان وعملهم وكاملاك للكنيسة كما كان شائناً في ذلك العصر بأن تمتلك الكنيسة أراضيها الشاسعة وتستغل دخلها للصرف على الرهبان وأوجه تقديمها وشؤونها المالية .

بعض الآثار من المخطوطات التي وجدت قريباً من المساجد التي كانت كنائس

اكتشف أنها مخطوطات من الأنجيل باللعنة القبطية كما أن الرسومات التي وجدت على صدارة الكنائس تكشف ان الروح القبطية كانت هي الغالبة على الكنائس وأن لم يمنع ذلك في إنتشار اللغة اللاتينية داخل الادبره والكنائس ولتعرض هذه الآثار بعد الإسلام لكثير من التخريب أضاع الكثير من اثار هذه الفترة إلا ان عمران سوبه وكثرة كنائسها وأسسها رارها في اداء رسالتها حتى القرن الرابع عشر الميلادي يكشف لنا ان رهبان شمال اليمه كان بعد أن قل عدد المسيحيين بالشمال نزحوا للجنوب كما إن خريجه تلك الادبره وحدثوا في حياة سوبه الوداعه وحاجه السكان هنالك اليهم . بعدهم من الغارات دفع الرهبان للذهاب للجنوب وأستقرت المسيحيه في كنائس وأشرفه يهيه . القرن السادس والسابع حين قيام دولة الفونج التي وصلت هذه البلاد المسيحيه فقيرة من المعلمين والرهبان .

توغلت المسيحيه في المنسوب في حين راد بدنه وادبته في الدين الاسلامي في الشمال وبعدت كنيسه عامه الارثوذكسيه عن كنيسه اليمه بال الاسكندريه التي كانت مركزاً هاماً في الشرق الارسلانيه ونعاليها ، وتطوير هذه التحالف والدفاع عنها .. وانتقل خط الفاصل بين سوبه والكنيسه الام في الاسكندريه .

وكانت هناك في الشرق كنيسه الخديشه الارثوذكسيه آتت اليها من ناحية لكنيسه الاسكندريه التي بدأت بعدد البكر من الرهبان المتعدد كما أن بعض الحكام من المسلمين لم يتركوا لها الحريه في سياقه الاسلام التي كانت تمنحها الكنيسه في أوروبا التي وصلت من القهر عن طريق الإحتلال وركزوا ماليًا على رادته هي السجادة داخل تلك النظام .

أضافت المكتبة للفنون وحضارة الفراعنة الفن القبطى واللغة القبطية والفن
الغريقي واللغة اللاتينية التى لم تخرج عن الاديرة بعيدة وتطور الفن داخل
المكتبات والاديرة ووقف نمو الفن والحضارة الفرعونية إلا ان التقاليد
الفرعونية لم تزول فى مياه الناس وذلك لضعف رسالة المسيحية التى لم تجد
المعلمين والاكفاء بالقيام برسالتهم بين المواطنين ومحاربة تلك العادات الوثنية .

ونحن إذا أردنا أن نتبع تطور المجتمع السودانى فى القرن السادس الميلادى
حتى القرن الثامن عشر فلن نجد أى مخطوطات غير آثار لم تنطق بعد ولم تكشف
تاريخ هذه المرحلة غير أننا يمكن الاستعانة بما خلفه بعض الرحالة — بعض
المواطنين من مخطوطات بمعرفة الحياة الاجتماعية وسبل كسب العيش وتكوين
المدن — بعد ذلك فى مخطوطة ودضيف الله وهى تكشف لنا حالة الصوفية والنشاط
الاسلامى الذى قام على اكتناف لرجال الصالحين والصور الغريبة والروايات
المبالغ فيها عن الخوارق التى كان يأتى بها الأفراد . وهى تكشف بصورة عامه
عن تدهور العلم حتى إستطاع العقل السودانى من جراء الجهل فى قبول تلك
الافكار الغريبة وتفسير بعض الحركات المرضية على أنها علامات صلاح كما
يضيف لنا بوكهارت عن الحالة المستقرة للمجتمع على النيل وحالة القبائل وسط
حالة التجارة وجشع حكام المدن على الليل فى بربر وعطبرة والدامر وشندى
وأعتماد دخل ورؤساء الجماعات على ضرائب التجارة . . .

لأن النجارة كانت هى الحياة فى بحث حركة العمل فى نقل حاصلات أهل
النيل ، ووافده وسنار عن طريق شمدى سنار ودارفور ستة إلى سواكن أو
الدر وعن طريق الأربعين بجباب هجمات قطاع الطريق مثل النهم الذى كان
يمش فى أرض الرابطات فى القرن التاسع عشر وهجومه المتواصل على القوافل
وتنسيم أمواله على الساكنين ونيرت الازم المربية وتكشف لنا رحلة بوكهارت

والتونسي أن تعاليم الدين تكاد تكون معدومة أو مجهولة وانتشار السكر والدعارة حتى في مدينة مثل الدامر حيث نشأت بيوت العلم والصوفية وبيت المجاذيب وما لاقاه بوكهارت في تلك المدينة يكشف عن رهبة رجال الصوفية على جميع المنطقة التي حواليتهم واحترام الناس لحقوق رجال الصوفية إلا أن رجال الصوفية لم يحاولوا أن يتدخلوا في حياة الناس العامة أو تقربهم وانتشار بيوت الخمر والدعارة حواليتهم كان يكشف عن حالة المجتمع وتفككه .

كما نكشف لنا رحلات التونسي لدارفور في أوائل القرن التاسع عشر أيضا عن حالة المجتمع القبلي والمعربي في غرب السودان وانتشار الجهل والخصومات القبلية والصراع الذي كان يلافيه العلم حتى من رجال الحاشية والخاصة بالملك .

القرن السابع الميلادي

قبل الحديث عن الأحداث الداخلية في السودان يجب علينا أن نطل على الأحداث الخارجية خارج السودان التي كان لها أثر على تطور السودان وسنحاول في هذا القرن تتبع النشاط الانساني والتوسع العربي مما كان له اثر مباشر في السودانية فقد اعتمدت معظم الدراسات التاريخية بتمتع الحركة العربية في السودان وأستخدام الحوادث اليومية لدخول العرب السودان وأبعدوا هذه الاحداث لليومية عن مجرى السياسة العربية والاسلامية في تاريخ الدولة الاموية والعباسية والمطامية وربط هذه الاحداث وانعكاسها على الحركة الإسلامية والتوسع العربي . لانه بدون تتبع الوضع السياسي للدولة الإسلامية في القرن السابع الميلادي حتى القرن الخامس عشر الميلادي لانستطيع أن ندرك سبب إنتشار العرب والدوافع السياسية والعقائد والمذاهب الدينية التي كانوا يعتنقونها وأثر هذه المذاهب في تاريخ الدولة الإسلامية ودخول العرب إلى أفريقيا الوسطى .

كان القرن السابع الميلادي هو عصر الفتوحات الإسلامية وانتشار الدين الإسلامي في الجزيرة العربية حتى شرق إفريقيا . وحين دخول الإسلام إلى مصر في هذا القرن كان السودان ينعم بميلاد المسيحية وهي في طور شبابها وأزدهارها وبدأت المحاولات العربية لاختضاع مملكتها دنقلة المسيحية إلا أنها لم تكف بهتد صلح مع ملك دنقلة قيلدوروث عام ٦٥٢ م . جاء فيه أنه لا يحارب المسلمون النوبة وبالعكس وأن يدخل المسلمون بلاد المسيحيين مجتازين غير مهيمين فيها وعلى النوبة حفظ من نزل بلادهم من المسلمين حتى يخرج منها ، وعلمهم رد كل أبى دخل بلادهم من عميد المسلمين وعلمهم حفظ المسجد الذي إبتناه المسلمون بدنقلة وكفسه وإسراجه وتمكرمه وإلا ينعروا عنه مصليا وإن يدفعوا في كل سنة ثلثائة وستين رأسا من لإوسط رقيقهم غير المعيب يكون ذكراً :

هذا الحادث كان من أهم الحوادث التي حدثت في حياة السودان السياسية والاجتماعية إذ تعرض لأول مرة لغزو من القبائل العربية وهم لم يعرفوها من قبل وخاصة سكان هذه المنطقة إذ لم تستطع مصر من قبل تحت سيطر العرب إلا في عهد العرب العاقلة .

وإن لم يأت هذا الحادث بنتائج سياسية في حدود الدولة السودانية إلا أنه كان علاقة تاريخية وعمرأ مأمونا لدخول العرب في هذه المنطقة ووقوف الجامع بين الكنائس وإقامة الشعائر الإسلامية من صلاة وآذان وأدخل على حياة الناس في تلك المنطقة الشمالية أسلوبا جديدا في العبادة لم يألفونه وديننا جديدا مبارك جاء ينسبهم دينهم القديم

إما ما عدا ذلك فقد استمرت الحياة السياسية والاجتماعية في السودان كما هي ولم تحدث حوادث خارجية تؤثر في حياة السودان في المستقبل غير الهجرات العربية التي كثرت نحو شرق إفريقيا والتي اضطرت لإخبرا للهجرة لداخل إفريقيا وواسطها والتأثير في منطقة القرر وكانهم وردى والسنغال وتمبكتو .

هذا في الشمال أما في غرب السودان فيعصب نجد يد الحالة الاجتماعية في تلك المنطقة لعدم وجود أى وثائق أو معلومات عنها والى يبدو من العمران والحياة الاجتماعية المملكية التي كانت سائدة في دارفور ومنطقة جبل مرة حتى القرن الخامس عشر الميلادى . إن هذه المجموعات عرفت الحياة الاجتماعية ونظم الحكم في فترات بعيدة من ديانة وعبادات شعوب تلك المنطقة كانت تختلف عن سائر البلاد بما يدل أنها قديمة وعريقة في هذه المنطقة الغنية بالخبرات الطبيعية والانهيار والوديان التي هي المصدر الأول لحلق التجميع والمجموعات المختلفة الأولى .

- ١٦٣ -

أما في أواسط السودان فقد كانت منطقة الجزيرة أكثر كثافة بالسكان وخاصة منطقة النيل الأزرق وجنوب قبائل النملك الوثنية وقد اعتنقت شعرب تلك المنطقة المبادئ الوثنية وبمضئها أخذ المسيحية بظهور مما حكة علوه (سويه) في تلك المنطقة وانتقال الحكم اليها بعد هجرم الحبشة عليها في القرن الرابع الميلادي وتدمير مروي القديمة .

* * * *

* * *

نشاط الحركة الثقافية في العصور الأولى للإسلام

دون أن نضيف للتاريخ بعض العبارات غير العلمية ودون أن نتصور من أشياء صغيرة حقائق كبيرة أعطينا صورة بعيدة عن الحقيقة وتعمل التاريخ الحقيقة صورة بعيدة عن الواقع بفعل حبنا أو محارلة إعطاء ماضينا شيئا من المجد بأسلوب فيه كثير من العطف والحب . . . ولكن الأجدد بنا حتى نقف على الصورة الحقيقية للتاريخ أن نقف منه موقف العالم الذي يفسر الأشياء كما هي دون اعتبار للتأنيج إن كانت ترضينا أولا ترضينا .

لو تتبعنا حركة البعث الإسلامي المصاحب لنهضة الفكر العربي نجد أنه ابتداء في جنوب الجزيرة مع مولد الرسول (صلعم) ثم انتشرت الدعوة للشمال ثم عرجت على شمال إفريقيا ثم غرب أوروبا المدل على البحر والمحيط .

بدأت الدعوة الإسلامية بحماس ديني شديد ثم انحرفت بحماس للدولة الجديدة التي قسمت المسلمين إلى أقسام كثيرة منهم من تبع حكم معاوية بن سفيان وعائلته ومن عارضة من أمرة على بن أبي طالب الشيعة ثم كان الخوارج عارضوا الجهتين 'المتنازعتين' على زعامة المسلمين .

في بداية هذا الخلاف داخل الجزيرة العربية وانقسام العرب إلى ثلاث جماعات كل فئة أترصد بالآخرى وتعمل للإساءة والإطاحة إليها دفعت بالدولة الإسلامية إلى اتجاه جديد . وهو التركيز على تقنية الدولة الأموية إن كانت أو العباسية عسكريا ، وتنظيم حال الدولة حتى تستطيع أن تطارد وتقهض على الفئات الأخرى التي تحاول أن تسيء أو تتكون للإطاحة بالدولة الإسلامية القائمة

هذا الصراع الداخلى داخل الدولة الاسلامية حد من نشاطها الاسلامى والثقاتى بل دفع بكل امكانياتها بل بعضها إلى محاربة الخارجين على القانون ، والمعارضين من العرب بجانب المشاكل الخارجية . . . وهذا هو السبب الذى دفع بالدعوة الإسلامية أن تفقد وحدتها وقوتها التى خرجت بها من جزيرة العرب في زمن الخلفاء الراشدين

بدأ الحكم الأموى عام ٢١ هـ - ٦٤١ م واستمر صراع داخلى مرير كلفه كل امكانياته لمحاربة الشيعة والخوارج ، ولا ستبتاب الأمن في الاراضى الجديدة التى فتحها العرب للإسلام ، الأمر الذى جعل الدولة الأموية تتعارف مع الشعوب الأخرى خائفة من أنصار الشيعة والخوارج ، حتى انتهى الحكم الأموى عام ١٣٣ هـ ٧٥٠ م وكان سبب انتهائه هو هذا الصراع الداخلى الذى واجهه من الشيعة والخوارج مع اتساع رقعة الامبراطورية الاسلامية .

لاشك أن خروج العرب من الجزيرة العربية واتصالهم بحضارة كبيرة كحضارة الاغريق والرومان والفراعنة وأخضاعهم لمعظم شعوب هذه الحضارات كان لابد للعرب أن يكونوا في مستوى أقوى من هذه الحضارات . . وقد كان لهذه الحضارات بقاياها الخالدة التى كان لابد للعرب أن يطلعوا عليها وحتى يستطيعوا أن يفرضوا منطقتهم وفكرهم وثقافتهم على هذه المناطق . . . فوجه هذه الدولة الاسلامية سيطرتهم على فكر وحضارة هذه الأمم وملاءمة الفكر العربى مع هذا التراث كان لابد للعرب من أن يطلعوا على هذا التراث بعد هذه الفتوحات التى أخضعوا بها هذه الحضارات عسكريا فلا بد إذن من إخضاعها فكريا . . . وقد كان لهذه الحضارات سببها في هذا الضمار ولا شك الحضارة الاغريقية والرومانية ، وما تركته الحضارة الفرعونية من آثار وما أخرجته جامعة الاسكندرية من علم وفكر .

سقط الحكم الاموي ليبدأ الحكم العباسي عام ٧٥٠ م - ١٣ هـ وبدأ الصراع العربي من جديد أكثر وحشية داخل العرب المسلمين أهل الدعوى في عصبية الحكم أنستهم عظمة الرسالة وهدف الرسالة إنما شهوة الحكم دفعت بالقوى لسكرى الدولة الاسلامية الامر الذى مزق وحدة الامة العربية منذ ذلك التاريخ إلى طوائف وأحزاب .

في ظل هذا الصراع اتسعت الدولة الإسلامية في العهد الاموي والعباسي ولكنه اتساع على حساب قوة ومركزية الدولة الإسلامية وزيادة مسئولياتها وعبء للدولة بجانب هذا التصدع الداخلى المريع الذى ظل يملف الدولة المركزية والحاكم باسم العرب والمسلمين حتى فتح هذا الباب لكثير من الاجناس الاخرى أن تتقدم إلى كراسى العرب المسلمين بفرض المساعدة ضد الطوائف الاخرى - أفاد الثقافة العربية والفكر العربى لاشترك تلك العناصر غير العربية في مجال الثقافة والفكر والإدارة في مرحلته الاولى قاد في النهاية لانقسام الدولة الاسلامية على عدة دول في حلب وبغداد والقاهرة والمنزب .

اتسعت الدولة الاسلامية واسكن ما قيمة ما صرفته في نشر الثقافة والفكر العربى في الاراضى الجديده والاسس التى قامت عليها هذه الدعوة في عالم جديد عن حضارتها ، وأرضها . . . وسنرى الفواعل التى قام عليها الفكر الاسلامى لنشر الثقافة العربية في مصر ثم السودان .

تخطيط العرب لنشر للثقافة والفكر العربي

بعد حكم روماني قام بعد مقتل كيلوباتره في عام ٥٤ ق . م . إلى ٦٤١ م .
بدخول عمر بن العاص لينهى سيطرة المسيحية على أرض النيل والرومان عنها
وليبدأ عهداً جديداً في حياة مصر العربية وحياة افريقيا والنيل .

أنشئت الدولة الإسلامية على أرض النيل وامتدت حتى حدود المملكة
السودانية وأرسل عمر بن العاص في نفس العام قائده عبد الله بن سعد إلى
مملكة دنقلة المسيحية لينهى هجومه على العاصمة دنقلة بالصلح واتفاقية تتيح
للمسلمين اقامة شعائرهم ومساجدهم وضمان حرية مرور العرب .

كان لابد للدولة الإسلامية لتركيز الدولة سلطانها في أرض النيل أو في أي
بقعة جديدة من اقامة الدولة القوية ثم نشر الدعوة والعلوم الإسلامية بما فيها
من شريعة وفقه وحديث وكتاب الله وتفسيره .

كان الجيش هو قوام الدولة الإسلامية وكان الجامع هو المدرسة الأولى لنشر
الثقافة الإسلامية .

قامت مدينة الفسطاط بعد فتح عمر بن العاص في عام ٦٤١ م بعد أن
بسط نفوذ الدولة الإسلامية على مصر ومد هذا النفوذ إلى عاصمة الدولة
المسيحية السودانية دنقلة .

لإنشاء عمر بن العاص المسجد الجامع أو جامع عمر أو كما كان يسمى المسجد العتيق أو جامع مصر أو مسجد أهل الراية .

ولإذا انطلقنا من هذا الجامع الأول وهذه المدرسة الأولى لنشر العلوم الإسلامية والثقافة العربية على أرض النيل وتتبع نشاط هذه الجوامع وازدهار هذا الجانب العلمى من الدعوة الإسلامية حتى تتمكن من رصد هذا التطور على الثقافة العلمية في السودان بجانب العوامل الأخرى والمصادر الأخرى .

واستمرت مصر في خلافة الأمويين ثم العباسيين ولم يجد في حياتها العلمية أى إضافة لجامع عمرو الذى كان منبرا لوالى مصر . . . وقد كان المسجد هو المنبر الرسمى فى المقام الأول ليجتمع الوالى برعيته بعد صلاة الجمعة لالقاء الموعدة والأوامر والتشريعات الجديدة . . . كان الجامع هو المنبر لنشر سياسة الدولة الإسلامية أيام الجمعة . . . وكان يقوم بجانب هذا الدور بعقد الندوات والمناظرات وحلقات الدراسة منذ إنشائه ولكن هذا الدور لم يأخذ شكله الواضح . . . بل كان نشاطه ضئيلا بالنسبة لموقع الدولة الجديدة التى عاشت فى اضطرابات الحكم وصراع الشيعة والأمويين والخواج لم يتح لها أن تخطط للدراسات والعلوم العقلية لتنمو بجانب الدولة الجديدة ، الأمر الذى جعل من هذه الجوامع كمنبر عام الخطابة الرسمية .

وقبل أن نحكم على هذه الظاهرة يجدر بنا أن نلقى نظرة على المجتمع المصرى قبل الفتح وبعد الفتح سم نلقى نظرة علمية وعلمية لإنشاء جامعة إسلامية تقوم بتدريس العلماء والفقهاء والمفسرين ولتخرج كافة رجال المعرفة التى تحتاج اليهم هذه الدولة الجديدة .

قبل دخول العرب مصر كانت الاسكندرية هى جامعة مصر تنقل اليها علوم الاغريق وترسل الوفود وتستقبل الوفود ، ونحن نعرف أن بعض العلماء الافذار فى العلوم قد تخرجوا ونبغوا من جامعة الاسكندرية وقد انشأت جامعة الاسكندرية ومكتبتها فى عهد البطالسة أو البطالمة ، وقد عرف أهل اثينا العالم « تكريس » فى مفهوم الدولة والقوانين ثم ذاتاؤس ، الذى أنشأ مدينة ارغوس فى قسم الموره « وافلاطون » فيلسوف الحضارة الاغريقية العربية تتلمذ على كهنة من كهنة عين شمس أخذ عنهم علم مصر القديمة .

ثم « بطليموس » ابن الاسكندرية وأبو علم الفلك والجغرافيا « وفيثاغورس » صاحب النظرية ومطور علم الهندسة والذى رفعه علمه فى نظر تلاميذه حتى أدعوا أنه لابن الآلهة (أبو لون) ثم « بلوتينوس » مؤسسه الفلسفة التى تعرف باسمه والتى تدعو لحرية الإرادة والإيمان بالله والترفع عن المادة وترويض الجسد من الشهوات .

هذه الجامعة التى نقلت حضارة الاغريق والرومان وبعثت الحياة العقلية والفنية من جديد فى مصر — بعد أن سكنت الحضارة الفرعونية التى أعطت أقصى لمكانياتها ثم بدأت تذبل لتفسح المجال لشعوب أخرى لتأخذ دورها فى التطور .

كان المجتمع المصرى يعيش تحت ظل الدولة الرومانية بفنها وفلسفتها بعد أن ظهر المسيح ليفتح أفقاً جديدة للعقل البشرى ليفكر فى الله والوجود ويخرج الإنسان من عالم الغيبات والله الأمايق والفراغة إلى دنيا جديدة مليئة بالحق والتضحيات . . . وقد وصلت آثار هذه الحضارة إلى جنوب النيل وعرف

سكان السودان الفن الإغريق وآلهة الإغريق ولكنهم لم يبدلوا آلهتهم بآلهة الإغريق حيث لم تكن هناك سيطرة لهم على السودان إنما المعاملات التجارية التي كانت قائمة بين المملكة المصرية الرومانية والمملكة السودانية الفرعونية التي عاشت حتى بعد القرن الثالث الميلادي في حين وقف نمو الحضارة الفرعونية في مصر من القرن السادس قبل الميلاد .

كان المجتمع المصرى هو مجتمع البلاط الملكى وجنوده وحاشيته ومجتمع الفلاحين الذين يخدمون هذا البلاط . . . الفن والفكر للذين يدورون حول القصر أو الذين يسكنون فيه أما بقية الشعب فلهم عبادة الآلهة وزراعة الحقول . . . لياكل السادة ويجنون الضرائب ويعيشوا في عالم آخر قائم على عرق هؤلاء الأشقياء الذين رأوا فيه جنمة بالنسبة لحكم الفرس الذين حكموا البلاد بالبطش والإرهاب .

في ظل هذه الحضارة التي امتدت من شمال البحر الأبيض المتوسط إلى جنوبه حتى عمت النيل ظهر المسيح منافس جديد لآلهة هذه الحضارة . . . ومعه الإنجيل الذى حير الفلاسفة وأهل الفلسفة في معتقداتهم وآراءهم .

إن ظهور المسيح لا يمكن أن يكون حدثا سهلا بالنسبة لرجال الفكر والفلسفة في ذلك العهد . . . فقد جاء رسول بعقيدة تخالف كل فلسفاتهم وأفكارهم . . . كما أنهم وجدوا أنفسهم في مكان إمتحان قاس بالنسبة لبقية الشعب الذين يستفتونهم في آراء هذا الرسول كما أن موقف الكهنة من هذه

الديانة السماوية الجديدة أمر ليس بالسهل . وأخذ الصراع الطبيعي بين
المعتقدات القديمة والديانة الحديثة زمنا ليس بالقليل حتى سادت المسيحية
وأصبحت ديانة الدولة وفرضت نفسها على بقية الشعب وامتدت إلى المملكة
السودانية الفرعونية التي أثرت فيها وبدلت ديانتها في القرن الرابع
الميلادي حتى وصل هذا الأثر إلى داخل السودان . إلى مملكة علوه قرب
مدينة الخرطوم .

دخول العرب والإسلام السودان

ستبحث بعد الآن في نوعين من المؤثرات على حياة المواطن السوداني أولا دخول القبائل العربية - كقبائل لها عاداتها وأخلاقها وفكرها الذي يختلف عن أفكار وعادات وتقاليد المناطق الجديدة التي ارتادها العرب مكرهين أو راغبين وسنحاول أن نتبع المؤثرات التي خلفوها على الجماعات السودانية في شمال وشرق وغرب السودان كما سندرس أثر الدين الإسلامي كدعوة جديدة جاءت إلى قرى مسيحية وقبائل وثنية . .

دعوة جديدة تدعو لوحداية الله وعبادته .. وسنرى إلى أي حد كان دعاة هذه الدعوة أو رسل هذه الرسالة توفقوا إلى توصيلهم إلى هؤلاء الاغراب عنها، وكيف استطاعت أن تحل مكان الوثنية ومكان المسيحية في الشمال وفي وسط السودان.

عرفنا أن زحف القبائل العربية بدأ بظهور الاسلام في أفريقيا وأوروبا من أجل نشر الدعوة الاسلامية ثم هربوا من العصبية السياسية من انصار لدعوه الامويه والعباسيه والفاطميه .

وقد كانت مصر هي نظر أمير المسلمين عمر بن الخطاب حين دخل عمر بن العاص ناشراً الدعوة الاسلامية في أقوى دولة في أفريقيا في ذلك الوقت وفتح الطريق للقبائل العربية لتنتشر خارج حدود الجزيرة العربية .

دخل عمر بن العاص مصر عام ٦٤١ ميلادية ولم يكن دخوله إلى مصر دخول

عابر أو إحلال دين مكان آخر وعملية التحويل نفسها لا تأتي بالقوة أو بين يوم وليلة
أنه تغير في معتقدات الناس وفي معاملتهم .

وإذا كان دخول عمر بن الحاص إلى أفريقيا عن طريق مصر يعني أولاً - عزل
أفريقيا عن حضارة شمال البحر الأحمر المتوسط التي سيطرت عليها منذ عام ٣٣٢
قبل الميلاد بفتح الاسكندر المقدوني لمصر ودخول الحضارة الاغريقية لمصر
وأفريقيا ثم أعقبه الرومان من عام ٥٤ ق م إلى ٦٤١ ميلاديه .

إذا وضعنا في اعتبارنا أن المنطقة النيلية التي قامت عليها الحضارة والمجاني
الفرعونية تمتد من الاسكندرية إلى النيل الأزرق بالسودان لأدركنا أن سيطرة
الحكم على الاسكندرية أو الفسطاط يعني بالنسبة إلى أخضاع كل هذه الممالك
ذات الحضارة القديمة لحكم الشمال أو ترقب الجنوب لهذا الحكم الجديد الذي
استولى على مقاليد الحكم في الشمال . . . وستظل الممالك الجنوبية في ذعر وخوف
وترقب تنتظر زحف هذا الحاكم الجديد على مصر أن يغزوها . وإذا لم يحدث
الغزو يحدث التساهم والتعاون ، وهذا ما حدث كان جنوب النيل ليس بوضوح
هام للاغريق ، للرومان رغم أن رحلة هيروودوت في القرن الرابع قبل
الميلاد تكشف لنا رغبة للاغريق العارمة لمعرفة منابع هذا النيل ومحاولتهم
للسؤال عنه أو استكشافه . . هذا يضيف إلى أن قصة هذا النيل واسطوريته
عند الاغريق . وما وصل إلى اسماء منه وتسميته مناباة بهضاب القمر البيضاء ،
والتي رجح أخيراً أنها تعني هضبة جبال كلمنجارو وشلالاتها . . وهذا يكشف
لنا إلى أحد هؤلاء المستكشفين الاوائل قد قرب من هذه المناابع أو أن
المعلومات قد وصلت إليهم . . أو أن تصورهم قد بلغ هذا الحد لرائع
لمنابع النيل .

هذه الحضارة المزدهرة التي كانت قائمة على شمال النيل وكان لها أثر مباشر على جنوب النيل كما جاء سابقاً يمكن أن يكون زوالها بهبوب عاصفة تغطي على القديم وتترك المكان مسطحاً للجديد لينبت بل العكس إما عملية صراع رغم التغلب الظاهري الذي امتاز به العرب والاسلام على شمال أفريقيا .

ولكن فرض الثقافة العربية والاسلام والحضارة العربية مكان المسيحية وحضارة شرق البحر الابيض المتوسط وشعوبه لبس أمراً هبتنا رئيسياً يتم في عام أو أعوام بسيطة . أن الجيش الاسلامي ربما يدخل ويفرض الحكم الاسلامي وربما ينتشر الجند في كل بقاع المملكة ... ولكن الحياة العربية ان تظهر إلا بعد أن يغلب هؤلاء العرب عددياً وعسكرياً وفكرياً على الواقع الموجود ... وهذا ما يكشف لنا دخول العرب السودان في جماعات كبيرة ظاهرة بعد سبعة قرون من دخولهم مصر رغم أن عمر بن العاص (عام ٦٤١) أرسل عبد الله بن السرح لتأمين الحدود الجنوبية من المملكة المسيحية والقبائل الجنوبية لضمان سلامة مملكته من الجنوب ومحاربة بعث هذه الدعوة للجنوب ... ولكن لقله إمكانياته للتوسع جنوباً اكتفى رسوله عبد بن السرح بعد أن ضرب دققة بالمنجنق بهقد معاهدة صلح مع حاكمها بأن يعترف بالدين الاسلامي ولا يعاديه ... وأن لا يقف ضد من يؤمن به .. وهو بذلك ضمن حرية العبادة للمسلمين في تلك البلاد المسيحية .. . كان هذا أهم حادث في تاريخ السودان الاسلامي .. وأن يفرض الحاكم الجديد على مصر على حاكم شمال السودان المسيحي بأن يحترم الدين الاسلامي .. وأن يحترم المسلمين ويتركهم لأداء شعائهم ... وقد كان من جس حظه أن هذه المملكة المسيحية لا تملك من المنفعة أو المقاومة لهذا الفاتح الجديد الذي أزهدت فتوحاته كل ممالك العالم وأصبح يرعب كل ملك ينتظر قدومه .

كانت معاهدة بن السرح هي وضع الراية الاصلاحية من قباب الكنائس في أرض السودان في النصف الاول من القرن السابع الميلادي .. وعاد راجعا بعد أن ضمن حرية العبادة للمسلمين ولكن في الحقيقة لم يكن هذا لك مسلمون قهري دعوة جديدة دخلت عليهم بالقوة ولكن ظاهرة التسامح والعقد الذي أعطاه بن السرح لحاكم دنقلة فتتح الباب لهذه الدعوة أن تدخل قلوب المواطنين في أرض مسيحية متعصبة لمسيحتها وربما غاضبة لأنهم مصر المسيحية أيضا وسد الطريق أمام هذه المالك إلى الاسكندرية والامر الذي قاد لحقق هذه المسيحية في حدودها وربما عزلها عن العالم المسيحي النشط الذي كان يعمل في شروق البحر الأبيض المتوسط لتنشيط رسالة المسيح وتدعيم الكنيسة المسيحية وزعامة أور بالنشر الدعوة المسيحية .

وبد القرن السابع الميلادي خضعت مصر وشمال أفريقيا الاسلام ولسيطرة الحكام العرب والقبائل العربية والتكاثر عدد النازحين العرب في شكل جيوش أرمتهما . وفي يدهم حيث امتدت دولتهم الاسلامية فالحكم العربي على هذه البلاد فتح لهم باب الهجرة والتجوال بين هذه الامم حتى سيطروا عليها وفرضوا اغتصبهم وأغلب عاداتهم .

أما في السودان فلم يحدث غزوا لوضع دولة اسلامية عربية كما حدث في بقية البلدان التي خضعت للاسلام والحضارة العربية بكل مقوماتها فقد ظل السودان في شبه سلام من هذا الغزو الاسلامي والحضاري مكتفيا بعزله المسيحية .

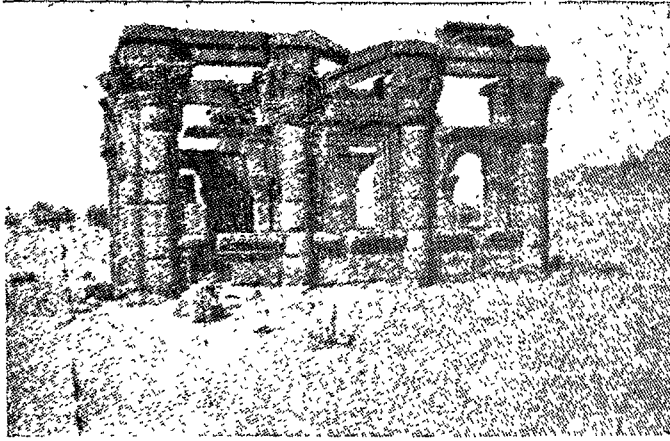
و لكن هل يقف الاسلام والعرب عند شمال مصر ، بالطبع لا .. فقد امتدت

الهجرات العربية لتأمين الحدود الجنوبية لهذه المملكة الإسلامية التي لها وضع إستراتيجي بالنسبة لماصمة الامبراطورية الإسلامية العربية وبالنسبة لشمال افريقية واسبانيا .. وكانت مصر ملتقى مركز هام لهذه الدعوة ولهذا الانتشار العربي .

أن ظهور العرب في أى مكان أو بين أى مجموعات لا يحدث في لحظة . . . وإذا أردنا أن نتصور أو ندرس التاريخ كما هو ، علينا أن نسأل أنفسنا بعض الأسئلة كيف كان يعيش هؤلاء العرب مع هذه المجموعات . . . أى حرفة كانوا يتكسبون منها قوتهم . . . ما نظرتهم للقوم الذين بينهم وما نظرة القوم اليهم . . . وما صناعه هؤلاء القوم . . . ما هى العلاقات الاجتماعية بين هؤلاء السكان وما معتقداتهم . . . هل وجدوا هنا لك تناقراً بين طباعهم وطباع العرب — هل وجه العرب منهم طباعاً يجعلهم ينزعولون عنهم أم وجدوا تقارباً بينهم في المعاملات والأخلاق حتى سهلت عليهم عملية التعايش والتعامل . . . اللغة التي كان يتكلمها هؤلاء القوم قبل قدوم العرب هل كان يعرفها العرب — هذه كلها أسئلة يجب أن نتصورها حتى يمكن أن نتصور حركة التاريخ أما إذا حاولنا ان نبدأ بعد غلبة العرب والاسلام عليهم . . . فستضع علينا ملامح المجتمع الجديد الذى جاء نتيجة هذا التزاوج والامتزاج .

ولنضرب مثلاً أن جماعة العرب التي حكمه أسوان كيف تيسر لها أن تحكم أسوان .. وحتى تظهر لنا في القرن الحادى عشر الميلادى مملكة عربية كثرية تسيطر على جنوب مصر . . . هل حدث هذا الحكم في لحظة البصر وأصبح حقيقة واقعه أم هناك تدرجاً حدث حتى حدث هذا التغلب .

والصورة يحدث كما بلى . . . وهو تغلب العرب المسلمين على مصر دفع لفرض



مباني رومانية امتدت إلى جنوب وادى النيل بصحراء النجعة
تضيف إلى تاريخ حضارة النيل إمكانيات حضارة شمال البحر
الابيض المتوسط .

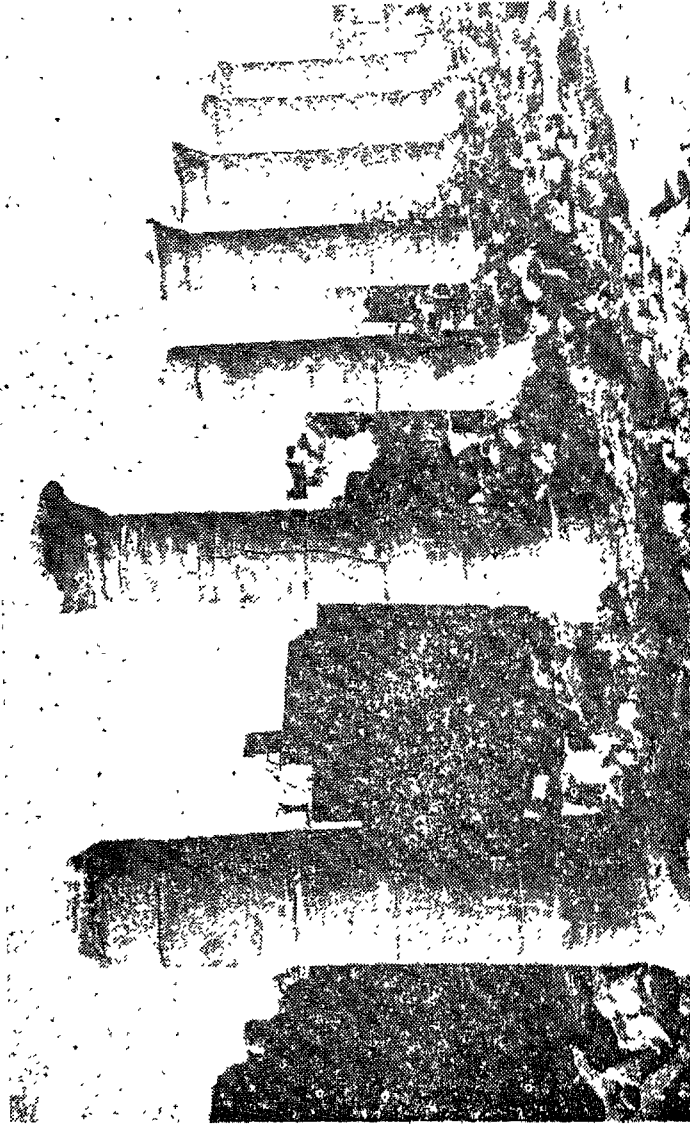


الحيوان من المخلوقات المقدسة . . بقايا أثار النجعة

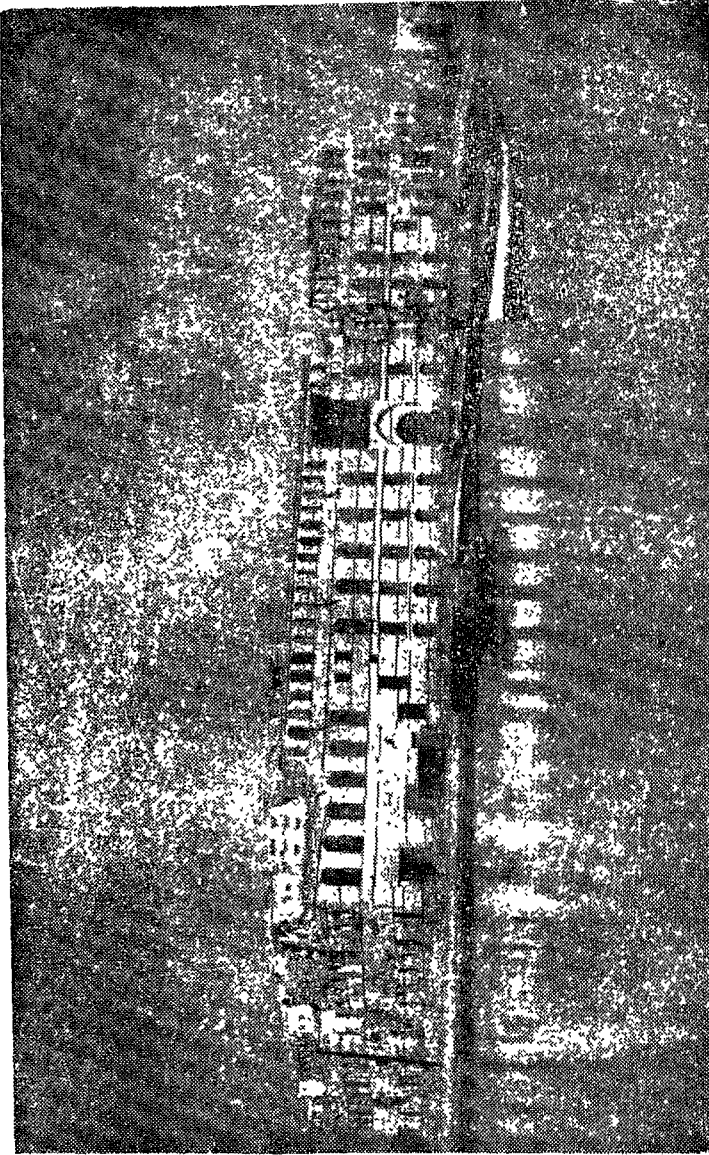
— ١٧٩ —



لوحة العذراء والسيد المسيح وجدت بكنيسة فرص . من بقايا
الفن المسيحي والقيطى بالمديرية الشامية . .
اللوحة بها إمكانيات فنية لاحد لها . . منها الجديد . . والقديم
الممثل في حضارة انسان النيل .



بقايا العمود المروي (٣٥٠ ق م - ٣٥٠ م في المصورات الصفراء تبين مائة البناء والأعمدة الفرعونية التي قامت عليها المعابد والقصور والقاعات.



أطلال مدينة سوا كن ميناء البحر الأحمر في شرق السودان واجهة الحضارة العربية في الشاطئ
الأخضر من البحر الأحمر.

حكاه على المراكز الكبيرة ولما كانت أسوان من المراكز التجارية الهامة بين حدود مملكة مصر . . . وممالك النوبة المسيحية والصلاة التجارية عن طريق القوافل لبيع حاجيات أهل السودان لمصر وحاجيات أهل مصر للسودان . . . وبمرور الزمن وفرة هذه الحماية الجنوبية كثير عدد العرب بها . . . وحينما كثير عدد العرب بها . . . نزح اليها بعض مجموعات القبائل العربية التي كانت توجد في ظل الحكم العربي ضمانا وحماية لها من أى منطقة أخرى .

وحيثما كانت علاقات أسوان بممالك النوبة دائما في تحرش بسبب الدين والقوافل التجارية . . . ولمجوم النوبة على حدود هذه المملكة المسلمة . . . انتهى الامر بأن تغلبت المملكة الجنوبية الاسلامية على ردة المملكة النوبية المسيحية وفرض دية عليها .

إذا اعتبرنا الفتوحات الاسلامية هي البداية العظيمة للهجرة العربية خارج الجزيرة في مجموعات كبيرة ولو اعتبرنا أن العرب وصلوا إلى حدود المملكة المسيحية السودانية دنقلة في النصف الأول من القرن السابع الميلادي . . . بعد مطامات هدمت قباب كنائس دنقلة رجع العرب لحراسة الحدود المصرية وأقاموا في أسوان قاعدة جديدة للحرب .

وفي القرن السابع الميلادي كثرت الروايات عن بلاد النوبة والبجة وبهنسه والسودان في كتب العرب في كتابات قائمة على الرواية والنقل وهو أمر لم يكن معروفًا من قبل وظهر اسم القبائل السودانية في روايات كثيرة وأثبتت مع العرب بعد القرن الثالث الهجري الأمر الذي يجعلنا ننفذ عند أسوان كقاعدة انطلاق للعرب والمسلمين داخل السودان .

أما النوبة فقد جاء في معجم البلدان للآمام شهاب الدين بن عبد الله يافوت بن عبد الله الحموي المتوفى عام ٦٢٦ هـ . (أن النوبة بخلاف هيانتهم للمسيحية القبطية) يعاقبة) كانت حالته الاجتماعية متيسرة وكانوا أصحاب أبل ونجايب ووتر وغنم ولما حكمهم خيل عتاق وللعمامة براذين وفي بلادهم الحنطة والشعير والذرة ولحم نخل وكروم ومقل وأراكى) . وهذا الوصف لا ينطبق على شمال النوبة إنما ينطبق على أرض من النوبة عامة التي عرفها العرب والاندلس على أن النوبة كانت لهم ما فيهم وكان لهم زرعهم . فلم يقوم بتقييمهم . أما في حضارة ومدينة ودراسة منظمة عريقة لها تقاليدها ودينها وحضارتها وأبنائها دولة حديثة أو مجموعات متناثرة كما في شرق السودان . . وهذه الحضارة أخذت لها من داخل السودان حيث امتدت روى القديمة قرب شندي ثم حين ظهرت المسيحية انتقلت الحضارة إلى الجنوب عن ضفة النيل الأزرق عند ملتقى النيلين في هذه المساحات السكبيرة لم تكن بحولة أو منعزلة أو بدائية بل بالعكس لها قوتها وتنظيمها ودينها واتصالها الخارجي .

أما في الشرق فقد كانت هذه القبائل المتعددة من البجة . . . قبائل بدوية وثنية لاتدين لحاكم أو ملك إنما لكل قبيلة زعيمها ، يحكمها قانون القبائل ، كل ما كانت هنا لك قبيلة قوية كانت لها المكانة عند القبائل الأخرى وكان يخشى بأسها وقوتها . . . أما القبائل الصغيرة فهي لاتتفك تتعارك مع بعضها البعض أما من أجل الثأر أو من أجل المرعى أو من أجل النهب وسرقة الماشية القليلة الحراسة الضالة .

هذا هو الخط العريض الذي واجه دخول الإسلام والعرب من الشمال . . مدينة مسيحية قديمة ذات حضارة فرعونية عريقة وديانة حديثة ودولة منظمة

قديمه عمرها أربعة عشر قرنا أقدم من حضارة العرب وهى فى الشمال أقوى وأعرق . . . تضم قبائل قديمة أصيلة ذات تقاليد وشجاعة جعلتها تحتفظ بما كسبها بعيدة عن السيطرات الخارجية التى خيمت على مصر فهزيمة هذه الشعوب ليس بالامر الهين واخضاعها ليس أمراً سهلاً لأنها قبائل قديمة عرفت المعارك والقتال ولم تستسلم يوماً ما . . . ولذا كان دخول العرب من النيل ليس أمراً سهلاً أمام مجموعات لها دينها وبأسها واستعدادها ولها لغتها الخاصة . . . أربعة عناصر قوية تواجه تدخل العرب والاسلام من النيل . . . الحكومة القوية العربية . الشعوب المتمرسه على هذا الصدام والتى لاتخضع بسهولة . . . واللغة المختلفة عن اللغة العربية . . ثم الديانة المسيحية التى بسطت نفوذها على طول النيل .

هذا ما يخص جبهة النيل أما ما يخص الجبهة الشرقية أى تلك القبائل البدوية المتعددة المشاكسة . . . فلو كان هنالك ملك يحكم هذه القبائل لأمكن إخضاع الملك بالقوة للمسلمين من قوة وبذلك يمكن إخضاع جميع القبائل . . . ولكن الامر هنا أصعب ، فهمة الدولة الإسلامية ليست سهلة . . . فعليها أن تخضع جميع هذه القبائل الوحده نلو الاخرى . . . هذه من ناحية السيطرة على هذه القبائل . . . ويأتى عنصر آخر هو اللغة فهذه القبائل لا تتحدث اللغة العربية مما يجعل مهمة للتأطير معها أمراً صعباً . . . وتعليم الاسلام أصعب . . . وهى اعتقد المشاكل فكيف يكون التمازج بين هذه القبائل وبين العرب المسلمين . . . وكما أن ديانة هذه القبائل هى ديانة وثنية لا يسمل توصيل هذه الرسالة لاولاء النور الوثنيين الذين لا يعبدون إلاها . . . فلو كانوا يؤمنون بالمسيح لا مكن اقتناعهم بسهولة وبالجدل . . . أما أن تخرجهم من الظلمات إلى النور بدون سابق معرفة . . . أوتهى. لهذا اللقاء وهذه القوة فليس بالامر الهين .

هــذا هو الخط الشمالى الذى واجه تدخل العرب والاسلام والعناصر التى حددت من انطلاق العرب والاسلام الى السودان بعد القرن السابع الميلادى كما حدث بسرعة فى بقية بلدان شرق أفريقيا . . . هذا مما جعل العرب يقنعون بأسوان وقيمون بها لوقت طويل .. ويكتفون بالجزيرة على مملكة النوبة المسيحية ذات الخيرات والحضارة والتنظيم وتركت القبائل البدوية فى شأنها . ولما كان هل استمر الحال على هذا الخط الشمالى ضد تدفق العرب والاسلام أم أن الزمن كان له عنصر مساعد فى ذلك .

بعد القرن الثامن بدأت اعداد القبائل العربية تكثر على شمال المملكة السودانية . واصبح العرب أصدقاء للنوبة وتخالطوا بهم . وتدفقت بعض القبائل بشكل كبير على هذا الجزء منها ربيعة وجهينة وعكرمة على هـذا الخط الشمالى وبذلك قوت شوكة العرب العددية واصبح لهم وزن وتخالطوا بسكان وادى النيل وانتشروا على السهول الشرقية وعرفوا القبائل البجاوية . . . وسكان هذا العدد تسنده دولة قوية . . . أُرهب العرب سكان هذا الخط الشمالى وفسحوا لهم وجعلوهم يعيشون بينهم يشاركونهم فى التجارة وخالطوهم . ويمرور جيل يأتى جيل بعدهم لاشك تحتفى النظرة الغربية للجانب الآخر فالعرب الأوائل الذين سكنوا بأرض نوبة لاشك كانوا ينظرون نظرة غريبة للنوبيين . . . فقد عرفوا عندهم عبدا . . . كما أن النوبى كان ينظر للعرب كعنصر دخيل عابثهم يخافه لقوته ويحالفه ويتحاشاه ولكن أحفاد هذا الجيل الأول حينما يشبهون مع بعض ويحدون أنفسهم مع بعض تحتفى حدة هذه النظرة ويمرور السنين تتقارب الاخلاق والعادات والنفوس وهذا ما حدث ، رضى النوبة أن يسكن العرب بينهم ويسيروا فى ديارهم وقيموا شعائرهم خوفا فى البداية . . . وصداقة بعد مرور السنين ولما كسب هؤلاء المستوطنين كان لابد من أن يتزوجوا منهم . . . ولا كنههم لا يزوجونهم بأنفسهم للنوبيين المسيحيين والإعتزازهم بعنصرهم العربى . . .

ولكن الاجيال الجديدة انتى ولدت فى الوطن الجديد ولم تعرف شيئا عن تقاليد
وأحلاق الوطن العربى القديم فلم تتمسك بهذه النعرات إذا أسلم أحد الذوبين .

وبسابق هذه القبائل رويدا الى الجنوب كان اضغافاً للمملكة المسيحية وللدِين
المسيحى وبداية لنهاية الدولة المسيحية -- فى القرن الحادى عشر قامت
دولة بنى كنز أشرة إلى كنز الدولة وإلى الحاكم بأمر الله على أماره اسوان
فقد أقام كنز الدولة دولته العربية عند اسوان وقويت شوكته فى حين كانت موارد
الدولة النوبية تقل ايدخل العرب فى الحياة المعيشية ولكثرة عددهم فى الدولة
وعدم إمكان تحصيل جزية منهم ولمشاركتهم فى التجارة -- لم يرسل حاكم
دنقله الجزية لأمير أسوان الامر الذى قاد لاعادة تأديب هذا العاصى ولاظهار
قوة العرب المسلمين من جديد فى القرن الحادى عشر .

وبقوة هذه الدولة الكنزيه كثرت القبائل العربية من ربيعة وجمهنة كما ذكرنا
وأصبحت درعا منيعا لهذه القبائل بأن تتجول وهى واثقة بأن خلفها أماره لهما
وزن فى الاراضى المجاورة وهذه القبائل المتعددة المشاكسة فى رغم ذلك
تخاف القوى الذى فى استطاعته أن يبطش بها .

هذا يبين لنا كيف كان دخول العرب من جهة النيل عند النوبة بعد أن
أصبحت اسوان أماره ومركزاً تجاريا هاما فى هذه القوة جمع إليه كثافة
السكان ، ففيه تجارة مصر ... وبضائع السودان وبضائع العرب فن
السودان كانت الماشية والعبيد وريش النعام والصمغ والذره والذهب والعاج
والبلح ومن الشمال كانت المنسوجات وبضائع الهند والسكر والودع
وما شابه ذلك مما كان ينفع الاها الى الجنوب والمناطق البعيدة التى يجلب منها
من القيل وريش النعام والصمغ لتبادل السلع عليه وكان الذهب من

أهم هذه المواد .. وكان السودان مركزا هاما لهذه الساحة وهما ساعد
مكاشر العرب ظهور تهر الذهب في أرض المعدن ووادي العلاقي شرق أسوان
.. .. وكانت هذه المناجم التي يخرج منها تراب الذهب ملكا لرؤساء
القبائل البجاوية .. ولكن حاجة الإنسان المعيش وللحسب جعلت القبائل
العربية تزحف نحو هذا الوادي وزحفت القبائل العربية أول زحفها
الى الشرق ثم الى الجنوب وكان وادي العلاقي وأرض المعدن هو بداية هذا الزحف
وكان ذلك في القرن التاسع الميلادي .

وكثير عدد القبائل العربية بين هذه القبائل البجاوية ولا شك أنها
في البداية لم تستطع القبائل البجاوية هذه الهجرة .. وهذا ما حدث أن شنت
القبائل البجاوية الغارات على هذه القبائل وعلى شواطئ النيل الآخر الذي أزعج
أمير أسوان فأرسل إلى المتوكل على الله في بغداد يشكوهم وأمرهم فأرسل إليهم
هذا محمد بن عبد الله القمي ، واشتبك معهم وهزمهم ، ثم عقد صلحا معهم ..
بعد أن قتل زعيمهم .. وأقتدب ابن أخيه ليذهب لبغداد ليلاً بلاط المتوكل
على الله :

وكان هذا العقد الذي وقع في القرن التاسع الميلادي هو جواز مرور للقبائل
العربية والسباح الاسلام أن يدخل السودان من الشرق وأن تقام شعائره
ولا يؤذى المسلم .. كل هذه الضمانات التي أعطيت للعرب المسلمين كانت هي
أشارة دخول للعرب وللإسلام وبذلك كثر تدفق العرب من هذا الجانب حتى
وصلت بمرور السنين إلى أرض البطانة عن هذا الطريق .

كانت قبيلة الحدار به (عربية أصلاً) وهي من القبائل الكبيرة في
هذا الخط هي أول من عمد للصاح وأسلم بالجوار ومن هذه العلاقة أقيمت

الشعائر الاسلامية وصاهر العرب زعماء هذه القبائل ليأمنوا شرهم . . . وبهذه الوسيلة دخل العرب في حياة هذه القبائل وتغلجوا عليهم . . . وانتشر للعرب عن هذا الطريق طلبا للمرعى أو بحثا عن الوحده أو المرعى الجيد أو لحاق زعامة لكل قبيلة عربية بعد أن أصبحت لهم السيطرة العددية والتزواج مع هذه القبائل اللبج وفيه التي تشاركهم في نفس المناخ والحياة المعيشية .

وحينما أصبح للقبائل العربية السيطرة على هذه السهول الشرقية حتى ميناء عيذاب شجع هذا الهجرة العربية لكثرت من القبائل العربية من جهة ومن ناحية منهم من سار حتى النيل من جانب الضفة الشرقية حتى وصل العرب إلى ملتقى النيلين وساروا غرب النيل .

أما من ناحية غرب السودان فقد كان الأمر يختلف عن الشمال . . فقد انتشرت القبائل الزنجية جنوب الصحراء الافريقية قبل ظهور الاسلام . . . عاشت حياة بدائية في الأول ثم تطورت هذه المجموعات بسرعة أكبر من مجموعات جنوب السودان التي وقفت الطبيعة دون استقرارها وربما خيرات الطبيعة للمجموعات الزنجية التي لا تمكث جهدها في اتي عطيات الخلق والابداع . . . فقد وفرت الطبيعة للمجموعات الزنجية التي تسكن جنوب السودان كل الخيرات من ثمر وأماكن طيبة وحيوان بأقل جهد . فالأرض خضراء كثيفة بها شتى النباتات والأشجار المثمرة التي ساعدت تلك المجموعات على الراحة . . . والطبيعة لم تطلب منها النعب لغرس الحبوب ورعاية الحمول . . . وقد منحتم الطبيعة هذه الميزة لبوفر طاقته ووقته للدفاع عن نفسه من الوحوش المفترسة التي تعيش معه داخل الأشجار والحشائش والمستنقعات فلو فرضت عليه الطبيعة الواجب الطبيعي للبحث والتعب والاجتهاد في لقمة العيش من غرس وحصاد . . الخ

لكانت مكنت الوحوش الضارية من صيده ولما وجد الوقت الكافى والطاقة لمحاربتها والهروب والاحتباء منها .

أما فى غرب السودان فالأراضى سافنا تختلف اختلافا مناخياً ونباتياً عن منطقة الجنوب وأرض الجزيرة التى كانت فيما مضى كثيرة الأعشاب والأشجار والمستقعات . . . فالأرض فى غرب السودان ومليئة . . . وبها بعض الجبال والوديان مما يساعد على الزراعة والرعى وهذه الحرفة تكون المجتمع الزنجى الغربى الاول الذى امتد جنوب الصحراء حتى النيجر والسنغال .

ولكن حال هذه للقبائل لم يستمر كما تحب فقد حدث اضطراب سياسى عنيف فى الدولة الإسلامية . . . سقطت دولة الأمويين بعد أن انتشرت على طول شمال أفريقيا بأنصارها وقبائلها لتظهر دولة فتيه قوية هى الدولة العباسية .

ولم يكن سقوط الدولة الاموية هو سقوط حاكم واحد أو بيت أو قبيلة إنما كان سقوط نظام تمليه عصبية واسعة حادة الامر الذى ملأ النفوس بالحقد والكراهية لكل أنصار الغربى الآخر الامر الذى جعل تدفق القبائل العربية المناصرة لبنى أمية هاربة إلى خلف الصحراء الافريقية أمراً مقبرلاً ومعقولاً حتى فرضت هذه الهجرة العربية شخصيتها وكثرتها على القبائل التى تجاور الصحراء مما قاد لانتشار العنصر العربى فى وسط أفريقيا ولانتشار الاسلام بين القبائل الزنجية واختلاط القبائل بالمواطنين مما قاد لقيام ولايات إسلامية فى وسط أفريقيا فى السنغال والنيجر وبرنو وكانم ووداي ودارفور .

ومن هنا تبين لنا صوره حدود السودان الغربية التى واجهت هذه الدولات الإسلامية العربية الزنجية التى تمتد من نهر السنغال فالنيجر وتشاد وبرنو وكانم .

وإذا عرفنا أن سقوط دولة الامويين كان في القرن الثامن الميلادى
وبدأ زحف هذه القبائل التى تطاردها العصية القبيلة الحاكمة والعناء
المذهبي أن تغل في أفريقيا وقد أخذت هذه القبائل وقتا طويلا لتتأقلم مع
المجتمع الجديد الذى واجهته والظروف السياسية التى تحيط بها ولا شك أن
موقفها السياسى فرض عليها السكون وطلب الملجأ أكثر من محاولة إثارة هذه
القبائل والا أصبحوا محاصرين بعداوة الحسك العباسى من الشمال ثم الفاطمى فيما
بعد وهذه القبائل الزنجية فى شمال ووسط أفريقيا . . .

وحينما وصل العرب إلى هذه الأراضى لم يجدوها خراباً بل وجدوا فيها نظاما
للادارة والحكم والتجارة رائجة . وطرقها سائرة بين الجنوب والشمال والشرق
والغرب .

ومن هذه الدولات القديمة قامت دولة وثنية فى غرب السودان هى دولة
دار الفور أو سلطنة دارفور قبل وصول العرب من العصر السودانى الذى
استوطن وسط أفريقيا ثم مهد هذا التجمع إلى ظهور سلطنة الفور الاسلامية
فيما بعد .

العرب في السودان الشمالى بعد حكم الفاطميين :

كما جاء فى دخول العرب على غرب السودان ببداية زوال حكم الأمويين وقيام دولة العباسيين وإنشاقها بقيام دولة الشيعة الفاطمية على شمال أفريقيا أى بقيام دولة الأدارسة فى المغرب وانتقال عاصمتهم من المهدية إلى قاهرة المعز لدين الله عام ٩٧٠ م .

أستمر حكم الأمويين على شمال أفريقيا ومصر حتى عام ٧٥٠ م حتى انتزعت مصر من يد الأمويين الذين لم يمهّدوا لانصارهم من الاستيطان فى مصر بل كانت فتوحاتهم فى المغرب تتطلب أعدادا هائلة من العرب ولذلك كثر عدد العرب الأمويين ولم يستقر فى مصر إلا عدد بسيط من الجنند وصلوا حتى حدود المملكة عند إسوان ليحفظوا حدود المملكة ويجبوا الضرائب من سكان تلك المنطقة ويحافظوا على عدم غارات النوبيين عليهم

وبأنهاء القرن العاشر الميلادى وبداية القرن الحادى عشر بدأت القبائل العربية التى كانت تقيم جوار إسوان وتحرسها فى عهد الأمويين بظهور دولة الشيعة الفاطمية من الهروب إلى الجنوب ودخول السودان بعد أن أصبح الطريق مقفولا أمامهم من الشمال زاد عليهم القبائل التى أتت إلى مصر لمناصرة العباسيين فى حكم مصر - وبذا نزحت إلى مصر بعد الاسلام قبائل عربية تناصر بنى أمية ثم هربت هذه القبائل للجنوب . - ثم جاء الشيعة إلى القاهرة لانتصارا للعلويين وإنشاقا على العباسيين الذين تنكروا لآل البيت الذين استغلوا الدعوة لهم فى جمع أعداء بنى أمية والإطاحة بهم .

وبظهور الفاطميين على مصر أصبحت مصر ولاية شيعية لا مكان للامويين والعباسيين بها وبذا بدأ توقف هذه القبائل إلى داخل السودان الشمالى وحيث كانت القبائل النوبية المسيحية تسيطر على أرض النوبة فلا مجال لهذه القبائل الهاربة فى هذا للطريق وهى تتحاشا الاحتكاك بهذه القبائل خائفة من العدو الذى يسيطر على الشمال .

العرب على النيل

أختلف ما كما يكل ومحمد عوض محمد فى نسب الجعليين بمجموعة القبائل النيلية الميرقاب - الرباطاب - المناصير - الشايقية - الجواربة الركابية - أختلفوا فى نسبهم إلى ابراهيم جعل بن سعد بن فضل بن عبد الله بن عباس بن عم الرسول صلى الله عليه وسلم - اختلفوا فى هذا النسب وهذا الاسم وعدد الأجيال التى جاءت بعد الرسول (صلعم) وفى القرن الذى جاء فيه إبراهيم جعل هذا حتى كون هذه المجموعة الجعلية الكبيرة .

ومن نسب ابراهيم جعل هـ هذا يظهر انما نسبة إلى العباسيين ويمكن أن نرجح صحة هذا النسب لحكم العباسيين لمصر فى القرن الثامن الميلادى وانسحاب العباسيين من مصر للشيعية وهروب اتباعهم للجنوب ولا شك أن ابراهيم جعل هذا كانت له المكانة بالنسبة للقبائل العربية التى هاجرت إلى الجنوب وجعلت لإبراهيم هذا كبيرها وزعيمها نسبة لانتهاج البيت العباسى وخضوع القبائل العربية المحبة لآل الرسول ولاسرتة وبذلك جعلته زعيما لها فى مهجرها الجديد حتى بعد أن اختلفت معه فى الطريق بحثا عن مأوى وأرض للسكن وبذلك جعلت أسم هذا الزعيم حيث ذهبت وجعلته أبا روحيا لها رغم

أنهم لا تنتمى إليه في الدم بل بالطاعة والولاء والمذهب السياسى

وبذلك انتشر اسم إبراهيم جعل على كل القبائل التى هاجرت وسكنت ضفاف النيل وعبرت إلى كردفان كالجموعة والجمع والبديرية والجموامة والفديات والبطاحين فى الجزء الشمالى من البطانة .

كل هذه المجموعات انتمت إلى إبراهيم جعل العباسى الذى هرب لا شك من دولة الشيعة الفاطمية التى قامت فى المغرب واستولت على مصر فى القرن العاشر الميلادى وبذلك يمكن أن نؤرخ بداية نزوح هذه القبائل للسودان بالقرن الحادى عشر الميلادى بعد قيام دولة الـكنوز فى إسوان . . .

وبأنسحاب كل القبائل التى كانت تناصر مذهب العباسيين بدأ فى القرن الثانى عشر الميلادى إستيطانها على النيل وزحفها إلى الغرب والبطانة حتى كان القرن الثالث عشر والرابع عشر حتى مآلت السهول والوديان وقويت بالرضا من قبائل النيل القليلة العدد التى لم توجد من هذه المجموعات مضايقة لها فى معيشتها فمساحات السودان الشاسعة ما زالت ترحب بالمزيد من كثافة السكان .

سكان غرب السودان ودخول العرب

كما أعتقدنا بأن منطقتي كردفان ودارفور إذا قورنتا بمنطقة جنوب السودان تعدان أكثر مناطق الاستمرار ، فاللطيفة عنصرها المساعدة للتطور الحضارة فطبيعية أرض الجنب ، الأستوائية ، نباتاتها وأدغالها ووحوشها كانت حائلادون نشوا ، التراب ، كانت ياء ، مضارة ، أما في ساقين الدج يمين ذاتاً مسر يختلف نجس ، التراب السيق يمين ، سافانا الغنية ثم سافانا متوسط من الشمال السافانا الفقيرة ، سافانا ، قبل السافانا ، التوبة ،

وهذا المدخ طبعاً المنوع ، يعني بالوديان والمضارب والأعشاب المختلفة الصالحة الرعي و لزراعة قدامى هذه السهول والوديان .

سكنت ، السهول والمضارب والوديان الرملية عناصر زنجية عرفت أكبر بمحورين منهم بالانجور في شرق منطقة جبل مرة وداجو ، أو « التاجو » في جنوب شرق ، مديرية دارفور « والباجرمي » في الجنوب الغربي . ثم الفرديت في جنوب دار ، والسكنجارد في جبل مرة ، هذا فيما يختص بالأجناس الأصلية التي كانت تعمر منطقة غرب السودان ، وهي الأجناس الأصلية التي كانت تعمر منطقة غرب السودان ، وهي الأجناس زنجية الأصل قبل أن تصل إليها الهجرات العربية .

وهذه الأجناس الزنجية التي عمرت أواسط أفريقيا حتى نهر السنغال ، ولا شك أن تسال هذه القبائل ، ثملاء أراضي أفريقيا وأوسطها ، جاء نتيجة لتسلسل هذه القبائل التي سكنت خط الاستواء ، ومن النيل وغرب أفريقيا ، ووجدت

نفسها بين الاديغال والحيوانات ، الامر الذي هيا للقبائل التي خرجت من خط الاستواء وأعال النيل أن تتقدم في عالم الحضارة والاستقرار وأن تخلف المدينيات وتنشئ الدولة بما مهد لهذه الدولات النجية المتقدمة أن تتعامل مع القبائل العربية الهاربة من الاضطهاد السياسي وتمتزج بها وتستفيد من حضارتها ، وعلمها وتخرج تلك المدينيات الافريقية من عالمها المحلي لعالم أرحب والى رؤيا جديدة فتجدها لهم العرب الرحل بأبلاغهم أن هنا لك عالم آخر غير عالم هذه الدولات المنعزلة المنعزلة في أواسط أفريقيا كما أن إجتياز العالم الذي هرب منه العرب كان موضوع تعليقات ودهشة سكان وسط أفريقيا إذ يسمعون لأول مرة أن هناك بلاداً عامرة غير بلادهم وأن هناك ممالك حكاماً وهناك بشر بخلافهم وهناك جنس آخر غير جنسهم وبشره تختلف عن بشرتهم .

هذه الاشياء البسيطة لاشك كان لها أثرها في تفتح ذهن سكان وسط أفريقيا إذا كانوا لا يظنون أن هناك بشر بخلافهم وأن هناك إنسان له بشرة غير بشرتهم وأن هناك عالم فسيح يحتاج الوصول اليه إلى شهور وسنين من السفر بالجمال والقوافل .

سكن « التنجور » « والداجو » كأ كبر قبيلتين أرض دارفور شاركهم كثير من القبائل النجيه الصغيره كالفرديت والبرقد والباديما والتموركة وفنجرو ورونجة والمسالبط والاباوما والكنجارو والشلوك في الجنوب الشرقى ولما كنا إذا حاولنا أن نتهدى إلى القبائل الأولى التي سكنت هذه الاراضى فلا شك إننا ان نجد هذه الاسماء الكثيره التي ظهرت بظهور سلطنة دارفور التي وصلت اليها عن طريق الممالك التي قامت في وسط أفريقيا . وعلى هذا علينا أن ننظر إلى سكان السهول قبل تكونين هذه المدينيات والحضارة حتى نصل إلى القرن الخامس عشر الميلادي .

لأننا نرجح أن أصل هذه القبائل الزنجية زحف إلى هذه السهول من القبائل الزنجية التي تسكن الأنهار التي تملأ منطقة خط الاستواء وأهالي النيل ، وبخروج هذه القبائل للسهول والشمس وجدت للظروف الطبيعية ملائمة أكثر للاستقرار بل الإستقرار كان هو الحل الوحيد لحل مشكلة العيش قبل أن تعرف مهنة الرعي وتربية الحيوانات التي جاءت أخيراً وتعلمها الإنسان بعد أن عرف كيفية تربية الحيوانات المفترسة من غيرها . . حتى كثرت هذه المواشي وفرضت عليه من جديد حياة الترحال . . والبحث عن مرعى أو وادى .

كان حيل مرة مصدر حياة لكثير من القبائل المستقرة في غرب السودان وعرف جيل مرة بتنوع النباتات لارتفاعه وصلاحيته للزراعة في منحدراته مما ساعد على نمواته طول السنة وذلك لتنوع مناخه ووجود مياه الأمطار به والتي تبيع الكثيره انى تسقى الزرع طول السنة .

وهذا الجبل وثروته كان يجب أن يكون مصدر قوت لسكانه . . . وأن يستفيد المقيمون به لتطوير حياتهم وفرض شخصيتهم بما لهم من الإمكانيات والثروة على بقية القبائل التي تسكن تحت الجبل أو بالقرب من وديانه ولكن ما حدث أن القبائل التي تسكن هذا الجبل انزوت فيه وحرسه من هجمات القبائل الكثيرة الأخرى الطامعة في خيرات هذا الجبل . وأصبح موقف القبائل المستوطنة لهذا الجبل موقف المدافع على طول الزمن بدل موقف المهاجم يقوى ويهدد أن كثرة القبائل المحيطة بالجبل جعل فرض السيطرة عليهم أمراً صعباً إذ يستطيعون أن يفرّوا إلى السهول ثم يعودون وذلك يعني نزول سكان الجبل من جبالهم لمطاردة المغيرين وهذا يفتح باباً لقبائل أخرى لترجم من جهات أخرى وبهذا فكيف سكان هذا الجبل موهب المدافع عن ثروتهم الطبيعية دون أن يستفيدوا منها وأن يستفيدوا من إمكانيات القبائل التي حوّلهم إلى حضارة الشعوب الأخرى .

ولم يسمحوا باستغلال هذا الجبل الاستغلال الطيب المنمر المفيد بل إستفادوا منه حسب حاجتهم المعيشية وليس حسب حاجتهم الحضارية التي تطالب منهم ببناء دولة ومدنية .

غناء هذا الجبل ، وتدفق المياه منه للوديان دفع القبائل الزنجية التي عمرت تلك السهول للأقتراب منه والعيش على فائض مائه في زمن الصيف . كان جبل مرة هو الأماكن المادية لنشوء ادويلات السودان التي قامت في دارفور . فغناء منطقة هذا الجبل كفأت الاستقرار لهذه القبائل بأن تعيش حول هذا الجبل ، أو بالقرب منه أو الوديان التي تنحدر منه . هذه الثروة الطبيعية كانت السبب المباشر لخلق التجمع الأول للإنسان الزنجي في غرب السودان كما كانت ثروات النيل سببا في نشوء الحضارة الأولى وأرض النهرين ، الفرات ودجلة سبباً لازدهار حضارة بابل في تلك المنطقة كما كانت وديان وأنهار شمال البحر الأبيض المتوسط سبباً في قيام حضارة الرومان والاعريق .

لمكتشف الإنسان أن هذه الخيرات بعد سنين التجوال والبحث حتى أستقر به المقام عندما توفرت له أسباب الاستقرار .

تلك المنطقة الغنية في الغرب المحيطة بمجال مرة كانت السبب في حياة الدويلات التي ظهرت في دارفور ولم تظهر في كردفان ذات السهول الرملية الفسيحة الفقيرة من الأنهار مثل أرض البطانة التي أحسن حالا لوجود ثلاثة أنهار تحيط بها ولكن السهول التي في وسط شبه جزيرة البطانة منعاً قيام حضارة في تلك السهول . أنما رفع ذلك لقيام حضاره على النيل ثم على النيل الأزرق بجوار مايتقى النيانين وبجوار الرهو والندر أو مدينة سنار .

إذا حاولنا أن نتعرف على الأجناس الأخرى التي خالطت القبائل الزنجية قبل وصول القبائل العربية وتقبها على هذه القبائل ، نجد في الشمال الجنس الليبي شمال صحراء أفريقيا ثم القبائل النوبية على النيل ثم قبائل الشكلى في الشرق والجنوب الشرق . . . وإذا عرفنا أن قبائل الشكلى التي تهاجرت الآن إلى بحر الغزال أنها كانت تغطى وسط السودان حتى قرب ملتقى النيلين وأنها كانت ذات مناعة وقوة ثم من الغرب القبائل الزنجية الأخرى التي خرجت من خط الاستواء لتعمز وسط أفريقيا وتسكن على الوديان والسهول والبحيرات والأنهار ماساعدة على خلق ظروف ملائمة مثل الظروف التي لم تباحث للقبائل الأخرى والحضارات الأخرى . . . ولكن اكتشاف هذه الظروف لاشك جاء متأخراً بالنسبة للقبائل الزنجية بالمقارنة للأجناس التي سكنت أرض النيل والفرات وشمال البحر الأبيض المتوسط .

إذاً يتساوى مع قبائل الفور الأول سكان وسط أفريقيا في نفس المستوى الحضارى والاجتماعى بظهور المجتمع القبلى أو الممالك الصغيرة وسط أفريقيا التي أمتدت على الأنهار والوديان والبحيرات . . . تسكن في شملها قبائل الشكل القوية العريقة التي لا ترغب في الابتعاد عن حياة النيل . . . ويبدو أن احرار قبائل الشكل عن الابتعاد عن النيل هو الذى حد من تطوّر مملكتهم حيث قامت على شمال النيل ممالك قريّة عريقة . مروي القديمة ، وسوبه ثم الفرنج .

لنتبع الشكل بمملكتهم على النيل وقل خطرهم وأثرهم على تلك المنطقة البعيدة حول حبال مرة . والذى حدث هو مساهمتهم في تعمير الأرض بكردفان وجنوب دارفور من الجماعات الهاربة أو القبائل اليافضة عن أرض

جديدة أما في الشمال فقد كانت القبائل النوبية على النيل ثم العنصر الليبي الذي كان له أثر وغارات على النيل والذي دلت الآثار على أن هناك مدينيات عانت في الصحراء جنوب النيل على الواحات قبل أن تقضى الرياح الرملية الصحراوية على تلك الوديان والواحات كما أن هذه الصحراء الأفريقية الجرداء اليوم لم تكن قبل عشرات الآلاف من السنين كما هي بل كانت عامرة بالحياة والخيرات والافسان مما ساعد على هجرات كثيره من القبائل الليبية للجنوب وكذلك كثير من القبائل النيبية للجنوب مما ساعد على أنعاش حركة الحضارة والمدنية في غرب السودان في عصورها الأولى .

وتذكر لنا دائرة المعارف الإسلامية وما كما يال وارث ولامين ساجان وبالمربعض الحقائق العلمية عن الاجناس التي سكنت وسط افرقيا يجد ربنا ثابتها هنا قبل مناقشتها .

في هذه القبائل الأصلية التي عمرت أرض دارفور . أن الداجو من أدم العناصر التي سكنت دارفور وتعيش جماعات منها في دار صلمج ودار مسيريه في جنوب غرب كردفان . . . وهم أول من أسس ملكة دارفور وأر المنجور هم الذين أزاحوهم من وسط دارفور إلى مواطنهم الحالية .

وهذا الزعم الذي ذهب إليه هؤلاء الكتاب يصيب أثبا . . . فقد عرفت هذه المنطقة العمران منذ زمن بعيد إذا أدركنا أن العرب كروادولهم الأولى من زنج تيمكو في القرن الحادى عشر الميلادى ولم يصل العرب في ذلك الحين إلى هذه المناطق كما أنهم لم يكتبوا عن هذه المنطقة المزرحين الأوائل الذين كتبوا عن الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا فهذا الرغم لا يقوم على

أساس ولا تستند فيه إلى روايات تاريخية حيث لا يوجد أى آثار مدونة عن التاريخ القديم لهذه الأجناس الا المتصور العلمى أما محاولة هذا الزعم فلا تستند على حجة علمية . إذا عرفنا أن هذه الأرض كانت أهله بالسكان قبل الميلاد ووجود الشكل على النيل والأرض اتى حواليه يثبت هذه الحقائق

النجور :

بذكر أهل البلاد أن الداجو أول من أسس دولة في منطقة دارفور وتلاه النجور ثم الفور . . وزعم ما كما بكل أنهم من النوبين ومن هؤلاء وأنهم هاجروا في بلاد النوبة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين واشتهروا هناك باسم النجور وأسسوا دولة لداجو في جنوب جبل مرة ، ثم بسط النجور سلطانهم على وادى غرب دارفور .

فأتى ذلك إلى إضعاف سلطانهم في دارفور خاصة ولذا انتزعت منهم أسرى من الفور تسمى أسرى دكيرا . . وأسست سلطنته دارفور من النجور جهاعات موزعة بين دارفور ، مرواي وكانم وبرنو :

ويبدو أن الذين جاءوا بهذه الآراء اعتمدوا على روايات في زمن متأخر من أناس لا يدركون معنى الرواية العلمية . . في حين يصعب إيجاد رواية علمية لأهل هذه المجموعات إلا فيما يخص بالنباة العربية أو النوبية التي أتت حديثاً إلى هذه الأرض . . ولكن هذه الأجناس هي التي عثرت على لاراضى دون أى وثائق خارجية كبيرة من النوبيين أو اللبيين وربما يمكن لكل تمييز كبير على هذه الأجناس أكثر من أى عنصر آخر . . ثم أتت معيد العلمى لا يمكن أن يهل إلى هذه النتيجة كما أنهم لم يحاولوا أن يتصوروا

أسلوب العمران الذى يحدث فى بدايه الحياه الحضاريه ولا أنف أمام القبائل فى قبيله واحده إلى عدة قبائل بسبب النشاجر والاختلافات العائليه والزعمه مما يدفع إلى أهل البيت الواحد إلى النزوح إلى أراضى جديدة لتكوين حياه جديده لهم فى خاق قبيله بمرور السنين بهذا الانقسام والانشقاق .

أثبرقو : من سكان وادى برنو ، انتقلت جماعات منهم إلى دارفور حيث عرفوا مع غيرهم من الجماعات الوافده من وادى بأسم المزارب ومعظمهم يسكن شرق ووسط دارفور .

السكرور : شعب من الزوج يسكن معظم وهاذ فى السنغالية ويعتبر شعبه منهم فيها بن التيجر وبحيرة تشاد ولا سيما فى سكوتو وربما يكون سكرور هى الاسم الذى كانت تعرف به فى وقت من الاوقات مدينة بالقرب من السنغال والحد السكة التى كانت عاصمتها هذه المدينة وموضعها الآن قوته السنغاليه ثم أطلق اسم سكرور على جميع بلاد السودان التى دخلها الإسلام وهى الممتد من المحيط الاطلسي إلى حدود وادى النيل وأصبحت كلمة سكرورى فى نظر العرب مرادفه لكلمة سودان .

الفريتيت اسمه أطلقه العرب على القبائل التى تسكن فى أقصى جنوب دارفور وشمال غرب بحر الغزال وفى إقليم وادى وزعم ما يكمل أنهم سكان جبل مره الاصليين وأزاحهم الداجو ثم التيجر والعرب من مواطنهم الاصليه فى جبل مره إلى الجنوب والفريتيت قبائل ستة منها رونجه وبنديلا ، وشت ، وبنجا وقرأوجيه .

البرقو : من سكان وادي وبرنو أنتقلت جماعات منهم إلى دارفور ، مع غيرهم من الجماعات القليلة الوافدة من وادي باسم الماراريت ومعظمهم يسكن شرق ووسط دارفور .

وفي هذا التعريف نظهر لنا القبائل التي حملت شتى الأشياء والتي انشقت بعضها البعض أو التي أمتزجت مع بعضها رغم اختلاف الاسماء في وسط أفريقيا من دارفور حتى التجور والسنغال . وهي قبائل الداجو والتيجور والتكرور والأنهار المتشابهة في طبيعتها ونباتاتها وحشائشها ومناخها .

ظلت هذه القبائل الزنجية صافية العنصر إلا من بعض الهجرات اللبينية والنوبيين والشكل ، التي ساعدت في تطور مدينته هذه الجماعات وظهور تلك الممالك حول جبل مره قبلي ظهور العرب المسلمين في أفريقيا ووضوح تلك الجماعات المحاوره بمنطقة بالهجرة .

وظهر العرب كما سبق كما هاجرين وفاتحين لظهور الإسلام في النصف الاول من القرن السابع الميلادي ودخول عمر بن العاص إلى مصر عام ٥٢١ هـ .

وقد انتشر العرب على طول شاطئ أفريقيا الشمالي في عصر بني أمية حتى جاء عام ٧٥٠ وسقطت دولة الأمويين لتبدأ دولة العباسيين . وهذا الانتصار للعباسيين على الأمويين بعد سنين من الحقد والتريص والكيده شحن النفوس والقبائل والانتصار بشتن المشاعر والكراهية السياسية التي غلبت على رسالة الدولة الإسلامية الحديثة وحتى قادت لتمزقها كما سنرى فيما بعد .

ويتخلب الدولة العباسية على الدولة الأموية في القرن الثامن الميلادي يمكن

أن نؤرج بدايه زحف القبائل العربيه عن الاراضى التى أحتلتها فى أفريقيا من قبل لتفسيح المجال لانتصار الدولة العباسيه ليحتلوا مكان تلك القبائل . هذا الزحف كان ثقله على الشاطئ الشمالى لأفريقيا ويدوا أن القبائل العربيه التى جاءت إلى مصر زمن الامويين لم تستقر فى مصر بالنسبة للحاجه العسكريه التى كانت تطامها الفتوحات الاسلاميه فى شمال افريقيا والاندلس لذا نلاحظ إن القبائل العربيه التى أستوطنت مصر لم يكن لها شأن حتى القرن الثامن الميلادى انما جاء ذلك بعدد القرن الثامن الميلادى واستلام العباسين للسلطه وبهم بدأ استيطان القبائل العربيه بأعداد كبيره فى مصر لان عصر الأمويين كان عصر فتوحات وانتصارات لم يسمح للقبائل العربيه صاحبة الدعوه بالراحه والاستجمام بل كان جنود الدعوه وسيوفها حيث أمتدت قوة الدولة الاسلاميه الامر الذى جعل أعدادا هائله من هذه القبائل تنتشر على شمال الشاطئ الأفريقى :

بانتصار العباسيين على الامويين بدأت حركة قلق عند القبائل المنساعرة للامويين وبدأت حركة التحرك من أراضى الدولة الجديدة .. وبدأ أبو العباس السفاح فى تعقبهم ومطاردة آخر ملك لهم وأرسل جنده خلف مروان بن ولحقه قائد جيش العباسيين عبدالله بن على بالشام تم طارده حتى جيوته من قريه بوسير بمصر ، وقتله وأرسل رأسه لعبدالله بن على العلى الذى بعث به إلى ابن العباس السفاح الذى كان ابتهاجه برؤيه رأس خصمه أمامه أن كر ساجدا لله وأنشد قول الشاعر :

لو يشربون دمي لم يروا شاربهم ولا دماؤهم لقيظ ترويني

وما فعله السفاح بضيف مجلسه سليمان بن هشام بن عبد الملك حينما اغتاط أحد أنصار العباسيين لوجود هذا الاموى بينهم انشد .

- ٣٠٨ -

لأينترك ما ترى من رجال ان تحت الضلوع دام دريا
فضم السيف وأرفع الدو طحى لا ترى فوق ظهرها أوبها

وهذا يكشف لنا المظهر الانتقامى الذى ساد على خلفاء العباسيين والحقه
المكجوب عند انصارهم للأمويين . الذين أذاقوا العلويين والله شمين من العذاب
والنكيل ، الامر الذى انعكس على سائر سياسته الدولة فى . مساملة جنودها
وأنصارها لعمال الدولة السابقة وأنصارها .

وقد عمل عبد الله بن على بالشام واجال بصدده من . فقد فأكثر القيود
وطارد الاحياء . . وأخرج اعظام من القيود وأسرها .

بنى أمية قد أنيت جمعكم فيكشف لى منهم بالاول الماضى
يطرب النفس أن النار تيممكم عوضتم من لافاشا شر مضاضى

هذا ما فعله العباسيين فى بديء الامر بالامويين حتى أحلوهم من أمارتهم
وهربوا الى الاندلس ولان من وجد الفرصة عند دولة الاندلس البعيدة عن
سيطرة العباسيين وهرب من الأعراب من هرب إلى داخل أفريقيا طابا
للاستقرار وضمانا لحياته .

رغم التماسك الظاهرى لذى بدأ على الدولة العباسية قبل أن تظهر دعاءة
العلويين وإنشقاقهم وتكوينهم دولة الفاطميين بالمغرب الاسر الذى زاد الحال
سؤا بالنسبة لأنصار الأمويين . فن كان العباسيون غلاظاً منهم وأكثر
حقداً ولشيعه دأتمور نائراً وحقداً على فتله آلة البيت .

وبقيام دولة الادارسة بالمغرب الافصى مناهرة الشيعة لإنهى عصر الأمويين
وافترقت الدولة العباسية ، ظهرت عوامل التناقض التي دفعت الجميع للقضاء
على حكم الأمويين واستلام السلطنة ونسيان آلة البيت في هذا الحق الذي جمع
العباسيون حوله العرب والفيس للقضاء على دولة الأمويين . . .

وفي نهاية القرن الثالث الهجري (العاشر الميلادي) ظهرت دولة الفاطميين
الشيعة بعد أن مهد لها الادارسة في المغرب الانهوى وزحف الفاطميون على
مصر عام ٩٧٠ م بقيادة جوهر الصقلي في عهد المهدي لدين الله وبني انقاه عاصمة
الدولة الفاطمية الجديدة معلناً بذلك قيام دولة شيعية قوية في أفريقيا منفصلة
عن كل نفوذ من أرض لرسالة الجزيرة العربية وبذلك أصبح العرب سادة شرق
أفريقيا وأصبحت الأرض مهددة لانصار الشيعة الذين كانوا يحولون بدولة
آلة البيت ، بصرة دعوتهم وعودة الحق إليهم ، قد تحققت على يد الفاطميين
تيمنا بفاطمة الزهراء . . . وانتقلت العاصمة من المدينة بالمغرب إلى أرض النيل
وكان قيام كل من الدولتين له أثر على دخول العرب على غرب أفريقيا وعلى
السودان الشالي كما سنرى فيما بعد .

ويبدو أن الاضطهاد السياسي بقيام دولة الادارسة بالمغرب أدى إلى هروب
أعداد هائلة من أنصار الأمويين إلى داخل أفريقيا حيث لا يوجد حاكم يساند
العباسيين يخشى من غدره ، رغم التوجه البعض إلى الاندلس . لكن الأعداد
الكبيرة التي وازنت الامور وجدت الامان المطلوب هو في هذه الأرض
الجنوبية وبذلك سارت القوافل داخل الصحراء والوديان والجبال وانتشرت
على غرب أفريقيا حتى وصلت السنغال والبيجر ووسط أفريقيا ، ووجدت
الطبيعية تلائم حياتها وطبيعتها البدوية فعاشت هذه القبائل العربية في سلام .
لم يقتل من عدوها عدو أو حرب ، وتكاثر عددها بمرور السنين حتى ظهرت في

عام ١١٠٠ م دولة تمكنتو المسلمة على نهر النيجر وحملت لواء الرسالة الجديدة بين هذه الشعوب التي لم تعيد آليها من قبل ودخلت الدين الاسلامي في يسر ومكنت للعرب والاسلام من أن يستقروا في وسط أفريقيا . . .

لاشك أن قيام دولة د تمكنتو ، لم يمكن قيام دولة اسلامية لها قوة القاهرة أو بغداد بل كان بدايه تكوين لخلق نظام للجماعات المسلمة التي تكاثرت على نهر النيجر . . . وولدت أول بذرة لدولة المسلمين بين الزنوج ولتغلب العنصر العربي على زنوج وسط أفريقيا والانصار فيهم . . .

ظهرت دولة تمكنتو وقبائل وسط أفريقيا تعيش بقانون القبالية ، وتطور بها الزمن حتى ظهرت دولة برنو وكانم ووداي ودارفير على نفس الخط المائتة وسط أفريقيا بدويلات صغيرة لم تعرف الاسلام في بدايتها ولم يستطيع العرب المتجهين إلى أفريقيا النجرو على سلب سلطنة تلك الدويلات أو التي عاشوا بجاورين لها أحسن جوار مسلمين محاولين الابتعاد والتحرش بهذه الجماعات قدر استطاعتهم . فهم في موقف لا يحسد عليه وأخبار دولة الفاطميين وبسط نفوذها على كل الطرق مازالت تصل اليهم وقفل طريق العودة لذا رفضوا الدخول في مشاحنات تضرهم إلى الالتجاء إلى أعداءهم الشيعة .

وبذلك كثر عدد الاعراب حول قبائل جملة مرة الآنية من ليبييا وعاشوا مع آبائهم ورعيهم على الوديان مبتعدين قدر المستطاع عن هذه الوديلات الزنجية وعمرزوا السهول الشالية . . .

وحيث لم تكن لهذه الدويلات سلطه واسعة تيج، بهم فلم يستطيعوا طرد

-- ٢١١ --

هؤلاء الاعراب ، حيث لم يفكر هؤلاء الاعراب في مضايقة هذه المجموعات في اراضيها ورزقها حيث كانت الارض واسعة لمجموعات أكبر ، وما زالت تلك السورول كافية لمجموعات أكبر ولاعداد هائلة من المهاجرين . . .

فقد أنتهت مشكلة النزاحم على الاراضى والقوت التى ربما لو وجدت لخلقت صراعا عنيقاً بين هذه القبائل المستوطنة وبين القبائل المقيمة حول الجبل والوديان والانهار . . .

وبذا ظهر العنصر العربى على حدود دارفور الشمالية ولم يذكر لنا التاريخ أى شىء عن العلاقات الاولية وأثر هؤلاء العرب على العناصر الزنجية التى تحكم دارفور . . . إلا روايه المعقود الذى يرجع اليه أسلام دولة دارقور وادخال الدم العرب على البيت المالك .

ظهر الاسلام فى منطقة دارفور وكردفان ، بظهور العرب على الحدود الشمالية على هاتين المدينتين ، وتوغلهم داخل هاتين المدينتين مما جعل السلاطين القائمين على شعوب هذه المناطق من المتأثرين بدين هؤلاء العرب وزعمائهم الذين أوجد علاقات مامع علماء القبائل السودانية .

وما تحكيه الروايات التاريخية أن السلطان سولنج هو وجد مؤسس سلطنة النور الإسلامية فقد إقتسم سليمان سولنج حكم كردفان ودارفور مع أخيه المسبح أخذ إقليم كردفان وأخذ هو إقليم دارفور وأن السلطان سليمان سولنج والذى تدعى بعض الروايات انه حفيد أحمد المعقور من بنى هلال الذى عقره أخيه فى طريقهم إلى المغرب ففر بعبيدة إلى دارفور وشارك بعلمه فى تنظيم سلطنته الفور حتى زوجه سلطان الفور من ابنته وبذلك دخل الدم العربى على الدم

الزونجى . ومع ذلك دخل الاسلام . وهذا التاريخ غير واضح المعالم وبداية هذه السلطنة غير مؤكد ، ولكن بدأ حب الروايات في القرن السادس عشر الميلادى لائن سليمان سولنج حفيد المعفور حكم سلطنة دارفور عام ١٦٤٠ ويرجع أن يكون بداية هذه الأسرة العربية الهلالية في آواخر القرن السادس عشر الميلادى وهذا التاريخ يمكن لنا أن نؤرخ دخول سلطنة دارفور تحت الأثر العربى الذى لا شك إن صحت رواية المعفور قد مهد له العرب المجارين لسلطين الفور منذ زمن بعيد حتى يجد المعفور الأرض بمهد ليكمل في خدمة سلطان الفور .

ويحكى عن سليمان سولنج أنه بدأ إصلاحات كثيرة على سلطنته وشن غارات عديدة بلغت ٣٣ غارة على العرب والقبائل لاختضاعها تحت طاعنه وقد حكم سلطنة دارفور من عام ١٦٤٠ م إلى ١٦٧٠ م في خلالها نظم شئون هذه السلطنة وأرسل قواعدها لتستمر في دارفور ، وتففتح المجال للقبائل العربية داخل إقليم دارفور وكردفان حتى تغلب عليها وتسيطر فيها بمرور الزمان

وبظهور السلطان سليمان سولنج يمكن أن نعتبر بداية سيطرة العرب على القبائل وسيادتها على أقاليم واسعة من إقليم دارفور وكردفان وسنعود إلى أثر هذا السلطان ودخول الاسلام في غرب السودان . . .

العرب في شرق السودان :

وبما يمكن قد تأخر دخول العرب إلى داخل السودان وظهورهم كوحدة متمسكة أو كمجموعات لها شأنها والاسلام كذلك شأن بوجودها إذا ادركنا أن تأسيس المملكة الاسلامية الكبيره تم في القرن السادس عشر الميلادي في سنار بين العبد لاب وعماره و نفس .

وإذا اردنا أن نقتبص تاريخ هذا الجزء من السودان فسنجد أن العلاقة في هذا الجانب الشرقي قديمة جدا إلى ما قبل الميلاد بالالف السنين . . . فلو وقفنا عند قصة اهل الفيل وملك الحبشة وهجومه على الكعبة بسود هدمها بالقبيلة وحدوث المعجزه وظهور الطير ورميه بحجارة من سجيل لاسقطعنا أن نتصور مكانة شعوب هذه المنطقة في القوة والمناعة حتى تحارب أن تنتم إلى الجزيرة العربية لنحتما . . لاشك ان هذه المنطقة بين الشاطئ الافريقي والشاطئ العربي اليميني كانت قديمه وأن الاتصال كان قائما وربما كان هو أهم اتصال تم بين هاتين المملكةين العربية والحبشية وهذا يؤكد قدم القبائل العربية التي سكنت الهضبة الحبشية والامارات الاسلامية التي عاشت داخل الدولة المسيحية والفراع الذي حدث بين المسيحية والاسلام واضعاهاد الاول للمسلمين الأمر الذي قاد لنزول كثير من هذه القبائل المسلمة العربية إلى داخل السودان ونشره بين قبائل النيل الازرق ومنحدرات جبال البحر الاحمر والهضبة الحبشية .

فقد ظهرت على هذه المنطقة أرل دولة إسلامية في السودان لها كيائها العربي على البحر الاحمر عند مدينة سواكن . وهي مملكة « البالو » . لهذه المنطقة

— ٢١٤ —

التجارية الهامة من قدم فقد نشأت قبل مملكة اليبالو دولة وثنية لم تتأثر بالمسيحية التي تنشر على الحضبة الحبشية يؤكد هذا تاريخ اريزيا . . . ويبدو أن انتشار نفوذ العرب والمسلمين على العالم وانفصال الكنيسة الحبشية جعل هذه المنطقة مفتوحة للمسلمين ونشر دعوتهم . . .

ظهرت مملكة البلاد الاسلامية في القرن الرابع عشر الميلادي لتحل محل المملكة الحبشية التي عاشت في هذه المنطقة وهذا يؤيده وثنية الهند نوره وعدم عبادتهم لدين .

فقد واجهت هذه المنطقة اندفاعاً عربياً من ثلاث جهات من جهة الشمال من العرب الوافدين على أرض المعدن للعمل والتعدين حتى تسربوا إلى داخل أرض البطانة والنيال ومن جهة البحر للعلاقات التجارية التي كانت رائجة بين منتجات السودان والجزيرة العربية وآسيا والاثار الخزفية التي وجدت عند ميناء عيذاب أخيراً كشفت عن اتصال هذه المنطقة بمنتجات وصناعات آسيا والصين . . . ومكانة هذه المنطقة

والفخار الثمين الذي وجد في الحفريات الأخيرة كشف غناء هذه المنطقة ورواج تجارتها لان الفخار الذي وجد كان غالي الثمن من اجود أنواع الفخار الذي كان يستعمله اغنياء القوم .

فقد عرفت ميناء عيذاب منذ القدم وجاءت المكتب العربية القديمة مؤرخين العرب وكانت ميناء تجاريا هاما .

ثم واجهه هذه المنطقة نزوح القبائل العربية من بني عامر من أرض الحبشة من الجنوب الشرقى حاصدة البجة بين التلال والوديان فاتحين أبواب التأثير على سكان المناطق الاصلية في ثلاث جهات .

دخول الاسلام في المنطقة الشرقية :

لو قدرنا مكانة شرق السودان وربطه بالحضارة العربية والآسيوية وحضارة البحر الابيض المتوسط لاستعطينا أن نتصور دور هذه المنطقة في نشر الثقافات المختلفة على هذه المنطقة العريقة في المدنية وال عمران .

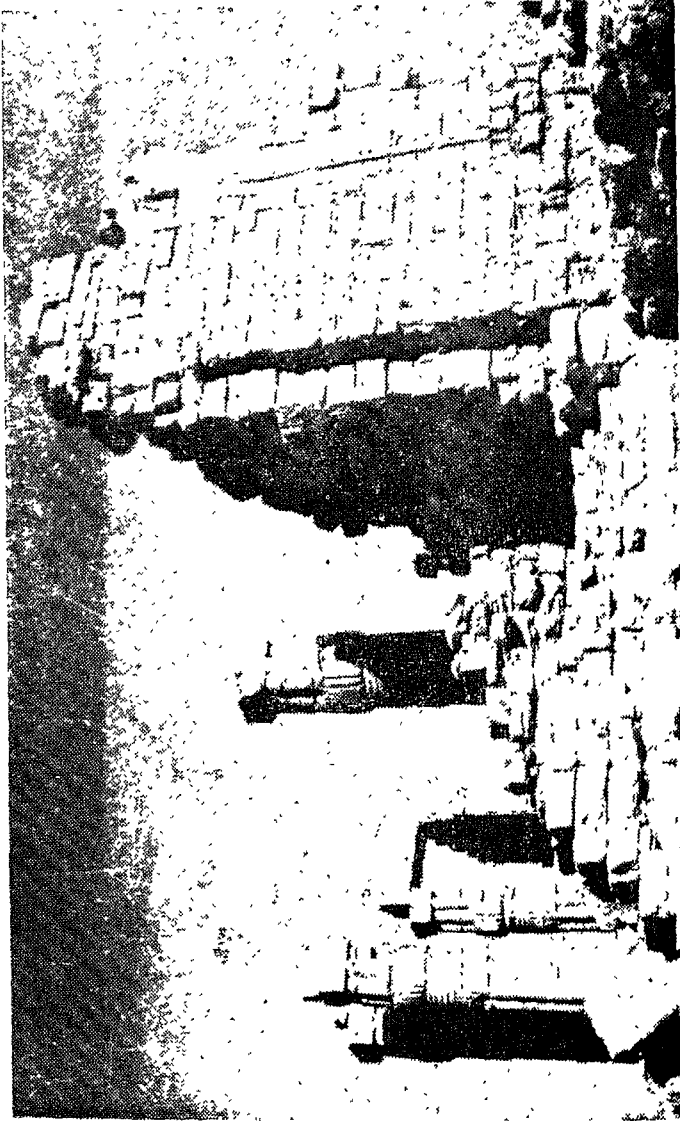
فقد عرفت التجارة بين العرب وبلاد آسيا وأفريقيا من عصور قديمة في الجاهلية العربية وغناء أفريقيا بخيراتها وغناء بلاد آسيا ورواج هذه التجارة ونشاط العرب في نشاط هذه التجار ونقلها عبر البحر والسهول من شمال الجزيرة العربية والبحر الابيض المتوسط إلى أفريقيا وإلى الهند والصين ورواج منتجات هذه المناطق فيما بينهما منذ .. عصر قديم وقيام العلاقات التجارية بين شعوب هذه القارات وأثر هذه التجارة في حضارة كل منطقة من هذه المناطق ...

لو أدركنا حيوية هذه المنطقة التي خاقتها حركة التجارة وإذا أضفنا إلى ذلك موقع مكة والمدينة وقرب أسوان وعينذاب من أرض الرسالة وما يحدثه موسم الحج من حركة ورواج للتجارة برجه عام واستغلال سكان شرق السودان لهذا الموسم وحاجته للبضائع والمأكولات ورواج المصنوعات شعوب كثيرة وموقع عينذاب وسراكن كمنفذ لشكان هذه القارة المسلمين بعد أن انتشر العرب على

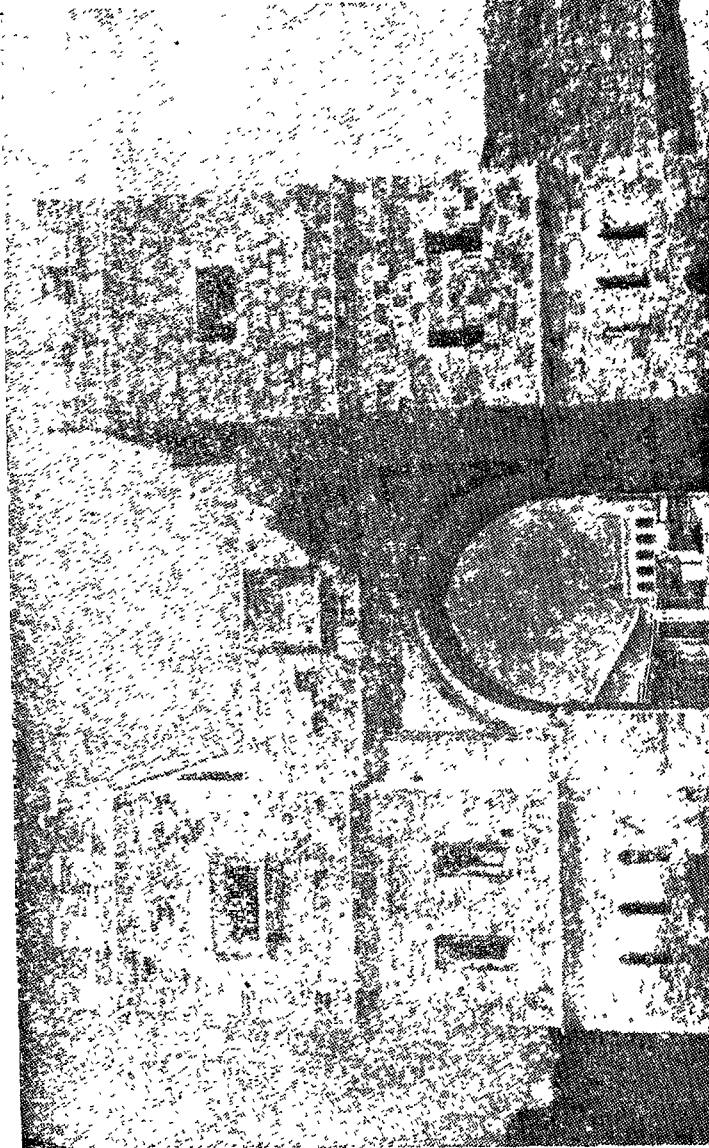
أرض أفريقيا لاستيطاننا أن نترك استجابة هذه المذلة وسكانها لثقافة العرب
والمسلمين وما يفرضه رسم موسم الحج من رواج للدعوة الإسلامية وتشيط
للثقافة الإسلامية وعدم تأثر هذه المنطقة بالدعوات الصوفية التي جاءت من
المغرب والعراق إلا بعد ظهور الدعوة الوهابية في الجزيرة العربية في القرن الثامن
عشر الميلادي . . . وأرمع السيد محمد عثمان الميرغني في القرن التاسع عشر
مبعوثاً لها للسودان ليعمل لمحاولة الشعوذة من الدين التي انتشرت بين الطرق
الصوفية وأقامه مبعوث الوهابيين بالسودان بعد أن جلبه السودان وكون له
أنصار . . . بنى عليهم دعوته كما سيحيى فيها بعد للحديث عن الصوفية ودخولها
للسودان . . .

حركة التجارة النشطة على ساحل البحر الأحمر وقرب مكة والمدينة وحركة
المسلمين في البحر الأحمر بكثرة بنشر الثقافة العربية والإسلامية على هذا
الشاطئ وهذا تكشفه مبانى سواكس وحفريات عياب . . . أما كلما بعدنا
عن الشاطئ وتجاوزنا تلال البحر الأحمر للقبائل البيجاوية والعرب الذين
تزوخوا من الشمال نجد فرقاً كبيراً في الجو الثماني والمضاري وبعد هذه القبائل
البدوية تلي حركة العالم والشعوب وبعدها عن منبر الدعوة ونشاط المسلمين
ولذا يمكن أن نقول أن عيذاب وسواكن وسكان شاطئ البحر الأحمر الذين
يشاركون في التجارة والعمل بالشاطئ واتصالهم بحركة التجاره . . . والمهاج
قد أوجدوا ثقافة عربية وإسلامية قريبة من الدعوة الأصاية ومواكبة للثقافة
والحضارة العربية . . . وكانت مركزاً لنقل الثقافة العربية لداخل السودان
عن طرق القوافل التجارية ومواسم الحج لانه حركة التنقل بين الاقاليم
كانت معدومة كلية وأغراض السف خارج حدود القبيلة أو الاقاليم كان
أمراً شاداً .

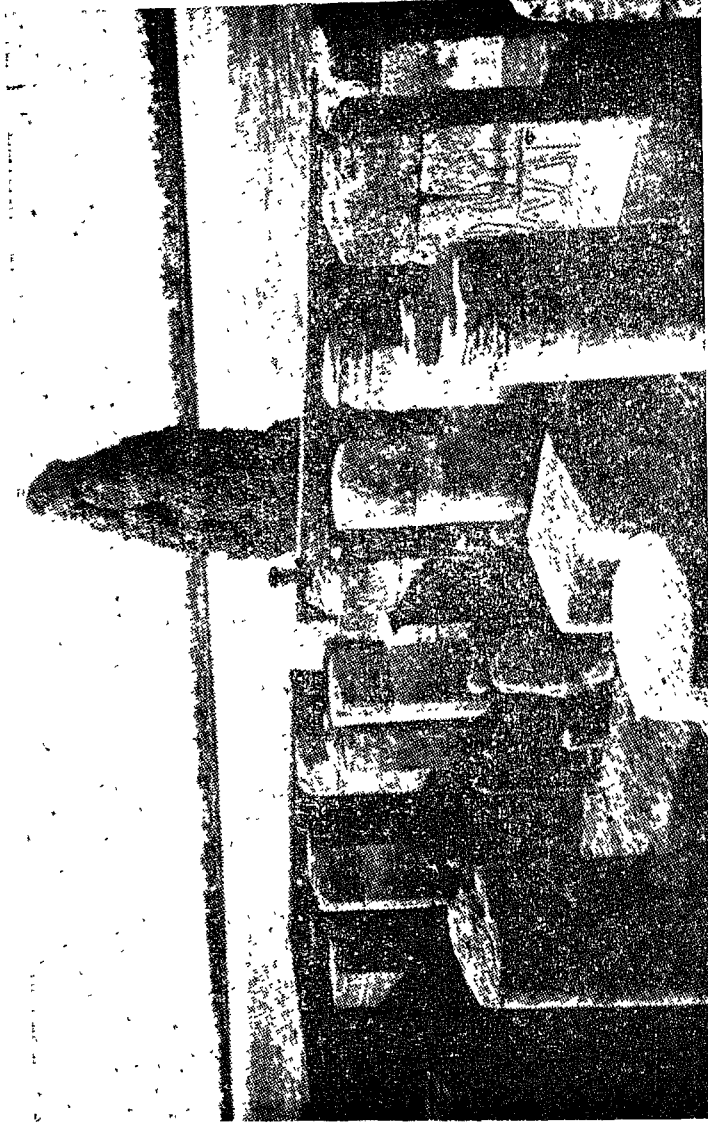
— ٢١٧ —



بقايا آثار معبد صلب من القرن الخامس عشر قبل الميلاد



العين العربي ظهر واضحا على شرق السودان والبحر الاحمر .
وبقايا بوابة سواكن مازالت شاهداً على تقلب الحضارة العربية على شرق السودان .

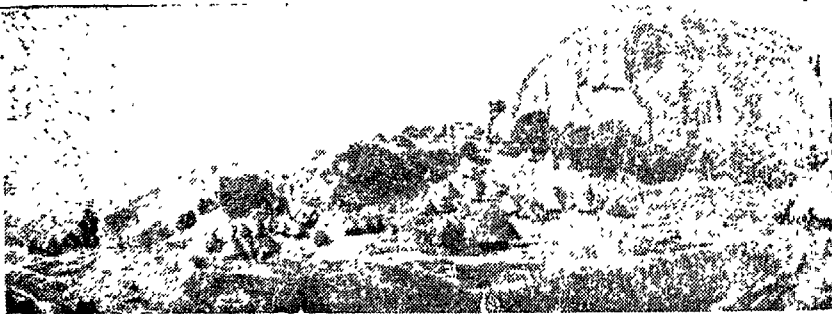


بقايا اثار معبد بوهين أختفي من سطح الأرض
ومازلنا ننتظر المزيد من الاكتشافات الجديدة لتضيف شيئا الى تاريخنا القديم.

— ٢٢٣ —



السوق . . . بأرض الجزيرة يكشف عن حاجة الانسان للتعامل مع الغير
وتبادل الخيرات . . . وللنساء دور هام في البيع والشراء



دار الفونج شرق ارض الجزيرة
شارك سكان الفونج في ساطنة سنار في نهاية اقرن الخامس عشر الميلادى .

فالقوافل النجارية التي تسري بين وسط السودان من بربر وشندي والشرق
والشمال والغرب والجنوب كانت مستمرة منذ القدم وكانت هي
الوسيلة الوحيدة لنقل التجارة والحضارات الأجنبية . . . وكانت هذه القوافل
لم تستطع بالكثير حتى تخلف التأثير العظيم بل كانت تسافر مرّة في الشهر أو أكثر
من هذه المدة في مجموعات كبيرة مختلفة من نجار الجهات المختلفة لان
كان في تجمعهم قافلة واحدة خوفاً من قطاع الطرق .. وأحوال الطرق البرية
الموحشة وصعوبة السفر بالابل هذه المسافات الطويلة وخوف المجموعات الصغيرة
من طمع القبائل المنتشرة على هذه السهول التي كانت لا تعرف إلا قانون الانوى .

* * * * *

ظروف الخارجية التي ساعدت على ركود السودان:

بعد القرن السابع الميلادي وظهور العرب في أفريقيا، ظهرت الممتعة بين المسلمين ومحاولة معاوية للاستلام السلطة من آل البيت ، وظهور الخوارج في هذا النزاع ضد الطرفين حتى نجا معاوية من خطة اغتيالهم المدبرة وأعلى السلطة ومنذ ذلك التاريخ أخذت الدولة الإسلامية طابعاً آخر غير الطابع الذي عرفته في عهد الخلفاء الراشدين الذين آمنوا بما دعا الشورى وأن يرى المسلمون من مصالحهم .

قامت دولة الأمويين بن سخط آل البيت وبين معارض الخوارج والمنشق نصف العرب إلى الأمام ، وتقسمت الوحدة العربية إلى مذاهب . واستعمل معاوية كل القوة ليدخل نفوذه على دولة المسلمين وفتر حانها . وقد كانت مهمته أعسر مهمة رابعه الرئيس دولة واناء سيف الإسلام على ابن أبي طالب رضى الله عنهم ما زالوا يمدون يديهم لقلبهم ، يدفعونهم لطالب السلطة والتمرد على معاوية وظهور حزب الشيعة من جراء هذه المقاومة لحكم الأمويين ، ولكن نجاح معاوية في إدارة دولته جعله أقوى من تحركات خصومه ، حتى انتهى الحكم لابنه يزيد الذي في عهده قوى حزب الشيعة وظهرت بوادر الصدام بينه وبين دولة يزيد بن معاوية . ولمستنكر يزيد هذا التمرد وعمل سيفه المجرم في ذرية سيدنا علي بن أبي طالب رضى الله عنه ولم تنتشر الكراهية السرية لحكم الأمويين ونمركزت في الكوفة والبصرة ، أي شمال الجزيرة العربية . وظلت هذه الكراهية تعمل ، : وهذه العداوة السياسية لحكم الأمويين لتتجمع حتى استطاع العباسيون أن يجمعوا ضد الأمويين كل العرب الكارهين لذلك

الحكم حتى استطاعوا في عام ١٣٢ هـ من دحر الامويين من السلطة.

لم يستلم السفاح سلطة العباسية بعدد الامويين منبياً حكمهم يساهم العلويين والقهرس . وظل العرب العلويين ينتظرون من العباسيين إنشاء عهدهم أن يظهروا الحق لأهله . فند قام العباسيون المناصرة الشيعة العلويين لامتداد حتمهم . ولا يمكن العباسيون تفكروا لهذا الحق بعد أن جربوا حوهم كل المعارضين لدولة الامويين وظهر الخلاف بذلك عند ظهور دولة العباسيين وانفراطها بالسلطة . انعزل عنها انصار الدولة الشيعية فلا هي قادرة على عزهم وهم منها وهي مهم أبناء أسرة واحدة . وظل الخلاف باقيا . وقامت الدولة العباسية الجديدة لتتحدى مسؤوليتها الكبيرة وتعتبر الدولة الاسلامية التي وسعها الخلفاء الراشدين وكملها بنو أمية . . .

وكانت فسطاط مصر أول عاصمة اليهم انضمت اليهم ، وهرب العرب الامويين إلى الاندلس رغم أن مددهم في مصر لم يكن بالكثرة التي تصورها فتد كانت ساحة الفتوحات ، واستتاب الامن في أطراف الدولة الاسلامية حتى الاندلس تفرض على كل عربي وأمرى أن يذهب حيث ذهب نفوذ الدولة الاسلامية وبذلك ازدحم العرب في شام إفريقيا وعند ظهور دولة العباسيين خابت هذه البائل المناصرة الامويين من بطان العباسيين الذين ذاقوا المذاب في عهد الامويين . هربت العرب المناصرة للامويين إلى الاندلس يهرب الجزء الأكبر داخل افرقيا وأوسطها حتى كان القرن الحادى عشر وأج. ودوله عرييه إسلاميه في تب. كنو على نهر النيجر . وأنشروا في مالي والسنغال وسهول السودان الغربي عن طريق ليبيا وأقنعوا بالمدى والجاه السليم في هذه الاراضى الجديدة .

اما بالنسبة للهجرة للسودان فام يؤثر هذا التغيير كثير ولم يجد من القبائل الهاربة نفس العدد الذى كان في شمال افريقيا الا أنه كان بدايه زحف هؤلاء العرب الامويين الذين تخافوا لاذ لم يستطيعوا العرب مع جماعتهم إلى شمال إفريقيا وغربها اضطروا إلى الهروب داخل السودان .

وكانت مصر للعباسيين في عام ٧٥١ م والدويلات المسيحية في السودان ما زالت عاجزه عن عمل أى شىء فهي خائفة تترقب هجوم المسلمين عليها وهي ليس بالقوة لترد هذا الهجوم وليس بالعلم وح حتى تتمكن من طرد العرب من مصر فأقتنع ملوك دقله وعلوه بكراسى الملك ، محاربن قدر المستطاع إن لا يتبروا المشاكل بينهم وبين هذه الدوش الاسلاميه القويه .

وكان المسيحيه في السودان قد انفصلت عن مركزها في الاسكندرية وفنت بالتعاليم الاولى التي وصلت إليها حين انتشار الكنائس الاول بالسودان .

وهذا أن وفي السفاح عمه صالح بن على ، على مصر عزله ليولىه على فلسطين ثم عاد وولاه على مصر والمغرب مرة أخرى . وفي عام ٧٨١ م أخرج (وصيه) بن المصعب الاموى في الصعيد عن طاعة العباسيين حيث كانت إسوان مركزاً هاماً للتجارة والتجمع . وتجمع حول وحين عاهه الصعيد ولم يستطيع إبراهيم بن صالح العباسى إلى مصر أن يفعل شيئاً معه وقويت شوكتة وحيه في جنوب مصر ولم يستطيع جيش موسى بن مصعب وأسامة بن عمرو على شىء مع هذا الخارج على سلطة وإلى مصر . فتمد لقيت جيوشهم الهزائم من وحيه بن المصعب وأنصاره من الأمويين وأهل الصعيد .

وظل جنوب مصر متمرداً على مصر حتى عهد الهادى بن المهدي موسى فولى

على مصر الفضل بن صالح (عام ٧٨٦ هـ) فجرد جيشاً وانتصر على وحيه في جنوب مصر وقاده إلى الفسطاط . وهرب الأعراب التي كانت تناصر وحيه في المعصب إلى داخل السودان وإلى أرض المعدن طالبه المسامون والعامل والعيش وهي أول مجموعة كبيرة تدخل السودان .

وفي عام ٨٥٤ م ٢٣٢ هـ امتنع ملك دنقلة والنوبة المسيحية عن دفع الجزية المقرره لوالى مصر . وهزمها الجنود المصريين عند جبل الزمود وأغاروا على صعيد مصر ونهبوا مدينه إسنا وقنا وادفو وذلك في عهد ولايه عبسه بن اسحاق على مصر . . وجوز عبسه لملك دنقلة والنوبة جيشاً مكوناً من سبعه ائف محارب وشحن المراكب بالمؤن والأسلحة لمحاربه ملك دنقلة . . وقطع الجيش سهول مناجم الزمود إلى دنقلة . . وحين إقترب جيش عبسه من دنقلة ورآه أهل دنقلة أسلحته وعاده خافوا منه وأدركوا لمنهم هالكون أن استنصروا في معه . . . واحتتموا بالجبل وحاولوا جر الجيش حتى تنفث مؤننه ، وإذا هم في حالهم تلك ظهرت على أنيل مراكب دعيس بالمؤن والأسلحة وكان على دنقلة ملك يدعى « على بابا » فصار يحارب المراكب محاولاً أغراقها . . وإذا بجيش دعيس هجم على جبوش على بابا الكثرية العدد من الأبل والرجال . وحين سمعت الجبال صوت الاجراس التي أطلقها جيش دعيس اضطربت الجبال ولم يستطع جيش على بابا طمسود وانهمز على بابا وأسر وسبق قائد الجيش الذى اكـمه وعقد الصلاح مره أخرى معه على أن يدفع متأخرات الجزيه التي عليه .

وكان دعيس آخر الملوك العرب على مصر ثم اضطرب الحال وصار ينزولها كل مغامر وراغب فى السلطه حتى أصبحت مصر ولايه طرلونه للسلطان احمد أبى طولون (٨٧٠ — ٨٨٤ هـ) وفي عيدهم أفتش العلم والنظام مصر .

وفي هذا العصر ظهرت شكل الدويلات الإسلامية داخل الدولة الإسلامية
الكبرى في الاندلس ما زال الأمويون يحكمونها . . وفي المغرب ظهرت حركة
الفاطميين تطالب بحق العرب والمسلمين ومصر أصبحت في يد الطولونيين وبانت بغداد
في السلطة العباسية الحقيقية . وإنتهت مقارعة ملوك دنقلة لأهل صعيد مصر .
وخضعوا للأتراك بدفع الجزية في حين كانت تستقبل أرض المعدن العرب
الهاربين من بطش ولاية مصر ، وقد كان السودان هو المأوى الوحيد لديهم
حيث لاساطه لوالى مصر على السودان ولارقيب بينهم ولاعين ترصدتهم .

وحالة الحكم في مصر والعالم الإسلامي تكشف لنا التفكك الذي بدأ يدخل
إلى جسد إلى هذه الدولة العظيمة إذا لم يستمر الحال لحزب سياسي معين أولئك
معلوم بنهر ديمكم المسلمين . وهذه مصر تعرض لعدد هائل من الأحكام الاحزاب
حكمتها الأمويين ثم جاء العباسيون ثم جاء الطولونيون وبعدهم سادات الدولة
العباسية مرة أخرى من ٩٠٥ إلى ٩٣٥ ولم يستمر الحال للدولة العباسية إذ
ظهرت دولة الاخشيد بين عام ٩٣٠ م إلى ٩٦٩ التي في عهدها قام الملك النوبة في
فوزه حكم أبو الحسن علي بن محمد الاخشيدى — وغزاه مصر حتى بلده أخميم
فوجه اليه كافور جيشاً عظيماً بالبحر والماء وحاصر ملك النوبة . حتى اضطره
إلى الهروب وانزعم جيش النوبة وفرق جيشه حتى كان عهد أبو المسك كافور
٩٦٥ هـ — ٩٦٩ هـ ثم تولى الحكم بعد ذلك أبو الفوارس وانتهى بذلك عهد
الاششيدى على مصر .

خلال فترة الحكم الإسلامي على مصر نلاحظ اضطراب الحالة فيها وتعدد
الحكام عليها . كما نلاحظ كثرة الاجانب وعدم ظهور ملوك من المصريين المسلمين
عليها ، حتى كان عهد كثير عدد الحكم الاجانب من دون العرب الامر الذى

يكشف لنا ضعف شوكة العرب في مصر وعدم اتاحت الفرصه للمجتمع العربى لينشبع بالروح العربية الاسلامية فى جزاء هذا التغيير السريع ولإختلاف الحكم وكثرة
• ظالم بعضهم وثورات الصعيد عليهم •

هذه الاضطرابات لم يتمكن الدين الجديد من الانتشار فى الديار المصرية؛
وإنتشار علومه وثقافته العرب من جراء هذا الجور السياسى المضطرب • حتى
نستطيع أن نقول أن المصيرين وحدهم كانوا كفيلين بنقل الثقافة الإسلامية العربية
إلى جسيمهم من السودانيين فالرسالة ما زالت تحمل عبأها النبيل العربية التى
اختلفت فى ذلك العصر عن العرب المجاهدين الأرائل والذين بشروا الاسلام
بروح عالية •

وما نود أن نشير اليه هنا هو أن الدعوة الإسلامية المخلصه لله ورسوله صلى الله
عليه وسلم وعن الخلفاء الراشدين كانت دعوة للدين ونشر هذه الدعوة حتى
دانت لهم الشعوب والقارات وعملوا على توصيل نعاليم هذه الدعوة عن طريق
قوانينهم ورسائلهم لذكاء الحواس للدين الاسلامى فى عهد الرواد الأوائل فى
ذروتهم ، ولم يقع أى إحتلاف بين خلفاء المسلمين رضى الله عنهم إلا بعد أن دخلت
الدولة الإسلامية فى صراع الجماعات المنسابقة على الحكم • هنا بأخذ الصراع
لونا آخرأ وأصبح النسابق لا انشر الدعوة بل إلى مطاردته المعارضين والخوارج
الامر الذى إقضى أن تصبح الدولة عسكرية إلى حدهما • • وأن تفكر فى المقام
الأول فى تقوية جيشها وذلك لتقضى على الفتن التى شيعت فى جميع أنحاء الدولة
الإسلامية فى داخل الجزيرة العربية بين الحكم وانفسهم والموالين لديهم وبين
المعارضين لهم وبين ولايتهم على الأقاليم التى بسطوا نفوذهم عايمها

رغم وصول الثقافة العربية وصلت إلى ذروتها في عهد العباسيين من ترجمة علوم الشعوب الأخرى وتوسيع دائرة المعارف العربية ونقل مؤلفات الإغريق والرومان والفرس إلى اللغة العربية . إلا أن هذا كان لا يتمدى العواصم الإسلامية كـ بغداد وحلب والكوفة والبصرة أما البسطاط فقد نشطت فيها حركة العلم في عهد أحمد بن طولون ، ثم جاءت الفتن لتوقف هذا النشاط وتعطيل حركة إنقاذه لبقية الديار المصرية .

كما إن ظهور دولة المماليك في المغرب وإنشأ قهيم في تفسير الدين والدعوة للشيعه جعل هؤلاء العرب البسطاء وأهل البلاد المسلمه في بابه فكربه من أمر هؤلاء وهم ليسوا في حالة تسمح لهم بالقطع في هذا الخلاف ، الأمر الذي فتح الباب لكثير من الآراء الخاطئة لتنتشر بينهم ونحن نعرف إذ أختلفت وحدته الفكر لدعوة دينيه ما ماذا يحدث لرعاياها البسطاء حين يصبحون خاضعين لكل الأصوات ويتلقون كل الأفكار ويفسحون المجال لظهور الأفكار الغريبه والمذاهب الجديدة الأمر الذي قاد لظهور عدد كبير من رجال الطرق الصوفيه كل يدعو لمرقبته الخاصه في العباده حتى تعددت المذاهب الصوفيه في المغرب والجزيره العربيه وانتشرت بسرعة بين عامة الناس حتى أوقعتهم في شرك كبير وقد رفع خضوعهم الكامل لرجال الصوفيه من شأن هؤلاء الرجال من الصوفيه ، الذين شغلوا الناس بذكرهم دون عبادة الله ورسوله ، وأصبحوا هم المثل الأعلى بدلًا من الرسول صلى الله عليه وسلم وباتوا هم القدوة في العباده بدل الرسول صلعم وخلفاءه الراشدين .

الفاطمون في مصر :

قامت الدولة الفاطميه بالمغرب عام (٩١٠ م - ٢٩٧ هـ) فاستولت على

شمال أفريقيا . وبسطوا خلافتهم عليها . في حين ما زال خليفة المسلمين يقيم في بغداد . بحوزهم خليفة الامويين دلي الاندلس .

وبدعى الفاطميون أنهم ينتسبون إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول (صالح) وإلى العلويين . وقد قامت دولتهم ضد إبناء عمومتهم أبناء العباسيين الذين اتفردوا بالخلافة دون العلويين الذين هم أحق بالخلافة في نظرهم ، وفي هذا الخلاف بين آل البيت وأبناء عمومتهم ظهرت إهتيا كثيره بين المسلمين ، ومحاولتهم الاجتهاد في ما لا مجال للاجتهاد فيه ومحاولتهم الوصول الى من هم أحق الناس بخلافة المسلمين .

حاول أبو محمد عميد الله المهدي مؤسس دولة العبيدين الفاطمية بالمغرب . . . في حياته ضم مصر إلى العبيديين ، إلا أنه لم يوفق وتم ذلك في عهد خلفه المعز لدين الله (٩٥٣ - ٩٧٥ م) ورأى ما كانت عليه مصر من فتن فيجرد جيشا عظيما بقيادة جوهر الصقلي الذي تمكن من فتح مصر عام ٩٦٩ م) وأقام خارج مدينة الفسطاط حيث عزم بناء مدينة القاهرة الحالية . ثم بناء جامع القاهرة . وهو جامع الأزهر الحالي وبعث جوهر للمعز لدين الله باخبار النصر . وأتت دولة العبيدين بعد ذلك من المهدية بالمغرب إلى اتقاهه بمصر .

وأقام الناطميون العدل في مصر وأداروا شئونها أحسن إداره بعد أن ذاق الناس ظلم الحكام المعتدين من جراء الحروب الكثيره التي كان وبالها على الناس البسطاء ودافعى الضرائب الذين يمولون الحروب بالمال والجنود :

وأول عمل قام به جوهر الصقلي لنشر الاسلام خارج حدود أرسال مندوب إلى جورجيس ملك دنقله يسأله الدخول في الاسلام وإيقاف الكافة عنه إلا

ملك النوبة رفض الاسلام وفضل دفع الجزية . وهذا يكشف لنا أن المسيحية ما زالت منيعه ذات أرض صلبه في السودان حتى القرن العاشر الميلادى وان رواد الدين الاسلامى لم يتوغلوا بين جماهير هذه الممالك الشماليه حتى يهدوا لمثل هذه الدعوه المسالمه .

وفي عصر الفاطميين على مصر بدأت القبائل العربيه المواليه للعباسيين في النزوح عن مصر إلى داخل السودان وبدأت الهجره الكبيره إلى أراضي السودان نسبه للعداوه التي نشبت بين العلويين والعباسيين . وأمثلاً صعيد مصر وأرض المعدن وضاف النيل بالعرب الممارين الذين لا خوف منهم على سكان السودان . ولاخوف عليهم من سكان السودان . فقد كانوا مسلمين هارين ينشدون المأموى ، كما أن العهد الذى قطعه ملوك دنقله على أنفسهم بههم تعرضهم للعرب المسلمين كان بضمن هؤلاء الخارجين عدم ايدائهم من ملك دنقله وصاروا أعوانا وعيونا للملك دنقله ضد ولى مصر .

وفي عهد الدوله الفاطميه ظهر بعض النفوذ والمكانه للسودانيه في مصر وذلك لأن أم المستنصر (١٠٢٦ — ١٠٩٤ م) . كانت جاريه سوداء ذات ذكاء وتجاوب . استغلت ضعف إنزها وظفت السودانين في الدوله في المناصب الكبيره ليكونوا لها قوة وباتت ذات نفوذ وسيطره على شئون الدوله حتى قويت شوكتهم وقد بلغت قوة السودانين لطرد الانراك من مصر والاستيلاء على الساطه حتى تمكنوا من وطردهم إلى صعيد مصر الامر الذى مهداً لاستمرار صعيد مصر في عصيانه على وإلى مصر وعدم خضوعه تحت سيطرته سيطرته كامله واستمرار عدم أستقرار صعيد مصر وخضوعه لسلطة السعاط او القاهرة بما جعل السودان بعيدا عن يد ولأه مصر فلو كان صعيد مصر تحت يدهم وسيطرتهم الكامله لكان استغلوه لفتح السودان وضمه إلى مصر الا إن صعيد مصر نفسه

كان مشكلة ومصدر قلق اليهم وبذلك كان توسيع حدود هذا الصعيد إلى الجنوب فيه مخاطر ومساعدته لماهاري الصعيد أن ينفردوا بسلطه جنوب مصر والأراضي الجديدة .

أخذت العلوم والآداب تنتشر في عهد الفاطميين بإنشاء جامع القاهرة (الازهر) والإشراف عليه وتشجيع العلوم حتى اضطرت الأحرار بعد ذلك محاقاً لضيق ذلك المجهود إذا أحرقت الكتب وأستعملت في أغراض كثيرة في عهد المجاعة التي جاءت في عهد المستنصر .

ظل السودان حتى الآن بعيداً عن النفوذ الإسلامي والعربي لانشغال الولاة المسلمين في أنفسهم وتأمين سلطتهم من الغاضبين ، ومطامع الانقسامات الكثيرة التي إنتهت اليها الدولة الإسلامية الكبيرة .

ولم تظهر على السودان حتى ذلك الحين أى مؤثرات عربية أو إسلامية حقيقية الا ظهور بعض العرب الهاربين بجوار النيل وأرض المعدن وعند البحر الأحمر .

وأنتهى الحكم الفاطمي في مصر بعد فتن وحروب داخلية وهجمات حسب طبعه ذلك العصر وتعدد الإمارات وتعدد الأساليب للوصول إلى السلطة حتى جاء عهد الدولة الأيوبية عام ١١٧١ م بزعامه صلاح الدين الأيوبي الذي عهد سير جيشاً بقيادة أخيه سيف الدولة توران شاه إلى النوبة لتأديبها على تمرداها ومناوشاتها ، فسبأها وعاد بثقلاً بالغنائم والمسفر .

إلا إن الظروف لم تمنح لصلاح الدين للتفكير في فتح السودان الشمالى وضمه

إليه أو فرض الإسلام عليه وذلك الانشغال بالحروب الصليبية التي كرس لها كله جهده لابعاد الفرنج من البلاد العربية وأرض المقدس . إلى أن توفاه الأجل والصليبيين مازالوا يواصلون حملاتهم على العرب حتى انتهت دولة الأيوبيين عام ١٢٥٠ م بعد أن دخل الوهن على المملكة الأيوبية وتكالب الاخوان والاقارب على الحكم كما كان سارياً في ذلك العصر وما يدخل في هذا الصراع من وسائل ومكر حتى سقطت مصر في يد المماليك البحرية عام (١٢٥٠) إلى ١٣٨٢م وهم من الرقيق الذين أكثر منهم السلطان الصالح نجم الدين أيوب من أسواق الجركس ومنغوليا والقوقاز لمساندته وقد أخلصوا له في حياته حتى كثر عددهم وعلى شأنهم وتظلموا إلى السلطة ووصلوا إليها بعد أن خبروا لمورهم وأسرارهم وظهر التز على حدود سوريا في عهد المماليك الذين تصدروا لهم وافقوا زحفهم على مصر في عهد السلطان الظاهر ركن الدين والدنيا يبرس البندقدارى (١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) الذي في آخر عهده فتح بلاد النوبة وسواكن وأضعف مملكته ونقله الشمالية وفتح للعرب الطريق لدخول السودان . وجعل للذين سبقوه مكانه فيها حتى أشقت ساعدتهم وكثرت عددهم على النيل وسهول السودان الفسيحة.

وقد كان ملك النوبة يمتنر دائماً فرصة انشغال وإلى مصر بالحروب مع الصليبيين أو غرهم في الشمال ويرى أبعاد جيوش المسلمين عن مصر ويمتنع عن دفع الجزية . . . وهو لا يدري أن إيقاف دفع الجزية يعنى في مفهوم الحرب إيقاف الامتدادات عن الجنود انخاريين ولذلك كانت ترسل اليه الجيوش لتأديبه وإعادة الموقوف من الجزية وتحصيل المطلوب منه فوراً وقد حاول هذه المرة في عهد المنصور سيف الدين فلادون الالف (١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) وأمتنع عن الجزية حين شعر بانشغال المنصور بمحاربة التتر في أرض الفرات وحلب . إلا أن الالف جرد عليه حملتين في عام ١٢٨٨ م و ١٢٨٩ م . . . وعادت

الحملات بالجزيرة الموقوفة والغنائم والسبايا وخضع ملك دنقلة مرة أخرى لدفع الجزية ولم يفرض عليه الإسلام وإنما ترك في ديارته الميحية التي باتت راعية بعد انتشار العرب بين النوبة على ضفاف النيل .

وقد ظل ملك دنقلة والنوبة يمارس هذه الوسيلة كلما شعر بضد ملك مصر حيث كانت هذه الجزيرة عقاباً صارقاً على ملوك هذه المنظمة حاولوا التخلص منه بكل الوسائل ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً : وقد حاول ملك دنقلة مرة أخرى في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون (١٢٩٩ - ١٣٠٢) . (١٣١٠ - ١٣٤١) وامتنع عن دفع الجزية الأمر الذي فرض تجييد جيش عليه إعادة الجزية إلى ما كانت سابقاً وإنهت بهذه المحاربة آخر محاولة للملك دنقلة الآفلات من دفع الجزية التي كانت وبالأعلى ميزانيته ومواطنيه وحساب عمرانه ولاشك أنها كانت ترهق هذه المملكة المتوسطة الدخل المعتمدة على ضرائب البليح والقمح وهذه المحاصيل إنتاجها، تبطل بموسم الأمطار فان كثرت الأمطار في الجنوب وفاض النيل ضمن مواطنيه محصولاً طويلاً من الزراعة وإذا قلت الأمطار قل الزرع وصعب تحصيل الضرائب فمقيم لانهم لا يملكونها وكذلك الحال بالنسبة للبليح إذا هبت عليه عاصفة وهو مازال أخضرأ أسقطت معظمه وكذلك إذا نزلت عليه أمطاراً وهو على وشك الاصفرار تلف أكثره وقل محصوله . . ولكن وإلى مصر كان لا يعرف هذه الظروف ولا يقدرها . وإذا أنكر ملك دنقلة هذه الظروف على رعايته فقد أنكر معرفته لهم وحالهم الاقتصادية . ولذلك كان تمرد ملك دنقلة المستعمر لدفع الجزية نهضة ظروف المنطقة الاقتصادية ودخل المنطقة اقائم على الضرائب الزراعية والماشية كان لا شك لا يكفي حاجة التوسع الطامعية لهذه المملكة في إراتريا وتلورها وفرض جزية عليها كان يعنى نقص

تطورها وتدهورها تدريجيا مع مرور السنين فهي بأمكانياتها المحدودة لا تستطيع التوسع حتى تنفى بالتزاماتها . وهذه الامكانيات المحدودة امتدت لهايد الجزية لثقل من المصروفات الانشائية لهذه المملكة ومصروفاتها العامة وجعلها هذا الالتزام ثقل تدريجيا في مصروفاتها حتى جاء العهد الذي أصبحت غير قادرة بسط نفوذها على هذه المنطقة حتى مهدت لانضمامها للمملكة الفرنج والعلاب في القرن السادس عشر .

خلال هذه الفترة كان العرب يتقدمون في سهيل السودان ويتكاثر عددهم مرور السنين ولا شك أنهم كانوا يذهبون إلى النيل في موسم الجفاف للتزود من مياهه وحشائشه وهذه الزيادة كانت تفرضها عليهم ظروف الطبيعة نفسها فهم ملأون للبحث عن قوت لماشينهم ومياه لهم وتزويجهم من القيل كان فائدة السكان النيل فقه كانوا يبيعونهم الماشية وممتجاجتها مقابل الذرة والبالح ولا شك كان سكان النيل يرحبون بهذه الزيارات التجارية فهم لا يستطيعون إن يستهلكوا انتاجهم من البالح وخاصة ولذلك كان لابد لهم من سوق لهذا البالح إماعن طريق التجارة مع إسوان ودلاو أو مقابل الضرائب وحينما سهل عليهم هؤلاء العرب شراء الفائض من محصولهم من البالح والذرة أصبحوا يتنامون بهم ويرحبون بمقدمهم وتوسعوا في زراعتهم وخلال هذه المقابلة كان يحدث التزاوج والإسلام بعضهم حتى ألفوا على العرب والفرع عليهم وأقام البعض منهم على النيل أو ترك زوجاتهم حين يعود في موسم الجفاف .

وأما مصر فما زالت الاضطرابات تسودها والدسائس تنساب لنزع ملك لاجل آخر حيث كانه وهى الغرب أن لاخرف عليهم وعلى أولادهم من سكان النيل أصبحوا يرئادوا ويفتحون بالقرب منهم وكثرة تزويجهم من نساء سكان النيل حتى تغلبوا

— ٢٣٩ —

برور الايام على هؤلاء السكان وانتشر الاسلام على النيل بواسطة هؤلاء العرب
ثم دخله سكان النيل متأثرين هؤلاء العرب .

أما مصر فما زالت الاضطرابات تسودها والدسائس تحاك بين الطامعين لنزع ملك
لا حلل آخر مكانه والحروب الداخلية لا تقف نتيجة هذا الصراع للسلطة من
الداخل أو الترجمات الخارجية حتى أنهى حكم المماليك البحرية عام ١٣٨٢ م
ليأتى عهد المماليك الجراكسة عام ١٥١٧ ولندخل ممرهم أن ومنذ وبقوتها
الدين والاطماع ضمن أراضي الامبراطورية العثمانية حتى عام ١٦٠٨ م

أثر الثقافة العربية في السودان حتى القرن السادس عشر

كما أسلفنا انتهى التخطيط العام لنشر الدعوة الإسلامية والثقافة العربية بعد الخلفاء الراشدين بعد تحولات الخلافة الإسلامية إلى ملكية وراثية ، وكثرت حولها الاطباع والدساتير وأصبح إهتمام الدولة بالجيش في المقام الأول للحفاظ على كرس الخلافة وإنغمس الخلفاء في دولة بني أمية والدولة العباسية في اللذات ولم يهتموا عن تعاليم الدين وأصبحوا أسواء مثل للمسلم حتى كثر الأجانب حولهم واستولوا على مقاليد حكمهم . . . ودخل الثقافة العربية الفكر الفارسي والأغريقي لتجيا في عصر بعض الخلفاء ، الخلافة الإسلامية في أوج مجدها العلمي والأدبي . وإذا لاحظنا ذلك الازدهار الذي حدث للعلوم والآداب . . في العصر العباسي أو الأندلسي أو الفاطمي إنما كان لشغف بعض ملوكها بالعلوم فأزدهرت العلوم لأنهم أكرموا العلماء وبأنتهاء أولئك الملوك أنفض السامر وفلت حركة العلم حتى وصلت إلى درجة الركود وحتى خباضت الثقافة العربية .

وإذا أردنا أن نتابع خلفاء الدولة الإسلامية وتخطيطهم للعالم لانهج هنالك أي تخطيط بالمفهوم الحديث . فعمربن العاصرضى الله عنه حين دخل مصر أمر ببناء جامع عمرو وأصبح هذا الجامع فيما بعد هو جامع الخلافة وملتقى المسلمين على جميع طقاتهم يسمعون إلى الارشاد والتوجيه وإلى تعليمات الخلفاء التي كانت تلقى دائما على منابر الجوامع واكن جامعبهم ولم يذشأ ليكون مدرسة لتدريس القرآن أو اللغة العربية أو علوم الدين بل إقتصروا على أداء فريضة الصلاة ومواعظ خطبة الجمعة . والخطبة لا شك لا تتفرج معلمين ينفخون غيرهم

-- ٢٤١ --

بعلهم إنما هي تذكير للمؤمنين بأخلاف السلف الصالح من المجاهدين وإلى توجيه الناس إلى الأشياء الضرورية الواجب إتباعها في بعض المناسبات وحيث كانت الحياة في مصر في عمل عسكري دائم فقد كانت خطبة الجمعة في جامع عمرو هي حث الناس لاطاعة خليفة المسلمين والاجتهاد لنصرته ولم تترك الظروف العسكرية والحربية التي عاشت فيها مصر للجوامع أن تؤدي رسالتها الدينية التعليمية بل أصبحت المنابر وسيلة لجمع الناس وتهذبة الخواطر والدعوة لتأييد حاكم جديد أو لمؤازرة الوالي لمحاربة الجيوش الغازية أو للتجنيد في صفوف الجيش لصد العدوان أو لقمع ممر حدث أو للدعاية للملك الصالح المصلح المؤمن القائم على شئون البلاد .

وإذا اعتبرنا الجامع هو المدرسة الأولى التي حفظت التعاليم الإسلامية وعلوم الدين فيجب علينا أن نتتبع هذا التاريخ و نرى ما حدث في مصر حتى يكون ما يحدث فيها ذا أثر على السودان وعلى المسلمين المقيمين بها من عرب وسكان أصليين .

وأول جامع أنشأه في مصر هو المسجد الجامع أو جامع عمرو أو الجامع العتيق كما كان يسمى بهذه الأسماء في عام ٦٤١ م بعد دخول عمرو بن العاص إلى القسطنطينية . وظل هذا الجامع يخدم الأغراض السياسية للدعوة ، إذ كان العرب في حاجه لمثل هذا المنبر لتهذبة الخواطر وشرح الدعوى للناس وتنشيطهم لدخول الاسلام وحثهم على معاونة جيش المسلمين والتطوع فيه . . وقد كانت خطبة الجمعة في معظمها خطبة لمثل هذه الأغراض ولم تمنح ظروف العرب المتحمسين لنشر الدعوى على كل الشعوب أن يعملوا أكثر من ذلك ، شرح الدعوى والدعوة للإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ثم تعاليم الناس الفرائض الخمس .

وظل الجامع العتيق يقوم بهذه الرسالة بعد عودة عمرو بن العاص وتركه مصر لأن السرح ولم تنسج رسالة هذا الجامع لا كبر من ذلك فلم تنسج بهند العلوم الدين وتدرّس أحكام الشريعة الإسلامية بل ظلت هذه التعاليم تلقى في منبر الجمعة ، ويقوم بها الأفراد المسلمون من العرب وتوصّلها إلى سكان مصر في أكثر صورها حتى يدركها ويضموها ؛ وأستمر الحال على هذا المنوال حتى جاء عهد العباسيين ، وكانت الدعوة قد انتشرت وأمن بها الكثيرون وأصبح الجامع والصلوة فيه من أول واجبات المسلم وأصبحت تعقد فيه الحلقات الصغيرة للتدّكر والتفاهم وللتجارب بين المسلمين . وأصبح يرئسه كثير من الناس في غير أيام الجمعة لمعرفة تعاليم دينهم

ونشطت في جامع عمرو حركة التدريس فيكثر فيها الحلقات وخاصة بعد الصلاة وأهمها صلاة المغرب والعشاء ، وكانت تدور فيه المناقشات الدينية والأدبية والمطارحات الشعرية والروايات التاريخية وكل ألوان المعرفة ما تيسر لرواده وما شاءه . ولم تكن حلقات تدريسه لها أسس معينة إنما كانت مواضع الحديث تأتي من جملة المجتَمعين وتخرج من هذه الحلقات بعض رجال الدين والفقه في مصر إلا أن هذه الحركة لم تنشط ويظهر لها ثمارها إلا في عهد العباسيين ثم الفاطميين .

ومن هذه الحلقات المشهورة حلقة الإمام محمد إدريس الشافعي (١٩٨ — ٢٠٤ هـ) . كما انتشر نوع آخر من حركات التعليم والملاحظة في بيوت الفقهاء وأهل العلم . كانت تجذب إليهم طلبه المرفه . ومن أشهر هذه الحلقات حلقة بني عبد الحكم . وكان يرئس حلقاتهم أكابر العلماء ، الفقهاء الذين يزورون مصر .

ثم أنشأ المعز لدين الله الجامع الأزهر عام ١٠٧٢م ليسكن منبر الدعوة الفاطمية
أول الأمر، ولنشر مذهبهم الشيعي بين الناس وقد استغل الجامع الأزهر كغيره
عن الجوامع الإسلامية (أغراض سياسية وحربية تخص أمن الدولة)
فلاضطرابات الكثيرة التي شهدتها الممالك الإسلامية على طول العام لم تكن تدع
للحكام وقتاً لالقاء الخطب الدينية الخاصة على منابر هذه الجوامع بل كانت الأحداث
المتلاحقة تدفع بخط الجوامع إلى موضع من مواضيع تلك الظروف العصبية
والخلافات الكثيرة .

بل لم يفكر حاكم من حكام المسلمين أن يخطط لنشر التعليم ناهيك عن نشر
العلوم الأخرى التي يصعب أن تقدم بدون النعلم الذي إذا أردنا أن نتطوره وأن
يصل إلى أكبر عدد من محبيه أن يوفر أماكنه ومعلميه .

إلا أن ذلك لم يحدث فقه نشأ العلم في بيوت الأفراد والخاصة والمهتمين
والذين أخذوا هذا النوع من الحياة هدفاً لحياتهم وغاية من غايات وجودهم وهي
التزود من المعرفة ونشر هذه المعرفة .

إلى أن جاء عام ١٠٠٥م وأشاء الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله دار الحكمة
وكانت أول مدرسة تنشأها الدولة الإسلامية لنشر العلوم والمعرفة رغم أن
أنشاء دار الحكمة كانت درافعه مذهبية لنشر دعوة الشيعة التي ظهرت بعد فترة
من فتح هذه الدار وتوسعت حلقاتها وأنتظم فيها الشيعة والسنة حتى جاءت
الغالبية على علماء أهل السنة وقتلوا وأصبحت دار الحكمة دار حكمه الشيعة
لايجرؤ أى مذهب على دخيلها وقلت فوالله بعد ذلك ظهرت عصبيتها
المذهبية .

- ٢٤٤ -

وقد كانت دار الحكمة في بدايتها داراً عظيمة للعلم والمعرفة - تدرس علوم القرآن والفقه وعلوم اللغة والفلك والطب والرياضة والتنجيم وغيرهما ووفرت لها كل الامكانيات المادية ليصبح جامعة علوم حققة . حتى أصابها عصبية المذهبية . وأصبح يخافها العلماء لعدم وجود الجو العلى الحر بها .

وإذا سألتنا أنفسنا من أين جاءت تلك النهضة العلمية التي ظهرت في عصر العباسيين والفاطميين دون أن يكون هنا لك تخطيط وأشرف من الدولة على نهضة العلم .

إلا أن الأمر بسيط غاية البساطة ... فتلك النهضة العلمية وتلك الإنجازات العظيمة في كل فروع المعرفة التي تركها لنا الاسلاف جاءت نتيجة اجتماع الأتقياء والتسابق العلى الذى أصاب الذين كانوا يخدمون القصور . فقد كان عسكراً شاعية الملوك جمهوره من العلماء التقرب للملوك وكسب رضاهم هو الاجتهاد في المعرفة والعلوم وكانوا الملوك يقدرور المجتهدين من أهل العلم . ويميزونهم المعطيات الأمن والسكن والاحترام والتقدير .

والعلم كنوع من النشاط الانسان تحكم فيه انيم الاجتماعية والحياتية الانسانية فيه ، فان كان العلم ، و أفضل الناس في نثار الجميع أنجه الناس إلى العلم وكذلك الحال باتت الفروسية أفضل من العلم أفضل الناس الفروسية على العلم وكذلك في جميع فروع النشاط الانسانى كالتجارة والرياضة والفنون . حيثما يصبح هذا النشاط والاجتهاد ذا فؤيلة لاجتماعية أعلى من النشاطات الاعرفى يجذب اليه لاهتمام الناس وأهتمامهم .

ويدراسة ظروف نهضة العرب العلمية نرى هنا لك كثير من النشاطات
والانسانية ذات القيمة الاجتماعية المتقاربة كالفرسية والشراء ثم كان العلم عند
جمهور المتعلمين المحيطين بالقصور . وهذا هو السبب لدفع حركة العلم عندما
وجد الملوك الذين يقدرون العلماء وينضلونهم بعلمهم على غيرهم من الناس حتى
أصبح العلم هو بقية الكثيرين حتى يصل لتلك المرتبة من تميز النصور والخلفاء
والأمراء وأصبح الاجتهاد والسابق العلمى هو الذى يحدد مكان العالم
والجتهاد فى مجلس الخليفة وقيمة الهدايا والعطايا السنوية المقررة له ..

وقد أخذت مصر فى عهد الدولة الفاطمية بعد القرن الحادى عشر رسالة
للهضبة العلمية العربية وأوزعت هذه النهضة بين دار الحكمة التى نشطت فيها
العلوم العقلية والدعوة الشيعية فى حين احتفظ الازهر بتدريس العلوم الدينية
والفكر الاسلامى وكذلك جامع عمرو وأصبحت هذه القلاع الثلاثة قبس الفكر الاسلامى
ولأن هذا النشاط وهذا الرقى كان يرتبط بحياة الدولة الفاطمية التى وفرت
الامكانيات لهذه النهضة العلمية رغم الاضطرابات الكثيرة التى عاشتها حتى
عجزت الدولة الفاطمية عن الاستمرار فى الاتفاق على دار الحكمة وتعرضت
فى عام (٤٩٥ - ٥١٤ هـ) لاغلافها بعد أن ظهرت عصبيتها المذهبية داخل
الدائر ثم أعيد فتحها مرة أخرى عام ٥١٧ هـ فى عهد المأمون البطشلى وزير
الامور بأحكام الله إلا أن هذا كان اينانا بسقوط هذه الدار وهذه الجامعة التى
ذات لها الفضل العظيم فى حفظ العلوم الدينية وتطهير الفكر الاسلامى والثقافة
العربية

وقد انتهت دار الحكمة الجامعة الاسلامية الاولى بذهاب أصحابها وانفراض

دولتهم وعادت الصدارة للجامع الازهر ونشطت حلقاته من جديد بعد انقضاء رواد دار الحكمة وسقوط الدولة الفاطمية واضطراب الحياة السياسية في مصر وكرتة دالحكام فيها ووقف فيها كل نشاط .

ثم تدخل مصر في عهد الممالك البحرية ١٢٥٠ م والمماليك الجراكسة عام ١٣٨٢ - ١٥١٧ م ولننظم لاحيرا الى اراضى الامبراطورية العثمانية التي امتدت الى شمال افريقيا والجزيرة العربية .

جاء الامبراطورية العثمانية التركية بكل صلفها ووحشيتها وهمجية ورجالم ليقضى بضربة واحدة على آخر قبس للفكر العربى ، بعد أن بدأ يثبت وجوده في الحياة ويعطيها من انتابته واجتهاد لبناء البلاد الخاضعة للإسلام . انتشرت الامبراطورية التركية كالاصططوط على الشرق العربى لتشل حركته وتوقف كل حركة سالفة ولنميت كل اسباب الخلق والابداع بعد أن سبقها القرون السابعة الهجرى بضرب الحضارة العربية العباسية وهى تعطى الفكر العلمى اطيب خيراتها . جاءت القبايل الوحشية النترية لهضرب ضربتها على معقل المملوكة العباسية وتلف كل ما انتجته تلك النهضة العربية وتحيث بأقيم إنتاج خله الانسان في عصر تلك الخلافة حتى تندثر نهضة الخلافة العباسية على يد النتر .

كانت مصر هى آخر أمل للفكر العربى ولذلك كان اسباب ازدهار الفكر والعلوم بها والتجاء العلماء إليها واشتداد حلقات المذاكرة والعلوم في جوامعها

وإروقتها أمر طبعى بعد أن قفلت كل أبواب الحرية والمقدير لرواد الفكر والمعرفة
من المسلمين وانصارهم

ولو حاولنا أن نرى أثر النهضة السابقة التي قامت في عهد الخلافة العباسية في
شمال الجزيرة العربية أو تلك التي قامت رغم مشاكل مصر الكثيرة وأثبتت
وجودها رغم كل الصعاب والدماء والخلافات الجديدة الكبيرة التي كانت لا تقف
لو حاولنا أن نرى انعكاس تلك النهضة على السودان حتى عام ١٥١٧ بدخول
مصر تحت سلطة الدولة العثمانية ودخول الحياة الإسلامية في مرحلة لركود الذي
شل كل إمكانياتها الخلافة وجعلها في يسة لهذا الاضطراب اللعين الذي لا يقبل
ضحيته مرة واحدة ولا يعطها أسباب الحياة لتعيش .. إنما يحكمها حية هكذا
بلا حياة سالباً منها كل موارد الحياة إلا ما يجعلها تتحرك وكأنها حركة المشاوي
لا هو قادر على الحركة ولا هو راضى بالكون

١

كانت هذه الفترة من القرن الثامن الميلادي الى القرن السادس عشر الميلادي
هي فترة الصراع بين الدماء العربية والدماء السودانية . . . صراع بين العرب
الذين اضطرتهم الظروف السياسية للجوء للسودان وبين أهل السودان المسيحيين
والوثنيين . بين الاخلاق هؤلاء العرب البدويين وأولئك الفلاحين المقيمين
على النيل . . .

كانت معركة طويلة بدأت بسقوط الدولة الاموية في القرن الثامن وهروب
اتباعها الى حيث لا يوجد حاكم من الدولة العباسية . ثم مرة أخرى في القرن
العاشر الميلادي حين سقطت دولة العباسيين في مصر امام زحف دولة الفاطميين

المتعصبة للشيعة الغاضبة على الدولة العباسية التي تنكرت لمبادئ الاتفاق على إسقاط الدولة الأموية وإعادة حق آل البيت إليهم ولكن بنوا عموهم لم يروا في طاب الشيعة ما يازمهم بتسليم السلطة إليهم ، بعد أن استحقوها بقوتهم وقوة مناصريهم وأنباؤهم .

كما رأينا أن الثقافة العربية والإسلامية بدأت حول حلقات الجوامع الكبيرة بالقاهرة وكانت هذه الندوات الصغيرة التي يتطرح فيها طلاب المعرفة والعلم أوامهم وبجهوداتهم هي بداية حركة الفكر العربي الإسلامي وعاشت هذه النهضة بقرب السلطة كى تكسب حمايتها وأعاتها إما الأرباب والمعن البعيدة فلم يكن لها نصيب من هذا التقدير وهذه الرعاية فند قامت الجوامع الإسلامية حيث تكاثرت عدد المسلمين وعانت سلطتهم ولكن تلك الجوامع البعيدة والتي يدرس بها غالباً خريج من طلبة تلك الحلقات الدراسية الذين وفدوا لهذا الغرض للألم بأصول الدين والفقه والجديد حتى يستطيعوا أن يسيروا الحياة الدينية والفكرية داخل الجوامع المنتشرة على المدن النيلية . . .

وهذه الجوامع لم تكن بأستطاعتها أن تلعب نفس الدور الذي كانت تلعبه جوامع الفسطاط ومدينة العسكر والقاهرة التي كانت تنلق الرعاية والاهتمام من السلطات الحاكمة وحاجة السلطات الحاكمة نفسها للمعبر من هذا النوع . ولذلك كلما ابتعدنا عن العاصمة الإسلامية في العراق أو الفسطاط أو الاندلس أو المهديّة قلت حركة العلم والثقافة وكانت اهتمامات الناس لإهتمامات أخرى غير لإهتمامات أهل المكتب والدين يستخلص في ذلك أن أولئك العرب الذين نزحوا إلى السودان وكانوا يستوطنون جنوب مصر ، حيث كانت أكبر معقل لقلق الحكومة في الشمال ، فقد كل صعيد مصر

والنوبة في أكثر المناطق اضطراباً وتمرداً على السلطة . في الشمال وانتهاز أى
بادرة ضعف أو إلتغال جموش الدولة في حرب خارجية إلا وترفع إحدى هاتين
المنطقتين ، الصعيد ، والنوبة عصا التمرد والعصيان الأمر الذى ربطت مملكة النوبة
وصعيد مصر بالثورة ضد حكومة الشمال حتى قاد الاتفاق غير المقصود إلى احترام
الهاريين من أهل الصعيد ولوائهم بالنوبة وبين سكان شمال السودان مما ساعد
على هجرة العرب بحوار النيل .

هؤلاء العرب الذين إضطرتهم الظروف السياسية والاقتصادية إلى اللجوء
إلى الأراضى الشاسعة شبه الخالية من السكان في الجنوب وخاصة في فصل الصيف .
لم يكن هؤلاء العرب من رجال العلم والفكر ولكن كانوا من رجال العصبية
المذهبية الدينية ومنهم الأوائل من بنى أمية ، ولم يكن بمصر منهم العدد الهائل
الذى أثر كثيراً . ومنهم الاندلاء العباسية الى جاءت لتملا الفراغ الأموى
وتنتقم لال البيت حتى وجدت نفسها هذه الجماعة موضع إضطهاد وكرهية من
أهل الشيعة والفاطميين الذين قذفوا بهؤلاء الانصار العباسيين إلى قبائل
السودان .

ابتعد هؤلاء الانصار العباسيين عن منطقة الاضطهاد حاملين معهم حرارة
الدعوة الاسلامية التي بررت على رجال الصحراء النوبة . وفقدت الكثير
من حماسها ووجد أصحابها أنفسهم في شبه حالة تشرد وضياح يبحثون عن أرض
تأويهم وجماعة تفاهم معهم وظلوا يحافظون على شعار دينهم وصلواتهم بين
ملك القياى والصحارى والوديان وأنقطعت أخبار العالم عنهم أو كادت تنقطع
عنهم لبعده المسافة وتوغلهم في أراضى السودان عاما بعد عام وظهت أجيال

جديدة منهم لم ترتبط بالمحسومات القديمة ولم تحاول أن تفتنى إلى الشمال بتقدير حبها للأرض الجديدة التي آوتهم والتي أعطتهم الأمان والحياة .

أحب العرب هذه الحياة البعيدة عن المشاكل والحروب واستسلموا لحياتهم البدوية وبدأوا بمسحurin الأراضي التي حرلهم يتعرفون على خبراتها وعلى سكانها وكانوا في خلال توغلم داخل السودان بمرور السنين حذرين غير محبين للمعراك حتى عرفوا أنفسهم كتبائل مسلبة مسالمة للقبائل السودانية التي كانت تستوطن النيل وتعيش على لزراعة ..

كانت حياة الترحال هذه غير كافية لنمو العالم الاسلامى بجانب انتشار وتطور الثقافة العربية بينهم .. بل كانت هذه الرحلة داخل أراضى السودان من العوامل التي أفقدت أهلمك الرواد الأوائل رأءفادهم الكثير من دينهم وبعدهم هن أرض المعركة وما لم تبنى اليه حال الدعوة في عصرهم حين فقدت حماسها الدينى إلى الحماس إلى كرسى الخلافة والخذل والقتل ودخول عناصر كثيرة كان لها الأثر الكبير في بث روح الفتنة ومؤامرات الحسكم ... بمرور السنين ظهور أجيال جديدة من أحفاد هؤلاء الرحالة العرب في قيافي السودان فقدت هذه الاجيال الجديدة الكثير من خصائص الراد الأوائل في حفظهم للعالم الاسلام وغيرتهم الشديدة عليه إلا أنهم أحفظوا بكثير من خصائصهم العربية من تقاليد وأخلاق ملازمه لعنصرهم وبيئتهم وهذا ما نلاحظه حين تم التفاهم والاسترام التام بين أهل السودان وأمتزاجهم بهم حتى أصبحوا عنصراً واحداً ذا تقاليد واحده شائعة بين الجميع وتفاصت صفات سكان السودان الأوائل كما أخبرت صفات العرب الأوائل ليظهر لنا هذا المزيج السودانى من التقاليد السودانية القديمة والتقاليد والاخلاف العربية التي صنعت منها رحلة الترحال موطناً جديداً حسب البيئة والمناخ .

كانت حركة الامتزاج هذه فيها شيء من اللين والمسئومة ، بين عادات وأخلاق أهل السودان والعرب فلاشك كان هناك تنافر بين عادات المجموعتين إلا أن الامتزاج السلس الذي تم على مر العصور كان إمتحاناً لعادات المجموعتين فالعادات القديمة العريقة لا يمكن أن تزول في كل المجموعتين بمجرد التفاهم والحب والمعاشرة فهناك تقاليد قديمة عاشت على نهر النيل يصعب على هؤلاء العرب المسلمين المتفهمين الراغبين في المعاشرة من محو هذه التقاليد حتى لو كانت تخالف تعاليم الذي أتوا به عليهم أن يتقبلوا مثل تلك التقاليد العريقة القديمة ، ومن التقاليد الفوعونية الخاصة بالافراح والختان التي كان يتمسك بها أهل النيل فقد قبلت الأجيال الجديدة من العرب هذه التقاليد التي عاشت في النيل ورأوا في إعتناقها تقريباً منهم لسكان أهل النيل والسودان ورأى أهل السودان بقبول العرب لمثل هذه التقاليد وإحترامهم لها لإحترام لشخصيتهم ، وقبلوا بدورهم عادات وأخلاق العرب التي رأوا العرب يتمسكون بها ويقدمونها كجزء من حياتهم . .

وكان هذا الامتزاج وهذا التجاور بداية لنشر الاسلام والثقافة والحضارة العربية وسط السكان المسيحيين أو الوثنيين . وجوب الاسلام بعد عملية التزاوج والامتزاج بين المجموعتين معظم إ نصار الممالك المسيحية التي كانت في علوة ودنقلة تنفت آخر إ نفاسها وتعيش الكنيسة نفسها في حالة جذب وإنفصال كامل عن الحركة المسيحية في العالم وفقدت كل علاقة بها حتى كان القرن الخامس عشر الميلادي وقد تم خالق شخصية جديدة تحمل من تقاليد النيل الوثنية العريقة وتقاليد العرب الذين فقدوا كثيراً من خصائصهم خلال عملية الرحلة الطويلة حتى يصلوا إلى النيل وإلى أرض البطانة والنيل الأزرق وأرض الجزيرة وغرب السودان حتى ظهرت الشخصية الجديدة لمجتمع القرن الخامس عشر ووضح فيه شكل الزعامة القبلية وأصبح لها وزنها الاجتماعي بين الأفراد وظهر المجتمع

- ٢٥٢ -

القبلى الجديد بعد التكاثر وسيطرت المسلمين على معظم أراضى النيل والفونج
وغرب السودان مما مهد لقيام دولة العبد لاب والفونج فى سنار وأسلام
دولة الفور فى غرب السودان ولانتصار الاسلام وظهور زعامته من رجال
العشائر وزعماء القبائل ليحلوا مكان سلطة الدولة المسيحية فى الشمال وفى أرض
الجزيرة عند سوية .

.

السلطنة السنارية . . .

بعد أن تم الامتزاج بين العرب وسكان السودان وظهر المجتمع الجديد الذى جمع بين الخصائص العربية القديمة والخصائص النيلية القديمة وحل الاسلام محل الديانة المسيحية بعد أن حمله هؤلاء العرب الرحل مئات السنين وفقد كثيرًا من تعاليمه وفقد العرب أنفسهم الكثير من خصائصهم الاولى وابتعادهم على دولة الإسلام فى الشمال وتوغلهم فى هذه الفيافي والوديان والانهار حتى تكاثرت العدد وغزو أرض النيل والجريرة وظهر شكل المجتمع القبلى . . . وظهرت شخصية زعيم القبيلة الكبيرة العدد التى لها وزن فى الخصومات القبلية والمشاحنات وفرضت الشخصية الجديدة نفسها على المجتمع وبدأت تظهر وتضح معالمها البارزة المميزة وتمارس كل حقوق زعيم القبيلة .

وخير ما يشير اليه هنا هو كتاب الأستاذ شاطر البعلبى معالم السودان وادى النيل الذى ناقش فيه قيام السلطنة السنارية مناقشة مستفيضة بعد عرض الخلافات الكثيرة بين المؤرخين فى أصل قيام هذه المملكة .

جاء القرن الخامس عشر وكانت ملامح المجتمع القبلى قد برزت وظهرت زعامات قبلية كثيرة ذهب بعض المؤرخين بتسميتها ممالك .

ونجد فى شمال السودان بعد سقوط دولة « المقررة المسيحية فى القرن الرابع عشر الميلادى من جراء هذا الشكل الجديد للنفوذ الجماعى فى الشكل القبلى وظهرت فى الشمال مشيخة ملك « ارقو » على ارقو وجريزة مقاصر والخناق

في الجواريرة والنوبة ثم تليها مشيخة البدبرة من حلة تبين إلى جبل دافر وتضم الخندق ودنقلا العجوز وجزيرة تنقس وإيكر والدفار بزعامه مالك دنقلة العجوز ثم تليها المشيخة الشايقية وتضم حنك وقوشابي ومروى والعمرى ثم تليها مشيخة المناصير من الرحمد إلى نهر العطبرة ومن وصف بوكهارت في رحلته في السودان أن هذه المنطقة قليلة السكان حتى في منطقة ملنقى نهر العطبرة ونهر النيل وتشمل كذلك هذه المنطقة مشيخة الرباطاب والميرفاب ثم بعد ذلك المشيخات القريبة حيث كثافة السكان أغزر هنا من الشمال مألقة هذه المشايخ واستلامها السلطة فيما بعد على المشايخ الأخرى وهي مشيخة العبدلاب تجاورها الزعامه الدينية لبنت المجاذيب بالدامر وشندى حيث ملك الجعليه .

تزعّم العبدلاب هذه المنطقة بواسطة زعيمهم عبيد الله جماع وبسطوا نفوذهم على المشايخ الأخرى لقوة قبيلة العبدلاب حتى تمكنوا من توحيد منطقة نفوذهم مع منطقة نفوذ الفونج فيما بعد فقد امتد نفوذ الفونج إلى أرض النيل الأزرق وشرق السودان .

وأهم مانود أن نضيفه هنا إلى تاريخ هذه السلطنة وتلك الفترة كثافة السودان وزيادة الموارد الاقتصادية واتحاد الأفراد في مجمرات باسم القبيلة خلف ذلك الصراع الذي عاشت فيه الجماعات التي عمرت السودان واستوطنته وذلك ما بين الفترة من القرن الثالث عشر الميلادي والخامس عشر الميلادي وهي الفترة التاريخية الكافية لخلق ذلك التجمع وتلك القرميات الصغيرة على ضفاف الأنهار والوديان والسهول . . . كما يجب أن نضع في أذهاننا طبيعة تلك المجموعات وميلها إلى الحروب والمشاكسة وخروج الأفراد والشاذين منها الذين يحترفون مهنة السلب وقطع الطرق الأمر الذي يقود إلى مصائب كبيرة . فقطاع الطريق مهمما كان الجرم الذي ارتكبه كفرد أصبحت القبيلة مسئولة منه .

أن الاخلاق القديمة التى جاءت مع العرب كانت تلزم القبيلة بجنازة الفرد المنتمى اليها . . . وهذا سبب من الاسباب الرئيسية لحاق المشاحنات والحروب الداخلة بين المجموعات القبلية التى خلقت البيعة الجديدة ويجب أن لانسى القبائل السلك التى كانت تسكن جنزب أرض الجزيرة وما عرف عنها بحب للقال وكأى مجموعات بدائية كانت الحرب رغم بدايتها الهروب منها أمر محال . . فالتمرد على الحرب والقتال أمر نمرضه طبيعة البيعة والحياة . .

وإذا كان تاريخ السودان فى المصور الوسطى يتبدى بانهم حدث تاريخى وهو قيام السلطنة السنارية بين عبدالله جماع رئيس أكبر مجموعة فى الشمال وبين عمارة نفوس رئيس أكبر مجموعة فى حوض النيل الأزرق ...

ويجب علينا أن نسأل بعض الاسئلة لماذا أئحد هؤلاء الزعماء هل كانوا فى قوة متبادلة أغرتهم أطاعهم على حفظ قوتهم وتوحيدها البسط نفوذهم على كل المجموعات الأخرى التى كانت لاتخضع لهم

أن هذا الاتحاد جماع بصداقات ومعاملات تجارية بين أغنى أواد المجوعات السودانية . . وعبدالله جماع زعيم العبدلاب وعمارة نفوس زعيم الفونج الذين ظهروا كمجموعات قوية فى منطقة النيل الأزرق وحددود الحبشة فقد أتمت بمسكة علوه المسيحية وضربت بواسطة قبائل السلك وأنهى حكمها وسيطتها وفدت البلاد السلطان والملك الذين يجب أن تدين له كل هذه المجموعات كما أن دنقله أتمت السلطة فيها فتغلب العرب عليها بعد الحروب التأديبية العديدة

التي كان يقوم فيها ملوك مصر لردع تمرد ملك دنقلة والنوبة المسيحية وذلك في عهد الملك بيمرس . وتدخل سلطات مصر في شؤون مملكة دنقلة وطرق التجارة رغم استمرار مسيحية هذه المنطقة إلا أن الظروف الاقتصادية لدولة المماليك كانت تفرض عليهم الاستمرار في إخضاع شمال السودان لدفع الجزية والضرائب في حين استطاعهم أن يفرضوا سلطانهم على هذا الاقليم وتعيين حاكم مسلم عليه . .

أن الجزية السنوية والضرائب التي كانت تصل إلى السلطان كانت أقوى من حوافز المماليك الاسلامية . . فلو فرضوا الاسلام على شمال السودان لنقلة الجزية وانعدمت ولذلك حافظوا على نصرانية هذا الجزء أكبر قدر ممكن ليستفيدوا من جزية المسيحية التي كانوا يتقاضونها .

كانت السلطنة السغارية هي بداية جديدة لحياة السودان الاسلامي وكانت أملاً لتوحيد تلك القبائل والنهوض بالسودان والاسلام إلا أن الظسروف العالمية كانت لا تسمح لهذه الدولة أو أخيرها بشيء أكثر من قيام هذه الدولة وأنحصرها في منطقتها وحفاظتها على استمرار التجارة في المقام الاول .

فاذا كانت تستطيع أن تفعل الساطة السغارية ١٥٠٤ م تاريخ أنشائها ومساطيل المملكة العثمانية وتمديد الشلك إلى كل البلدان حتى مست مصر عام ١٥١٧ م وبذلك سكنت حركة الحياة في البلاد العربية الاسلامية حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي . . كان تدخل السلطنة العثمانية في البلاد الاسلامية وشل حركتها من الاسباب الرئيسية لركود مملكة سنار وخاعة الحياة الثقافية عامه



الصورة العليا

المرأة عنصر هام في صناعة وإبتكار
الأدوات المنزلية . . من الحجارة
إستطاعت أن تخلق أدوات لرحى الذرة

• • •

الصورة السفلى

العرب بعد أن استوطنوا السودان
وخلقوا لهم حياة جديدة حسب
ظروف السودان وأمكانياته.
صورة امرب صحراء بويضة .



— ٢٥٩ —



أحد قرى الشلك حيث استفاد من خيرات الطبيعة في بناء مساكنه بدلا من
الأحجار والطين . . ليناسب مناخ منطقته .

— ٢٦١ —



منظر العرب الجعليين استقرار موسمي فرصته طبيعة حياتهم المعيشية
استفادوا من جلود الحيوانات وأشجار الصند التي حولهم.

— ٢٦٣ —



رغم انتصار الاستعمار على الصوفية إلا أنه لم يستطع أن يفرق وحدة الصوفيين
الصورة تبين محل دار فور مخزقا مدينة أم درمان عام ١٩٠٤

— ٢٦٥ —

في البلاد الإسلامية وشمل حركة التقدم للعلوم الإسلامية التي كانت تتركز في بغداد وحلب والقاهرة والاندلس وسنعود إلى ذلك حين مناقشة الحياة الثقافية في عصر السلطنة السنية ..

والآن رغم اختلاف كل المؤرخين في تحديد زمن تآلف العبد لـ والفونج بين بروس وكايو وكاتب الشونة وتريمو ونعوم شقيز ومخطوطة واضيف الله إلا أننا سنعتمد على ما جاء في مخطوطة ودضيف الله اليه ونسرحها .

فقد ساء في المخطوطة تأكيد لهذا الاختلاف وهو أن بعصر الروايات ترى بداية ملكهم عام ٨٩٠ هـ وأخرى تروى ٩١٠ هـ وهذا الاختلاف يشير إلى أن حكومة الفونج قد قامت قبل عشرين عاما قبل أن تتخذ من بيعة العبد لـاب وعليه يمكن أن تعتبر أن عام ٨٩٠ هـ بداية تدوين سلطة الفونج التي كانت أقوى الأمر الذي يؤكد ما بقيتها التاريخية على العبد لـاب للعشرين عاما رتب الاتحاد في عام ٩١٠ هـ ١٥٠٤ م

.....

عمارة دونفس : (٩١٠ - ٩٤٢)

زعيم الجماعات التي سكنت حوض النيل الأزرق والتي شاركت العبد لأب جزء من أرض الجزيرة وأمتت نموذها على النيل الأزرق وروافده وشماله . . نرجح أنه أستلم زعامة هذه المجموعات عام ٨٩٠ هـ تغاب بمجموعة التي عرفت فيما بعد اسم الفرج أو الفرج كان عصره عصر الزعامات القبيلة والقرى التي تشكل فيها شكل المجتمع شكله الجديد بعد سقوط الديولات القديمة بحسب رئاسته لهذه القبائل كان أغنى بمجموعته وكان من المهتمين بالتجارة والقرافل التجارية اللازمة الذي مهد له ولعبد الله جماع الاكنفاء والتفاهم على إخضاع المجموعات الاخرى وتكون الحلف السنارى .

ثم في عام ٩١٠ هـ كتابة رثيقة الحلف بين عبد الله جماع وبين عمارة دونفس الذى بنى مدينة سنار .

وقبل قيام مدينة سنار وانتقال المدينة والحضارة اليها ظهرت مدينة قبلها وهى مدينة اليرجى على الشاطئ الشمالى للنيل الأزرق خطها الشيخ حجازى بن معين . .

وحتى ذلك الحين لم تكن تعرف تلك المنطقة شيئاً من مظاهر المدنية والعلوم فقد جاء أن الرجل يطلتى المرأة ويتزوجها غيره فى نهارها بدون عدة . . وهذا كان يحدث بين الأعراب الذين أبتعدوا عن الإسلام وتعاليمه وخالطوا نساء

السودان بهاداتهم الفرعونية القديمة التي لم يستطيعوها حتى الآن الخلاص منها ...
ويجب علينا أن نقف عند هذه النقطة حتى نستطيع أن نتطلع ونابع حكمة
التطور التي أحدثتها الساحة السنارية . سلطنة تجارية قامت من أجل المحاطة
على تجارة القوافل التي تهم زعيم الونج وزعيم العهد لأب ، بين قبائل رعوية
متنقلة شرسية . فولى عبد الله جماع إخضاع قبائل الجعليين والمجاذيب والميرقاب
والرباطاب والمناصير والشايفية والدنافلة وتولى عمارة تتمس إخضاع القبائل التي
تغطي شرق النيل الأزرق ووديانه والمضرف والبطانة . .

فقد كانت تلك المجموعات صغيرة متناثرة قليلة الإمكانيات ، إذا رأينا
أغنى منطقة وهي منطقة نهر النيل الأزرق اقتسمتها قبيلة العبد لأب حتى حدود
أرض الجعليين شمل قرى عاصمة العبد لأب ثم الجزء الشرقى من النيل الأزرق
باراضية الخصبة ومراعيه الأهر الذي يسهل لى مجموعة تقطن هذه المنطقة أن
تعيش فى رعد وبسر لم كان من ناحية المحصولات الزراعية أو المريع لما شيدها
التي كانت عماد حياتها .

هكذا بدأ الحلف السنارى لحاق مجتمع مستنر وبناء المدن وخلق إدارته يدة
بين أفراد لم يتعبدوا مثل هذه المسؤولية ويجب أن نقف عند هذه النقطة أيضاً إن
أردنا ان نتابع التطور الحضارى لهذه المجموعات الرعوية التي لم تعرف الإدارة
والنظام وماطلبه هذه الدولة من مؤهلات وكوادر لإدارة شؤون الدولة الجديدة
التي اقتسمها عمارة دوننس واحتفظ . بالرئاسة لنفسه واعااته واعطى عبد الله جماع
واسرته أمانة القسم الشمالى من المملكة . -

وقد ساعد الركيب الاجتماعى القبلى ونظام إدارته هذه المملكة على الاستمرار

في إدارة هذه المملكة الشاسعة .. فقد كانت القبائل منظمة بطبيعة تهاير أسيادهم
قبيلة هو الغالب أغنى بمجوده إن كان يحصل ضرائب مباشرة منهم أو غير مباشرة
في شكل غرامات وخلافه .

هذا النظام الإداري القبلي الذي كان يدير المجموعات كفل للدولة الجديدة
مشقة البحث عن كوادر جديدة للقيام بالنظام والإدارة فتولى كل زعيم أدوة يحرسها
مع خضريه لسلطان سنار أو الخليفة من العبد لأب يرى مع أسنة لاله المائتة
في إدارة شؤون أقليمه .

ظهور زعامات دينية جديدة دفع لانتقاد رجال المال .

رغم الاختلاف بين كل المصادر التاريخية والواقعة القديمة بمداية هذا التاريخ
لأن هناك حقيقة ثابتة المراجعة أنه حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي لم
يستقر الاسلام والثقافة العربية في السودان وكان نهاية القرن الخامس عشر يهوى
بداية ظهور شخصيات دينية .

وقبل انتمض لهذه الشخصيات الجديدة التي اثرت في الفكر السويدي
وسلولا الأفراد إلى غرست قواعد المجتمع الجديد منذ القرن الثالث عشر
المجري منها مدرسة حسن البصري وراهم بن ادهم ومدرسة وابنة العنصرية
تلك الشخصيات الوافدة إلى السودان بترقيم جديد للإنسان ومقدواته وعلم ككاتبه
بذرت بذور الصوفية والكرامات والحواري وأحمد نوع من الشخصيات
الجديدة إلى بدأت تراحم الشخصيات القديمة إلى تولت زعامة المجتمعات
والرجال .

كانت الزعامة قبل ظهور هذه الشخصيات الجديدة للأفراد الأفواها أصحاب
الامكانيات وأبناء القبيلة الكبيرة وأصحاب النسب والحسب فظهرت هذه
الشخصيات لتخلق نوعاً جديداً من الأفراد الميويين بسد أغنياء ولامن رجال
كبار القبائل أو من الفرسان الذين يهزمون العشرات أومن الكرماء .

طرحنا هذه الشخصيات الوافرة من ههنا جديداً للرجل الكامل حسب وجه
تطورهم التي قبلها المجتمع . . الانسان العابد المنقطع للعبادة والانسان الذي يأتي
بالحوارق ، الانسان الذي يستطيع أن يكشف الغيب وأن يشفى وأن يؤذى وله
حق الامكانيات غير الطبيعية ما يذهل العقل الانساني عن مصدر هذه القوة
وهذه الامكانيات .

أن القرن السادس عشر بالنسبة للسودان هو بداية تحول كبير في التفكير
في السلوك والقيم وفي إرساء تعاليم والثقافة العربية التي لم تنشأ حتى ذلك الوقت
لما بالنسبة للعالم الاسلامي فكان ايذاناً بتحول كبير بعد أن امتدت يد الدولة
العثمانية إلى البلاد العربية وبعد أن ظهرت الخلافات المذهبية بين المسلمين الأمر
الذي قاد لظهور مذهب جديد هو مذهب الصوفية الذين رأوا لآخر في هذا العالم
وتأثروا على يبدوا بسلوك الرهبان في العادة . فانقطع نهر من الصوفيين الأوائل
تعبادة وعدم التفكير في أمور الدنيا بل فتح قلبه لعبادة ربه ورسوله ودام في
حب خالقه ورسوله درجة اعتمته عن كل مسؤوليات الحياة ومشاكلها واتجه بصره
هو عقله وبصيرته للعالم الآخر وفعل ما يشبه ما يفعله الرهبان المسيحيين في انقطاعهم
تعباده وتركهم ملذات الحياة ومسؤولياتها .

وكانت هنا لك منطقتين ظهر فيهما هذا الاتجاه الجديد في العبادة بغداد حيث

تلك الاسلام بضياح وحدة دوائه وإنحراف الخلفاء المسلمين عن النعالي الإسلامية في المغرب حيث أمتد المذهب الشيعي الذي أخذ أصحابه في سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاءهم وتلاميذهم المنقطع النظير لمخالفتهم مثلاً أعلى لهم أفقدوا الشريعة بذلك المسلك السامى للرسول في العبادة ونسوا أن الرسول لم يمس مسؤوليات الحياة ولم يطلب من الناس أن يجعلوا العبادة تلهيهم عن مسؤوليات الحياة وكسب العيش .

وأول ما جاء للسودان حاملاً هذه البذرة هو الشيخ تاج الدين البهاري البغدادي ونقل هنا تعريفه حسب ما جاء بخطوط ودخنية ضيف (هو تاج الدين البهاري البغدادي اسمه محمد والبهاري نعتة مأخوذ من قولهم قرأه رأى مضى . أسمى بذلك أضياء وجهه ربحانة من أخباره هو والشيخ الامام القطب الرباني والفوت الحداني خليفة الشيخ عبد القادر الجيلاني مولده ببغداد حج إلى بيت الله الحرام وقدم بلاد السودان بأذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم والشيخ عبد القادر الجيلاني قدم مع درواد بن عبد الجليل أبو الحاج سعيد جد ناس العيدي (١) وقدوسه أرل النصف الثاني .

.....

(١) العيدي بلدة بالصاغة الايمن للنيل الازرق شرق مدينة الكاملين

تطور للثقافة العربية في عهد السلطنة السنارية:

أتاحت الظروف العالمية لسلطنة سنار أن تتقدم وتحتضن الثقافة العربية كما خلفت من حولها مناخاً جافاً من النهضة والتقدم .

قامت السلطنة السنارية والأميراطورية الإسلامية قد تقسمت إلى . . دويلات صغيرة أهلكتها الخلافات والحروب حتى أمتدت لهايد الاضطبوط العثماني لتشمل حركة تقدمها وبذلك فرضت حياة راكدة في البلدان العربية المحيطة بالسودان والتي تشاركه في الاسلام كما أتاحت للسودان الفرص أن يتبنى النهضة العلمية التي كانت سائدة في البلدان العربية، وتقديم كافة المساعدات والامكانيات المادية التي كانت تغري العلماء بالنزوح للعراصم ومجاورة الملوك . .

وقد كان تخلف السودان الثقافي والاسلامي عن البلدان العربية لا يتيح له الفرصة لمثل هذا الدور الخطير . . . فلو كان السودان متقدماً مثل بقية الدول الاسلامية لاحضن علماء الدول الاسلامية وتبنى تطور الثقافة العربية والاسلامية ولكن ظروف تعاور السودان الاسلامي والعربي لم تواكب تطور بقية البلاد الاسلامية والعربية

وفي القرن الذي بدأت فيه الحضارة الاسلامية في البلاد العربية في الذبول والضياع ظهرت دولة السودان العربية الاسلامية فقيرة من كل الامكانيات بعيدة كل البعد عن تطور الحياة في البلاد العربية ولذا لم يستطع أن يستفيد

السودان من خيرات المفكرين العرب باناحة الظروف الملائمة للعمل العلمى على
على الوجه المطلوب . . .

ورغم ذلك كان السودان متفذا هاماً لبعض الناضيين والمتريدين والهلين
من العلماء والمخلصين أيضاً .

قامت السلطنة السنارية وخلفت المملكة الاسلامية الأولى فى السودان . .
فكل زعيم من المجموعتين الذين خلقوا التحالف السنارى عبد الله جماع وعمار
دونقس مسام يحتفظ بشجرة نسب عربية مما أتاح هذا النسب الانعاش تطور
الفكر الاسلاميه والثقافة العربية . . . وقد كان هذا لك وسيلتين لهذا الانعاش
مواسم الحج وانتشار الفكرة بين الناس وحماية الدولة لقوافل الحجاج واشترك
أمراء سنار والعباد لأب فى حفظ سلامه قوافل الحجاج ، دفع بالكثيرين لزيارة
قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وأداء العريضة . . . وعن طريق الحج كانت
تفتح مدارك الحجاج لمفهوم الاسلام . . . وقد لعبت هذه المواسم دوراً كبيراً
فى دعو بعض العلماء لزيارة السودان وتقديم المساعدات العلمية ونشر العالم
الاسلاميه . . . وقد كان تاج الدين البيارى (البغدادى) أول من لى هذه
الدعوة وأول من أشتهر من العلماء الذين أنوا من الحج مباشرة مع قوافل
الحج السودانيه .

وإذا أردنا أن نؤرخ للثقافة العربية والاسلاميه بالمفهوم العلمى الحديث وبما
كان سائاً فى البلاد الاسلاميه فسنؤرخ له بدخول تاج الدين البيارى أوائل
القرن السادس عشر أما قبل ذلك فلم يعرف السودان من الثقافة العربية
والاسلاميه إلا الشيء اليسير من الذين سبقو تاج الدين بأعوام بسيطة فى إدخال

القراءة العربية والتعليم الاسلامية ونشر القرآن والصوفية حسب ما جاء اليها
في المخطوطات

وقد كان تعطش الناس للتعاليم الاسلامية وتعلم القراءة وحفظ القرآن من
العوامل التي ساعدت لنشر هذه الثقافة العربية والاسلامية في وقت وجيز في السودان
على يد تاج الدين البهاري وراجل القصير وأولاد جابر .

وقد سبق تاج الدين البهاري بعض العلماء المصريين والمغاربية إلى السودان بزمن
يسير إلا أن تلاميذ تاج الدين البهاري هم الذين قامت عليهم النهضة العلمية
والصوفية في ملكة سنار فقد سبق تاج الدين البهاري الشيخ البراهيم البولادي
ابن جابر إلى دار الشايقية حيث درس فيها خالها والرسالة بعد أن زار مصر
وتعلم في الأزهر ثم ذهب إلى سنار كبقية علماء ذلك العصر لمحاربة الملوكة والعواصم
الاسلامية حيث جعل له مدرسة كروقة الأزهر الشريف يدرس فيها ويلقى فيها
محاضراته في شتى العلوم الاسلامية .

وقد قامت على يد أولاد جابر بأرض الشايقية منذ القرن السادس عشر
أول مدرسة لتدريس القرآن وعلومه بالسودان ، وقد سبقت أرض الشايقية
بقية الأقاليم السودانية في هذه المعرفة ولذلك لقرب أرض الشايقية من طريق
القوافل التجارية الناهضة إلى مصر والأزهر . . رغم أن الأزهر في عصر
الحكم العثماني لم يكن كما كان في عهد العاطميين والمماليك إلا أن المسلمين رحابة
ديهم كانت ترض عنهم أطعم طلاب العلم وتوفير سبل الحياة . . .

وقد أهتم بعض الميسورين ببيوت الله ورعايتها من أموالهم الخاصة الأمر

الذى حفظ للأزهر مواصلة رسالته رغم كل الظروف العصيبة ووقف الاعانة الملكية عنه .

وقد خصصنا فصلا بتاريخ الأزهر والجموع التي سبقتها في مصر لنعطي صورة عن حياة العلم في عهد الدولة الأموية والعباسية والفاطمية والمماليك وأمكنه إستعماده السودان من دراسته الى يأتي في المرتبة الأولى ضمان العيش للطلاب فيه وقد ساعد الحج عن طريق مصر في سفر كثير من طلاب العلم الى مصر لقيموا بالأزهر حتى قيام قوافل الحج ثم بقائهم بمكة لمجاورة المصطفى عليه السلام ثم العودة عن طريق مصر وعلى سبيل المثال العلامة الكبير عمار بن عبيد الحميط الخطيب من أهالي سنار حيث درس جميع العلوم الفقهية والعقلية والعقائمية وعلم النحو الاصول والمنطق والتفسير وكان ذلك في عام ١٠٧٧ هـ ...

وقد مدحه تلميذه الفقيه علي ولد الشافعي بتسميته قال فيها :

ياطلعين لكل فن تبتغوا	شدوا الرحال ودرخوا سنارا
قد حل بهما امام فاضل	زين النوافل على المقدار
ورع تقى صابر متواضع	وجل عليه سكنية ووقار
له العلوم تأملت طوع المنا	من غير إشكال ولا إنسار
في كل فن تطلبون ترويه	يبدى المزيد كزاهر الأبحار
فقه وتفسير الحديث ومنطق	وبديع علم والمعاني يدار
فقه ونحو والبيان وهرقه	علم الكلام به جلا انبار
علم التصوف طال فيه يافى	وقفا به للسادة الأبرار
وكان مجلسه المسمى أزهر	على المدارس في كلا الامصار

وهذه القصيدة تكشف لنا علم العلامة عمارة بن محمد الحفيظ الخطيب ولاشك أنه قد كان خير علماء سنار كما تكشف لنا عن حالة الشعر العربي في القرن التاسع عشر الميلادي .

وقد كان يتكسب كغيره من هداية الطلبة والأصدقاء وزعماء القبائل المحبين لرجل الدين والعلم . اما ملوك سنار فلم نسمع عنهم أنهم تبنوا هؤلاء العلماء كما كان صائرا في بغداد وحلب والقاهرة والاندلس وان كانت هنالك بعض الهبات والهدايا فقد كانت لظروف خاصة وليكنهم كسياسة عامة لم يسلكوا سلوك رؤساء الحكومات الاسلامية في البلدان العربية

اما الشيخ تاج الدين البهاري الذي حضر في بداية القرن السادس عشر الميلادي لم يسكن سنار بل أقام في الجزيرة في ضيافة داود عبد الجليل الذي دعاه لزيارة السودان وتعليم أهلها تعاليم الاسلام بعد أن قابله في أرض مكة وتزوج من أهالي العك بالحلالية وتخرج على يديه علماء من علماء السودانين الاوائل ورجال الصوفية منهم الشيخ محمد المهيم الذي جعله الشيخ تاج الدين البهاري خليفة بعده وطلب من الناس مبايعته . ومن أخباره وأسميته بالمهيم . . . ان زوجة شيخه طلبت منه دوكه كسرة فطلب من محمد أن يحضر لها دوكه فذهب واحضر الدوكه على رأسه وعند حضوره وجد شيخه قد غادر ارجى إلى سنار فلاحق به في سنار والدوكه على رأسه وعندما وصل سنار سأل عنه فعرف أنه رحل إلى قريته فلاحقه في القرية وهرما زال حاملا الدوكه على رأسه وعندما علم شيخه بقصته قال له هذه همة نصلح بها دين الله عز وجل فوقع منغشيا عليه

ثم تلمذ على يد الشيخ تاج الدين البهاري بانقا الضرير وهو من رجال
الصوفية الصالحين . . .

وكذلك حجارى بن معين بنى أريجى ومسجدها وشاع الدين ولد التويم
جد الشكرية والشيخ عجيب الكمبر . .

كما سلك أربعين رجلاً منهم الفتية حمد النجيفى صاحب مسجد اسلانيج
والفقيه رحمه جد الجللاوين ختم أثنان ولد عبد الصادق وبان النقا كما سافر إلى
نقل وسلك فيها عبد الله الحمال جد الشيخ محمد ولد النرابى مع جماعته . . .
وقد حمل هؤلاء من بعده رسالة الصوفية وبناء المساجد واشغال نار القرآن
والدراسات . .

وأذا أردنا أن نحصر مراكز التعليم في السودان في عصر سلطنة سنار
فسنجدها حيث طاب المقام لرجال العلم والصوفية . . فقد جذبت أرض رفاعة
وأريجى والحزيرة الكثير من العلماء ورجال الصوفية لكرم رجالها وحسن
ضيافتهم وكرمهم ثم مدينة سنار والحلفاية وسندى وبربر وأرض الشافعية
وخاصة فوري ونفلس وتونى . . .

بعد نجاح الحلف السنارى ومع بداية القرن السادس عشر واستتباب
الآمن واستمرار التوافل التجارية مع مصر والحجاز انتعشت الحركة التجارية
وكثر عدد المسافرين والمرافقين لها وكثر عدد العرب المهاجرين للسودان طلباً
للرزق والثروة وكثر عدد طلاب العلم في أروقة الأزهر والمجاورين بمكة وتزودوا
بالعلم والعلوم الإسلامية وانتشر خبر قيام السلطنة السنارية بواسطة

- ٢٧٧ -

القوافل التجارية في مصر والجهاز وانفتح الباب للهاربين من ظلم مجتمعاتهم
وشغف العيش بأوطانهم للقدوم إلى السودان كما انهم الحجاج السودانيون الفرصة
للدعوة رجال العلم الصالحين للحضور إلى السودان لتعليم أدله تعاليم الاسلام
والقرآن والسكينة وحفظ القرآن .

وبنهاية القرن السادس عشر كانت العلوم الإسلامية والثقافة العربية قد
انتشرت في دوع السودان والمدن التجارية وبحلول القرن السابع عشر الميلادي
كانت الصوفية قد تركزت في القرى والمدن وشغف الناس بمصاحب رجالها
من كرامات وروح وصالح جذب اليها الناس دون رجال العلم حتى بات مركز
رجال الصوفية أعلى من رجال العلم والدين .

وأذا حارلما أن تابع النشاط العلمي والديني خلال القرن السادس عشر
والسابع عشر والثامن عشر فسنجد دراسة القرآن وحفظه كانت تحتل المركز
الأول وكان حفظ القرآن أمل المالكية من طلاب العلم اما ما زاد عن ذلك
من علوم فكانت تمليه ظروف الهالك والشيخ . . . فاشيوخ الذين قاموا
بتدريس القرآن والحال والسيرة واللغة العربية كانوا يقوهون بتدريس هذه
العلوم فلم يختص شيخ أو عالم بتدريس مادة منفردة بل قصر بعضهم على تدريس
القرآن وعلوم الدين ورااد البعض تدريس اللغة العربية . من هههه ونحو
وعروض الخ

وكانت لشيخ خاونه (السكتايب) الخاصة به يحضر إليه التلاميذ
من القرى المجاورة للأهليم البعيدة حسب سمعته وراثته وبركه وصلاحه

واستعداده لقبول الطلاب وضيافته لهم وكل ما كان استعداد الشيخ لتعليم الطلاب دون اوراقهم ، الالتزامات المادية كلما كثر طلابه . . . وقد اختلف علماء السودان عن بقية علماء البلاد العربية الأمر الذى جعل نشاطهم لا يصل إلى تلك النهضة العربية . . . فقد كان علماء الدين واللغة يجتمعون جميعاً في الجوامع الكبيرة كل له زاريتة يدرس علمه المتخصص فيه . فأحدهم يدرس التفسير وآخر السيرة وآخر علوم اللغة العربية وكانت حلقاتهم يشهها كبار العلماء والادباء الأمر الذى رفع من مستوى تلك الندوات والمناظرات التي كانت تجرى في جامع بغداد أو القسطنطينية أو حلب حتى خلقت تلك النهضة الفكرية الإسلامية العربية لاتساع صدرها لهذا التنافس والتخصص واشتراك العلماء مع بعضهم في المناقشات واجتماعهم تحت سقف واحد مما أتاح أيضاً للطلاب أن يتتقى العلم على يد أكثر من معلم رغم استعداد البعض للتدريس في كافة العلوم

ازدهر تدريب القرآن وعلوم اللغة العربية وأداب الصرفية وقد دخل الشعر الصوفي قبل غيره من أداب العرب وذلك لانهجذاب الناس نحو رجال الصوفية . .

ومن رجال الصوفية الكبار محمد إبراهيم الهميم ، ولم يكن عالماً إذ اضطر القاضي وشين (قاضي العدالة) أن يفسخ زواجه لانه تزوج أكثر من أربعة وجمع بين الاخوات ثم الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن أبو الجاز وكان أكثر رجال الصوفية صلواً وظهرت له كرامات كثيرة واثبت له الملوك وعامة الناس ومن سبقه في درجة الصلاح والصوفية الشيخ أدريس بن محمد الاربب المولود عام (٩١٣ هـ - ١٥٠٨ م) والمتوفى عام (١٠٦٠ هـ ١٦٥٠ م) وعاش مائة وسبعة وأربعين عاماً مدفوناً بالقرب من الحلفاية وكذلك بانقا الضرير أحد

الذين سلكهم الشيخ تاج الدين البهاري الذي ولاية تربية أبنائه حين توفي وأعطاه أسرار الصوفية ومن رجال الصوفية الذين علت سمعتهم وظهرت كراماتهم ، الشيخ دفع الله بن الشيخ محمد أبو إدريس . تذبناه الشيخ إدريس بن الأرباب حفظ القرآن وأشتغل بالقرآن ثم قرأ مختصر الخليل على الشيخ إبراهيم الفرضي . . .

وإذا أردنا أن نخص مراكر التجمع الثقافي والعلمي في السودان داخل أراضي السلطنة السنارية ، فسجد على النيل الأزرق حوالى ثلاثة أو أربعة مناطق تجمع على طول النيل الأزرق أحد هذه المناطق خاضع لنفوذ العبدلاب والثلاثة تحت نفوذ السلطنة السنارية ، وأول هذه المناطق هي التي كونها الشيخ محمود راجل القصير العركي في نهاية النصف الأول من القرن السادس عشر ، على النيل الأبيض ، أرض الحسانية ، بحلة الهوى . وسنذكر تاريخه في حديثنا عن تاريخ كل منطقة . وهذه المنطقة قريبة من منطقة نفوذ قرى عاصمة العبدلاب أما المنطقة الثانية فهي المنطقة التي عمرها الشيخ تاج الدين البهاري حين جاء إلى السودان مع داود بن عبد الجليل أبو الحاج سعيد جد ناص العيدي في ولاية الشيخ عجيب وسكن مع داود في وادي شعير في أول الأمر إلا أنه تنقل بنشر علمه في ربوع السودان ، ووادي شعير ، حلة قرب الحصاحيك في أرض الجزيرة والمنطقة الثالثة هي منطقة أريجى مدينة الشيخ حجازي بن معين الذي خطبها وكان غنيا وتعلم على الشيخ تاج الدين البهاري وأريجى في منطقة رفاعة بالقرب منها جهة الشرق والرابعة هي مدينة سنار عاصمة الفونج فقد تعلم علماءها على الشيخ تقصير وتاج الدين البهاري وتوسعت فيها حلقات العلم ومن علماءها الكبار العالم عمار بن عبد الحفيظ الخطيب هذا فيما يخص منطقة النيل للأزرق

وكذلك توسع نشاط الأفراد شمال النيل الأزرق وتعمرت الحلفاية قرب
قرى وشندى وبرير بلاد الشايقية وادناقلة وتوق واستقر في كل منطقة من هذه
المناطق العلماء والشيوخ من الصوفية الذي ملأت أخبارهم البلاد وصار الوصول
إليهم منية كل فرد .

بدأت حركة البعث هذه بعد قيام السلطنة السنارية في النصف الأول من
القرن السادس عشر ، وبداية النصف الثاني من القرن السادس عشر ، بعد
أن استتب الأمن للسلطنة السنارية . وشيوخ قرى من العبدلاب . بعد أن
استتب الأمن ، واستقرت الأحوال لهذه السلطنة الجديدة ، بدأ الناس
يظالمون بالتوسيع في تعاليم دينهم فكلمات السلطنة للناس الايمان باشتراكها
في القوافل التجارية لمصر وامان الناس على حياتهم من مخاطر قطاع الطرق .
... وتولدت في الناموس الحاجة للامان بتعاليم دينهم ، لا وصاروا اليه من
جمل به . وقامت قوافل الحج عن طريق القوافل التجارية الذهبية إلى مصر ثم
تسفر في مصر وتذهب مع القوافل المصرية إلى الحجاز وتؤدي الفريضة .

وقد كان لبداية هذه الحركة التيجارية أثرها الكبير في تشجيع طلاب
العلم والمختصين بالكثيرين من العلماء العرب للسودان وأول من عادت هذه
البعثات وأخذت تستلهم العلم بالازهر والحجاز هو الشيخ محمود راجل
القصير العركي الذي أسس مدرسته جنوب الخرطوم .

منطقة التعلم الاولى بأرض الجزيرة :

نستطيع أن نؤرخ لبداية الحركة العلمية والثقافية العربية والاسلام حسب

ما جاء في المخطوطات والمراجع وأفضلها مخطوطة وضيف الله إن الحياة العلمية بدأها الشيخ محمود المركي راجل التصهير ، الذي ولد بالنمير الابيض وسافر إلى مصر طالبا العلم والمعرفة وكان ذلك في نهاية النصف الاول للقرن السادس عشر الميلادي .

ودهب الشيخ محمود المركي إلى مصر وهي مازالت تحتفظ بشعاع المعرفة السابقة ولم تمتد لها يد الازراك لتوقف تطور العلم والمعرفة وتقاطع الاعانات والرعاية التي كان يتلقاها الجامع الازهر وجامع القضاة والجوامع الاخرى التي كانت بمثابة الجامعة الاسلاميه وتمثل منبع التعليم والبحث والفكر في ذلك العصر .
خلال حكم الفاطميين والمماليك المحرقة والمماليك الشراكسة في القرن العاشر الميلادي إلى بداية القرن السادس عشر الميلادي حيث بدأ الحكم التركي لمصر من عام (١٥١٧ م ١٧٩٨ م)

استفاد طلبة السودان من الازهر رغم ظروف السكبت التي عاشتها مصر خلال الحكم التركي وتدهور حال التدريس واختفاء بعض العلوم العقلية من الازهر كالرياضيات والفلسفة .

وانحصرت الدراسات فقط في علوم اللغة العربية والتوحيد والنطق والفسير ويمرر استمرار هذا النشاط إلى مجموعة من المفكرين والعلماء العرب وأصرارهم على مواصلة الرسالة على مجهودهم الخاص وقد كان لسمعتهم الادبية والمهنية اثر كبير في رحلة الطلاب والعلماء إليهم من جميع البلدان العربية والفارسية والتركية ، ومن هؤلاء العلماء الذين عاصروا السلاطنة السنارية أي في بداية القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر ، وتتلخص علمهم معظم علماء السودان

واستفادوا من مؤلفاتهم وأخبارهم العلمية ، حيث كانت الدراسة تدور في أروقة الأزهر على قرار الدراسة في أكاديمية أعلاميون وجماعته ، إذا كانت الدروس عبارة عن مناظرة يشترك فيها الاساتذة والطلاب وقد خصص لكل استاذ مكان معين يلقى فيه دروسه في شتى العلوم كالبيان والنحو والتفسير والفقه وقد كانت هذه الحلقات الحرة ونظام التدريب فيها أفتح أدهان الطلاب لعالم وحب من التفكير مما ساعد على التأليف والكتابة رغم قلة العلوم العقلية التي كانت تدرس .

ومن الاساتذة الذين وظيفوا على رسالة الأزهر العلمية رغم قلة الامكانيات المادية وخوف الدولة التركية من نشاط الأزهر ومحاولتها للتقليل من نشاط دون الاستحكام به حتى نجحت في كسب بعض شيوخه وجعلته تابعاً للأمية اطورية التركية ، وشارك في التدريس به نور الدين علي البحري المتوفى عام (٤٤٤ هـ ١٥٣٦ م) والعلامة شهاب الدين ابن . . عبد الحق السبازي المتوفى (عام ٩٥٠ هـ ١٥٤٠ م) وعبد الرحمن المناوي المتوفى (عام ٩٥٠ هـ) وشمس الدين الظاهر الشافعي والامام شمس الدين ابو عبد الله العلقمي المتوفى عام (٩١٢ هـ ١٥٦٣ م) والامام الصنوي المقدس الشافعي المتوفى حوالي عام ١٥٨١ م

وقد ضم القرن السابع عشر الميلادي العديد من العلماء بالأزهر ووجه اليه الكثير من العلماء من المغرب وشمال الجزيرة العربية ومن علماء القرن السابع عشر الميلادي كشمس الدين العتاني وعبد الباقى بن يوسف الزرقاني المالكي والعلامة شامين بن منصور عاصر الارمناري المتوفى عام (١٦٩٠ م) وكان يلقي

محاضراته بالأزهر في شتى العلوم والفنون والشيخ محمد الاخرس المالكي شيخ
الجامع الأزهر المتوفى عام ١٦٩٠ م) والشيخ حسن بن علي بن محمد الجبرتي والد
الجبرتي المؤرخ العربي الكبير وقد توفي عام ١٧٠٤ م . وقد كان بارعا في العلوم
الهندسية وقد زار الأزهر هذا القرن العلامة شهاب الدين المقرئ في عام ١٦١٨
وأقام بمصر للتدريس بالأزهر لاعوام طويلة حتى فاته عام ١٦٢٣ م وكما زار الأزهر
العلامة الصوفي الشهير عبد الغنى التالبي عام ١٦٩٤ م .

ويذكر الجبرتي أخبار علماء مصر وبورد لنا الكثير من أسماءهم ونخصصهم
منهم العلامة اللغوي حسن البدرى الحجازى المتوفى حوالى عام ١٧١٨ م والعلامة
عبد الرؤوف بن عبد اللطيف البشبيشى المتوفى عام ١٧٣٠ م وكان استاذاً في
النحو والمعاني والشيخ أحمد بن عيسى السمارى المالكي من علماء الحديث
هو غيرهم . . .

وفي الكتب التي كانت تدرس بالأزهر في القرن الثامن عشر الميلادي والتي
يمرجهما يمكن لنا أدراك سير العلوم والمواضع التي كانت تدرس والتي سیرت
سلسلة المعرفة والفكر العربى خلال العصور المظلمة ومنها الاثمنى وابن عقيل
والشيخ خالد ومروحه والأزهريه وشروحه والشذور وكتب التوحيد
كالجوهرة والهدى وشروح السنوسية الكبرى والصفوى وبعض كتب المنطق
والاستعمارات والمعاني والبيان بجانب كتب الحديث والتفسير وهي تدور جميعها
في علوم اللغة العربية والصوفية والحديث وعلوم الدين وقد أخذت منها العلوم
الحديثة كالفيزياء والمنطق والفلسفة والفلك ، من هذا القمض الفكرى المحدود
كان يتلقى طلبة العلم من السودانين الوافدين على الأزهر .

كان الأزهر هو الجامعة الإسلامية والعربية خلال الفترة في القرن
الثاني عشر إلى الثامن عشر الميلادي وقد كان تقدمه في العلوم ينعكس على سيم
العلوم في بقية البلدان العربية وخاصة التي تقع في أفريقيا حيث القاهرة ملتقى
عوافل الحج السائرة إلى بيت الله وقد كان أي تقدم في حالة الأزهر
العلمية والإقتصادية لها أثرها المباشر على بقية الدول حيث كان الوافدين
العظيم لكل طلاب المعرفة وعلماء البلدان الأخرى . . . وإذا أردنا أن نقيس
مستوى المعرفة والعلوم في عصر السلطنة السنارية يجب أن نقيسها بمسوى
العلوم بالأزهر ومصر حيث كانت الرافد العظم للطلاب المعرفة في السودان
والذي نستطيع أن نقوله عن طلاب تلك الفترة وما تركوه من أثر على تقدم
العلوم في السودان هي نشر اللغة العربية وعلومها والحديث والتفسير والعلوم
الصوفية ولكنهم لم يتركوا أثر خارج حدود السودان فلم نسمع عن واحد منهم
حاضر بالأزهر أو الحجاز ولم يتركوا في المخطوطات والمؤلفات ما أثر في تطور
العلوم العربية والدينية خلال تلك الفترة رغم ما تخلفه بعضها من مخطوطات
في التوحيد والصرفية والتفسير حيث كانت الدراسة تختلف ظروفها
عن ظروف الأزهر ، فالأزهر أنشأ ليقوم بمهمة الجامعة الإسلامية ونشر
الرعاية من الدولة والعلماء ، أما في السودان في عصر الدولة السنارية فلم يهتموا
مثل هذه الجامعة إنما قام العالم بعدد من سنار في السودان
والجزيرة والحلانية وشندي وبربر وأرض الشايفرة وكردفان
الدامر حيث قام حمد المجدوب في القرن الثامن عشر الميلادي
وفي السرويات أنشأ الشيخ أحمد الطيب شيخ الطريقة الشاذلية

تحتن نبني قياسنا للعلوم في تلك العصور على مفهومنا للعلوم في العصر الحاضر حيث كثرت فروع المعرفة وتوسعت المعارف في الفلسفة والكيمياء وعلوم النباتات والطبيعية والهندسة والنقد التي لم تتوفر لعلماء تلك الحقبة .

نقيس مستوى هذا العصر في التقدم في ظل هذه العلوم ونقيس مستوى ذلك العصر في ظل تلك العلوم . . . وهي علوم الدين واللغة حيث خلى من العلوم العقلية كالمهندسة والرياضيات والفلك والفلسفة والطب الأمر الذي جعل العلم في السودان خلال الفترة من القرن السادس عشر إلى التاسع عشر الميلادي لا يستطيع أن يقصر الظواهر الاجتماعية ويدوك التاريخ ويؤدي رسالته على خير وجه في إزالة بقايا الوثنية الفرعونية والديانة المسيحية وهذا ما نراه حتى اليوم في عادات الأفراح كالزواج والختان في أغاني الميرة وذهاب العريس إلى البصر والكثير من العادات خلال فترة الزواج أو العادات التي تسير خلال فترة الحداد على المتوفى . وكثير من التقاليد الاجتماعية تبرز فيها هذه الرواسب القديمة في أعراسه وفرعونه ومسيحيه وهي موجودة حتى الآن في تقاليد الزرع والبناء والأفراح والاحزان .

أما التجمع العلمي الذي حدث في السودان كما ذكرنا سابقا قام بعيداً عن العاصمة سنار رغم زيارة العلماء لها وأقامة بعضهم بها كالعامة الكبير عمار بن الخطيب الذي اشتهر بالعلم والمعرفة وهو من أشهر علماء سنار ثم منطقة أريحي التي ساعد ثراء حجازي بن معين على نشر العلوم بها . اقامة المساجد وهي قرب وفاته ثم منطقة المسانية باليل الأبيض التي قامت بها سبعة عشر مدوسة ودمرتها قبائل الشلك التي كانت تقيم في ذلك الوقت في منطقة النيل الأبيض ثم منطقة قرش عاصمة العبدلاب وما جاورها كالحلفاية وجزيرة توفى وشندي

— ٢٨٦ —

وبرير وهؤلاء لموقفها التجارى فى طرق القواعد التجارية الآتية من سائر وغرب
السردان ومن سواكن ومصر .

وكذلك منطقة الشايقية التى أحيا بها العلوم أولاد جابر وأرض
الدناقلة التى استفادت من دلم الشايقية ثم بعد ذلك الدامر حيث نشر الصوفية
حمد المجذوب ومنطقة السرويات حيث نشر السماية الشيخ أحمد العليم فى القرن
الثامن عشر الذى كان تضرر المجاذيب والسماية .

♦ . .

الحركة الثقافية قبل وبعد السلطنة السنارية

إذا أردنا البحث عن حال الثقافة العربية والإسلامية قبل وبعد السلطنة السنارية السنوية أى حتى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين فسوف نجد الجواب في مخطوطه ودضيف الله في حديثه عن تاريخ أريحي وسنار إذ يقول خطت مدينة سنار عام (٩١٠ هـ) خطاها المسمى عمارة ونقش وقد خطت مدينة أريحي (على الشاطئ الأيسر للنيل الأزرق) قبلها بثلاثين عاما إلى عام ٨٨٠ هـ . خطاها حجازى بن يعين ويقول ولم تشتت في تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن ، يقال إن الرجل يطلق المرأه وبن زوجها غيره في نهاره من غير عده حتى قدم الشيخ محمود البولاد راجل القصير العركى في مصر وعلم الناس العدة وسكن البحر الأبيض وبني له قصرا يعرف الآن بقصر محمود .

هذا يؤكد ما سبقناه أولا أن حياة الترحال والبداءة والبعث عن المدينة وعن مصادر الدعوة والثقافة في الجزيرة العربية عن هؤلاء العرب المسلمين أفقدتهم الكثير من تعاليم دينهم إذ لم تنهياً لهم حتى ذلك الحين الظروف ... المستقرة لتطور معارفهم وطلب المزيد مما عندهم بل كانت حياة التثقل والجفاف والمشاكل الكثيرة التي تعيش فيها القبيلة كفيلاً بمحو تلك التعاليم وتقابل تلك الروح الإسلامية التي ابتعدت عن أرض المسلمين ، وكانت كفيلاً أيضاً بمرور الأيام والسنين من ضياع كل ماحفظه الأوائل المهاجرون إلى السودان . إذ فقدوا أدوات التسجيل والكتابة وأبعدوا عن موطن المدنية والحضارة وعادوا بتدبيرهم إلى الخلف أكثر مما وصلوا إليه . فخلال الستة أو خمسة قرون من بداية دخول العرب السودان إلى أراضى جديدة وظروف غير مطمئة قلت إهتمامهم بالتعاليم والأساليب الحضارية التي وجدوها حين خرجوا

من الجزيرة العربية في العواصم العربية الكبيرة وعلى المدن الكثيرة على النيل .

كانت هذه الخمسة قرون خلال التجوال في الصحارى والوديان وضاف الانهار بحثاً عن مأوى أو مرعى كقبيلة باذابة كثير من خصائص هؤلاء العرب الرحل ومحاولتهم المستمرة للتأقلم على البيئة الجديدة ومحاولة التوفيق بين تعاليمهم وتقاليدهم وتعاليم وتقاليد الأرض الجديدة . حتى وصلوا إلى درجة من الافلاس والتهاون بالتعاليم الدينية التي ابتعدوا عن مراكز اشعاعها أن يطلقوا المرأة وبنو وجوها في نفس اليوم .

كانت تلك الزون الخمسة سنين تصفية لكل الاشياء الطبيعية التي أتت بها العرب وتركوها على ضفاف الوديان ورمال الصحارى وضاف الانهار ومارك القبائل والمجوعات الكثيرة . ومابقى لهم من التعاليم الاسلامية والثقافية العربية أصبح يسير ويتغير معظمه عندما جاء القرن السادس عشر كانوا أبعد الناس عن صورة المهاجرين الاوائل الذين لاقوا الكثير حتى يستقروا ويفتحروا الطريق للمهاجرين القادمين خلفهم .

والشيء الذي احتفظوا به هو روح الاسلام والايمان بالله : ولم يتهاونوا في الايمان بالله والاشراك به رغم انهم كانوا فقراء في تعاليمهم الدينية وما استطاعوا أن يضيفوه للحياة السودانية خلال هذه الخمسة قرون هو الايمان بالله وبعض الفرائض الاسلامية ونشروا ذلك في الأرض المسيحية والوثنية .

كانت الظروف الطبيعية هي التي مكنت على تعاليم العرب وحضارتهم بهذا

الانحدار في بداية دخولهم إلى السودان فقد كانوا في حياة مديشية أحسن بكثير من التي وجدوا أنفسهم فيها وكانوا وسط حضارة مدنية ووجدوا أنفسهم في حياة شبيهة بهائية وعليهم أن يبدأوا من أول السلم للبحث عن مأوى والتفكير في أساليب العيش في هذه الأراضي الجديدة وتعلم أسرارها وقوانينها . فقد كانوا في حياة شبيهة مدنية وعادوا متخلفين في أول سلم الحياة البدوية والفارق كبير بين مقومات تلك المدنية وأساليبها وبين الحياة البدوية شبيهة البدائية التي وجدوا أنفسهم فيها فهذا التخلف الذي استحدثوا إليه كان لابد أن يكون له عوامل إيجابية لامتصاص أكثر مقومات الحياة المدنية القديمة حتى يتأقلموا على الحياة البدائية الجديدة .

ونحن لانلوم العرب ولا نلوم التاريخ إنما قضت الظروف الاقتصادية لتلك المجموعات أن تتحرك إلى الخلف بتخلف الأساليب الاقتصادية والمعيشية .

هناك عامل آخر يجب أن نضيفه إلى هذه العوامل وهو طبيعة الجماعات البدوية . . . فرغم محاولتها للاستقرار لكنها لا تستطيع أن تفقد ذلك الاستقرار وتمتع به . . . فقد تطبعت القبائل على المشاحنات والقتال وهي في بحثها عن الاستقرار كانت تخلق عدم الاستقرار لمجموعات أخرى فهي لكي تستقر كان عليها أن تبعد مجموعة أو مجموعات من المكان الذي نود أن تستقر فيه . . . ولو استطاعت ذلك لظهرت بجمرة أقوى لابعادها عن هذا المسكن . . . وهي في طبيعتها لا تمتنع بالهزيمة ولا تنسى ، ولذلك تدب القلاق لمن خلق لها القلاق وعدم الاستقرار .

وعندما جاء القرن الخامس عشر الميلادي كانت قد تكونت مجموعتين

كثيرتين خطرئين في أخصب مناطق السودان . . هي منطقة النيل الأزرق .
وشمال ملتقى النيلين . . . سكنت هاتين المنطقتين مجموعتين عرفناهما فيما بعد
بمجموعة العبدلاب نسبة لعد الله جماع رئيس هذه المجموعة في نهاية القرن الخامس
عشر والمجموعة الأخرى بجمرة الفونج ورئيسها عمارة دونقس احتلت الأولى
منطقة ملتقى النيلين وشماله وجز من النيل الأزرق واحتلت المجموعة الثانية
الجزء الشرقي للنيل الأزرق وروافده .

كانت منطقة النيل الأزرق والجزيرة وشمال ملتقى النيلين من أخصب
المناطق السودانية . . . وانشأت بمساحاتها الشاسعة الغنية الفرص لهذه المجموعات
المتنقلة المتنافرة أن تستريح . . وكانت هذه الراحة بداية الحياة الجديدة وتاريخ
الاجتماع السوداني اذ هيأت لهذه المجموعات أن تتكاثر وان تنمو وان تتحد وان
تشارك في الحياة وبناءها وكان من الطبيعي ان تظهر زعامات لهذه المجموعات
التي سكنت الاراضي الخصبة الغنية . . . وعرفنا من المخطوطات عبد الله جماع
زعيم العبدلاب وعمارة دونقس زعيم الفونج .

للهياة المستقرة فوائدها وخيراتها وللجماعات المستقرة نشاطاتها وإهتمامها
وما أن استقرت القبائل واطمأنت لما حولها إلا وبدأت تبحث وتنتشط . . .
وكان هنالك طريق يغري للنشاط والحركة . . وهو طريق القوافل التجارية
بين مصر وغرب السودان والبحر الأحمر . . .

استقرت هذه المجموعات وكثرت خيراتها ومواردها وبدأت تبحث عن
أساليب المدنية . فالتجارة أحد الطرق لاستجلاب مظاهر المدنية مادام يتيسر

الحال وأرتاحت القبائل وزاد دخل الفرد وكثرت ماشيته وزرعه وكان أكثر الناس إستعدادا لهذه المهمة هم رؤساء القبائل لما عرفوا به من أنهم أغنى بمجموعاتهم في أغلب الأحيان .

وشارك زعماء المجموعتين في تيسير هذه التجارة مع البحر الأحمر ومصر وغرب السودان يتقاضون بمحصولاتهم وماشيتهم على منتجات مصر والميلدان الأخرى .

أغرى هذا الذشاط زعماء المجموعتين للاتحاد وفرض سيطرتهم على كل المجموعات التي تسكن النيلين والسهول والوديان حتى يضموا خضوع تلك المجموعات التي تمر قوافلهم التجارية بها . وحتى يكونوا هم حراسا لهذه القوافل ومسئولين عن سلامتها داخل أراضيهم . . .

وجاء عام ١٩١٠ م معلناً بداية حياة جديدة في حياة الجماعات التي تسكن السودان باتحاد العبد لاب ونكوين السلطنة السنارية وأعطاه الملك لعمارة دونفس وأمارة الشمال لعبد الله جماع الذي جعل عاصمته مدينة قرى شمال الحلفاية .

وإذا نحن حاولنا أن نعرف شيئاً عن تاريخ هذه السلطنة في المؤلفات التاريخية العديدة التي كتبت فسوف ندور في حلقة مفرغة كما يقولون ورغم الجهود المشكورة التي قام بها بعض الأشخاص الجادين دلى كشف تاريخ السودان فقد كانت كل محاور منهم هي في الحقيقة فتح باب جديد للخلاف والشك وأدخال القارىء أو الباحث فى شبكة من المغالطات حتى بات كتاب

تاريخ هذه الحقبة معقدة أمام كل باحث ومؤرخ لكثرة الروايات واختلافها ونقصانها وعدم وجود مصادر كاملة حقيقية فكل الروايات المنقولة بواسطة المخطوطات السودانية أو بواسطة الرحالة إلا جانب الذين زاروا السودان في القرن السابع عشر والثامن عشر لا نوافق أى منها الأخرى فكل مخطوطه أو رواية منقولة بواسطة الرحالة إلا جانب تختلف عن الأخرى.

ولو إلتقينا نظرة فاحصة على جدول تاريخ ملوك هذه السلطنة الذى جمعه الأستاذ شاطر البعيل عن مؤلفات بروس وكايو وكانب الشوقه وبريمو ونهرم شقير وفات على الأستاذ شاطر البعيل أن يتسفيد من تاريخ إبراهيم للصدى الذى أثبتته فى هامش مخطوطه ودضيف الله لو إلتقينا نظرة على هذا الكشف لما وجدنا أى اتفاق بين الخمسة المؤرخين حتى فى سنين حكم السلاطين ماعدا اثنين هما اسماعيل ولائفى فانظر اتاريخ سلطنة بها ثلاثون ملكا لم نستفيع حتى الآن أن

نقنما الكتابات التى وصلت إلينا عنهم على الاتفاق على نصف الحقيقة أو بعضها ولكن للأسف كلما وصانا دع أحدهم يبتعد عن الآخر مسافة بعيدة ويترك حيرة وتعباً للباحث والمحقق حتى بات أهل التاريخ ينتظرون معجزة من السماء لتكمل لهم هذا اللغز أو أن تخرج لهم الأرض بعض المخطوطات المدفونة وليكننا نستطيع إن نضمهم بأنهم لن يجدوا شيئاً من ذلك لو أطلعوا على مقدمة ودضيف حيث يقول (فقد سألتى جماعة من الإخوان أفاض الله علينا وعلمهم سمعنايب الاحسان وأسكننا وأياهم أعلى الفادين الجنان بجرمة سيد ولد عدنان أن تؤرخ لهم ملك السودان واذ كر فيه من الاعيان فاجبت . والله بعد الاستخارة الواردة فى السنة وبعد الإلهام مع أنه لم يكن لأسلافنا وأسلافهم وضع فى هذا الشأن إلا أن اخبارهم متوافرة عن الخاص والعام منها ما بلغ حد التواتر عندهم فأجبت

--٢٩٣--

أن أذكر هاتواتر وأشتهر من تلك الاخبار وذلك وأن الخبر المتواتر
عن الاصوليين من الاقسام اليقينية التي تفيد السلام بالشيء وتنفى عنه الشك
والظن والوهم .

فاذا اطعوا على هذا الجزء لاقتنعوا وبحرنا في توسيع الخلاف لأن عملية
التقارب أصبحت شبه مستحيلة إلا إذا تخلصوا على مخطوطات جديدة وهذه
المخطوطات الجديدة لن تكون قبل مخطوطه ودضيف الله إذ أثبت لنا دون أن
يفيض في الحديث عن نفسه ومؤلفه عن حالة الدراسات في القرن الثامن عشر
والسابع عشر والسادس عشر . . وهذا موضوع آخر سنأتى إليه عن تفاور الحركة
الثقافية خلال الحكم السنارى ولكنه قد رحم إعصاب الباحثين عن الكف عن
البحث عن مخطوطات قديمة قبل مخطوطته هذا الموضوع .

أما فيما يختص بهذه الدراسات إلى أى جانب نحتاج فأتنا نحار إلى محمد إبراهيم
الصديق الذى لم يطاع عليه كتاب هذا التاريخ وهو التاريخ الذى أنعمته على هامش
مخطوطه ودضيف الله والذى ظفوه ضمن الحوادث التى تملأ الكتاب وقد اعتمدنا على
تاريخ هذه المخطوطة لا اعتبارات كثيرة لس أحدنا زيادة قلق الباحثين والذين
سبقوا وكتبوا تاريخ هذه الساطية أو لموسم الشنة الواسعة من قبل (وزباده
الطين بلة) كما يقولون وإنما لأن هذا التاريخ مسبوقة به نظراً لكثرة النواحي
تحقيقاً واعتماداً على المصادر المخطوبة والمخطوطات الجديدة التى نشرت لـ إبراهيم
الصديق لا للإلحاح عليها ولم يتمسك بالشيء .

فاذا تابعنا مقدمة إبراهيم الصديق ومجهوداته الذى بذلها لتحقيق هذه
المخطوطة وإطلاقه على هذه مخطوطات محالية منها المخطوطة الموجودة عن

الشيخ خوجل الخليفة محي الدين بن الخليفة الأمين ونسخة الشيخ أحمد اليدوي
محمد الدولاب الكردي ونسخته الخليفة حسب الرسول ونسخة المستر هالمسون
مدير التاريخ سابقا بكلية غردون ونسخة عمدة نوق الشيخ أحمد إبراهيم عاير
ونسخة الشيخ أحمد عيسى و داد من أهالي بلدة مدني .

هذا المجهود والاعتماد على مصادر محلية عديدة ورغبة المحقق في إخراج هذا
العمل كاملاً يجعلنا نحترم مجهوده ونقدره ونقف بجانب مجهوداته التي لم يقف
عندها جميع المؤرخين .

• • • • •

الصوفيه والديانات الافريقيه

لا تنفصل الصوفيه الحقه عن الحركة العلميه بين المجموعات التى تنفشر بينهم
فأذا إستطعنا أن نفتتح بأن الصوفيه هى حركة علميه فى بدايتها لتطور علم التوحيد
لأستطعنا أن ندرك أنجاهات أى حركة صوفيه ظهرت فى البلدان العربيه بعد
معرفة نهضتها العلميه والثقافيه .

وأول سؤال نستطيع أن نسأله عن الحركة الصوفيه فى السودان ، علينا أن
نسأل عن الحركة العلميه والثقافيه فى السودان وهى كان فى إمكانها إحضار هذه
الحركة الصوفيه العلميه الاحتضان السليم والسير بها نحو السكال أم إن الظروف
العلميه والثقافيه كانت فى مستوى أدنى من إحضار هذه الحركة مما معمد
للانحراف فيها

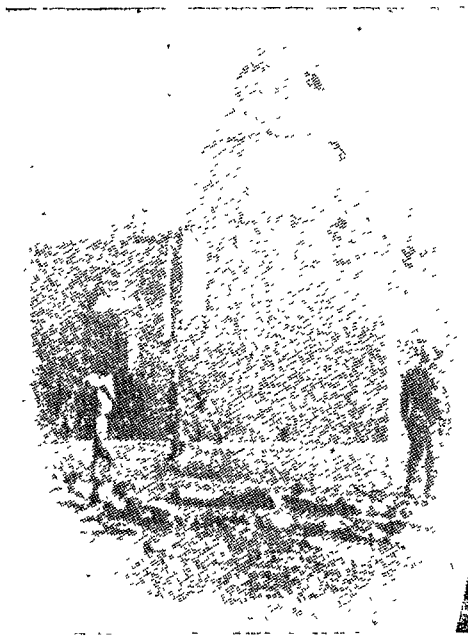
يجب علينا أن نقيم الحركة الصوفيه فى السودان التقييم العلمى الصحيح لأن هذه
الحركة دخلت السودان منذ القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادى وانتشرت فى
السودان بشكل ملحوظ وكان لها أثر كبير على الجماعات والافراد وما زالت توجه
حتى اليوم الكثير من افكارنا وثقافتنا ولها أثر كبير فى معتقداتنا وأخلاقنا
وطبائعتنا وتطلعاتنا . فأذا إستطعنا أن نقيم المجتمع السودانى حين دخول
الصوفيه وخط سير هذه الصوفيه بالنسبه لظروف المجتمع التى وجدت نفسها
فيه نستطيع أن نتنبع بأرتياح محيره هذه الصوفيه ان كان نحو الكمال أو نحو
الانحراف .

ولذا أردنا أن نهت عن الظروف العلميه والهيئه العكريه التى تستطيع

أن تحفظ هذه الحركة من الانتكاسة والاتجاه بها أنجاهات غريبة . فالجواب لا يحتاج إلى أدلة كثيرة .. فيكفي أنه حتى نهاية القرن الخامس عشر لم تكن بالسودان مدرسة قرآن واحدة ، حيث وقف المشرع العالم الاسلاميه حتى أفلس الجماعات المسلمه من أدراك تعاليم الدين ولا نود أن نستشهد بآدله أستشهدنا بها في مكان آخر ، وما نستطيع أن نقوله أن حركة العلم حتى نهاية القرن التاسع عشر لم تكن في المستوى الذي يستطيع أن يناقش ومهمم ويتطور علم التوحيد الذي هو أساس الصوفيه (حديث أبو القاسم الجنيد صفحه ٢٢٢ يشير الى هذا المعنى)

فإذا أردنا أن نسمح الحركة العلمية في السودان فلن نجد غير بعض الكتائب (الحلوى) التي أنشأت بمجموعات فردية على يد الشيخ إبراهيم البولاد المصري بدار الشايقيه ثم الشيخ محمود راجل القصير بالنيل الأبيض والمعلم الأول الشيخ تاج الدين البهاري البغدادي الذي دخلت الصوفيه للسودان على يديه في القرن السادس عشر ميلاديه تاريخ ملكة سنار (النصف الثاني من القرن العاشر) الهجري كما جاء في تاريخ حياته في عهد الشيخ عجيب الذي تلمذ على يديه وحجازي بن معين من أربجي .

فقد ارتبط لاسم تاج الدين البهاري بأسم الشيخ حجازي بن معين الذي خط مدينة أربجي عام ٨٨٠ هـ ونلجأ إلى افتراض واحد وهو أن الشيخ حجازي بن معين كان من المعمرين لأن حضور الشيخ تاج الدين البهاري البغدادي كان بعد عام ٩٦٠ هـ أي حضر بعد ثمانين عاما ويعني ذلك أن بناء حجازي بن معين لمدينة أربجي كان بعد ثمانين عاما ويعني ذلك أيضا أنه شيد أربجي وعمره لا يقل عن الثلاثين عاما وحين تلمذ على يد تاج الدين البهاري كان عمره فرق المائتين ثم شيد مسجد أربجي بعد ذلك في أول النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي .



قبة المهدي . . . صباح اليوم
الثاني من معركة يوم ٢/٩/١٨٩٨
قصد بتهديمها لادخال الرعب في
قلوب الدراويش
الصورة تحكي أثر الروح الصوفية
وقاومة العلم لتلك الروح التي
وحدت نصار المهدي خلفه



العرب في كردفان بعد
سلطنة دار فور وتأثرهم بـ
وسط أفريقيا

— ٢٩٩ —



نهاية الثورة المهدية التي قاومت الأسلحة الحديثة بالإيمان والتصحية بالروح .
مخالفة أبلغ صور البطولة الصوفية .

— ٣٠١ —



صوره من صور الاستشهاد الروحي ومقارنه الاستعما وا مكانيات العلم
الحديث .

في سمادة وطعاً نيته وقد جسد البطل الامير أحمد فضيل .

— ٣٠٣ —



موقفه ام ديبكرات، آخر مواقع الثورة المهدية حيث رقد جسد خليفة المهدي
مستشهداً بين جنوده

هذا يكشف لنا أن الشيخ حجازي بن معين حين خط مدينة أريجي كان من أغنى رجال مجموعته الأمر الذي مكّنه من إنشاء هذه المدينة ويؤكد لنا ذلك دعوة الشيخ تاج الدين البهاري له بالغنى لذريته من بعده وهي ذرية كبيرة لاشك وقد عرف الغنى أكثر ما عرف عنه رجل دين وأن كان قد بنا أول جامع وهو جامع أريجي فلا يعني ذلك أنه كان أكثر الناس صلاحاً وورعاً . . . فقد كان مركزه المسالى والاجتماعى يفرض عليه أن يقوم بمثل هذا العمل الاجتماعى . .

من ما تقدم يثبت لما أن العالم والصوفية دخلوا سوريا للسودان في القرن السادس عشر الميلادى على يد الشيخ تاج الدين البهاري الذي حين جاء لم يجد كتاباً أو خلاوى لنا وجد الاستعداد الكبير للمعرفة وفي فترة وجوده بالسودان علم الدين من الشيخ الذي أنتشروا في أراضى السودان وقاموا برسائله .

وإذا أردنا أن نجد صورة الصوفي الذي نشأ في السودان فإن نجد تلك الصورة وذلك الصوفي الأول الذي عاش في بغداد وسط الحضارة العربية والعلوم وكرس حياته للعلوم والمناقشات العلمية والفلسفية ومسائل الوجود والعدم والقدم والحديث وأما سنجده صورته قاضى العدالة والصراع بين رجل العلم والشرعية وبين الصورة الجديدة التي ظهرت في السودان لرجل الصوفية في شخصيه الشيخ الهيم .

ونحكي القصة أن دشن قاضى العدالة المولود بأريجي أحد الأربعة أضاء الذين ولاهم الشيخ عجيب تلميذ الشيخ تاج الدين البهاري بأمر الملك دكين حين قدمه من المشرق ويبدو أنه يعنى بالمشرق الحجاز وما رآه في المجتمع الإسلامى في

الجزيرة العربية ووجوب قيام مثل هذه الوظائف ليحكم في الناس بالشريعة
وهم أول قضاه في السودان .

ولى الشيخ دشين قاضيا على أريجي والشافعية عموماً . ومارس هذا العمل
حسب الشريعة وقد استعظم في أئناد حكمه شخصية من الشخصيات الصوفية
الغربية التي ظهرت في السودان . وهى شخصية الشيخ الهميم الذى يقال أنه في
حالة انجذاب تزوج أكثر مما سمح به الشرع أى زاد على أربعة نساء في وقت
واحد (والقصة في جاب تكثف بأن الذين رضوا أن يزوجه من نساءهم بعد
الأربعة كانوا ولا يفقهون شيئاً في دينهم ، ولم يمتنع المجتمع ضد هذه العملية
المتنافية للدين . . وبجانب فقد تزوج أخين من بنات أبو تدوده من رفاعه
مخالفاً بذلك الشريعة في نكاح الاختين في آن واحد ، كما جمع بين بنات الشيخ
بأن النقا الضير كتوم وخادم الله . وبأن النقا رجل أخذ الصوفية على يد تاج
الدين البهارى وأخوه سندال العاج كبير الفونج ورغم ذلك زوج الشيخ محمد
الهميم أخواته الاثنتين في آن واحد .

وتبدأ القصة حين قدم الشيخ محمد الهميم إلى أريجي يوم الجمعة وحضر الصلاة
بالجامع . وعند انتهاء الصلاة خرج دشين قاضى العدالة وصادف محمد الهميم
وقبض على لجام فرسه وقال له خمت وسدست وسبعمت ما كفالك حتى تجمع
بين الاختين فقال له الهميم ماذا تريد . فرد عليه دشين أريد أن أفسخ نكاحك
لأنك خالفت كتاب الله ورسوله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له الرسول
أذن لى والشيخ أدرىس ليعلم . . وكان الشيخ أدرىس حاضرا فقال لدشين أترك
أمره وخله ما بينه وبين ربه فقال دشين ما بهل أمره وقد فسخت نكاحه فما
كان من الشيخ محمد الهميم إلا أن دعى على دشين وقال له فسخ الله جلدك .

— ٣٠٧ —

ويقال أن دشين مرض بعد ذلك وعلمها البعض أنها دعوة الشيخ محمد المهتم إلا
أنه لم يؤد إلا إيماناً وقيمة بعدالة الشرع حتى جاء فرح ولد تكتوك وقال فيه .

وبن دشين قاضي العدالة الما يعمل للضلاله

نسله نعم السلا الا وقدوا تار الرساله

هذه صورته رجل ادعى أنه صوفي وصالح وخرج على تعاليم الدين ولم
يستطيع إلى شخص أن يقف امامه وذلك لأن الصوفيه ادخلت في عقول الناس
أنهم أولياء الله وأنهم يستطيعون أن يضروا البشر وما يقولونه من دعوات نافذ
في البشر . وانطاعت صورته في ذهن الناس بأنه صاحب العقاب الرادع وكاشف
الاسرار مع أن الصوفيه الأوائل لم تظهر عليهم هذه العلامات وهذا الانجاء
تحو مضره الآخرين والانتقام منهم والدعاء عليهم بالمعصية السيئه . . . وهذا
الافتقاد له مبرراته إذا استطعنا أن نجد دور الشخصيات الدينية في السودان
تقبل ظهور الاسلام والعرب ولما كانت إمكانيات تلك الشخصيات إلى شخصيات
جديدة في ثوب جديد .

وجد تاج الدين البهاري حين قومه السودان بعد أن ترك بغداد حاجاً .
وربما حضوره للسودان كان بناء على دعوة إمام رجال السودان الميسورين وطبقة
هتهم أن يتقدم الاسلام بنشر العلوم الاسلاميه بين أولئك المتعطشين لهذه
العلوم ولقي الشيخ تاج الدين البهاري كل ترحيب وتقدير لما للشخصيه
الدينيه من مكانه عند هؤلاء الرجال ، كما كان يمثل هذا العالم من معارف
وهو يحفظه من علوم لم تصل لسكان السودان في تلك الحقبه فكانت تمثل هذه

الشخصية، وما لها من علم تلفت الأنظار وتبهر العقول إذا من صفات العلم والمعرفة أن يخاف الاندهاش عند الجاهل إذ يعطيه العلم بعض الحقائق البسيطة التبريرية عنه ولا يستطيع أن يتوصل إليها ويعطيه الحلول للأشياء التي تورق العقل الإنسانى إذ من صفات العقل أن لا يكف عن التساؤل والبحث . والخبر أنك بمجرد بضع العقل فى حيره والمعرفة تربح العقل من هذه الحيرة والفاق .

جاء تاج الدين البهارى وبذر بذرتين . أحدهما تشجيع القراءة وفشر العلوم الدينية وحفظ القرآن والاخره نشر فكرة الصوفيه . وقد وجد الشيخ تاج الدين البهارى أرضاً غير صالحه لدعوته الصوفيه الامر الذى جعل دعوته للصوفيه لا تقوم على أسس علميه سليمه بل أخذت من ملامح الشخصيات الدينيه القديمة التي سنتحدث عنها فيما بعد وهى الديانات الأفريقية وخاصة الشخصيات الدينية فى غرب أفريقيا والعبادات الفرعونية والرهبان . إذ كانت كل هذه الشخصيات غامضة تحيط بها هالة من العموص والاسرار بعيدة عن إدراك عامة الناس الامر الذى وضع بقية الناس ينظرون اليها نظرة غريبة فيها كثير من الحيرة والدهشة فشخصية الكاهن الفرعونى كانت غامضة بالنسبة لبقية الناس وقد سلموا له عقولهم وامنوا بكل سرقاته وتصرفاته ثم شخصية الكاهن وصوفيه المتراضعه الجديدة وحضرو الناس اليه وتاديم الاعترافات له .

لم تجد صوفية تاج الدين البهارى وبقية المدارس التي دخلت لم تجد العلم الكافى للوقوف ضد الاعترافات بالدين بل أننا لنجد فى كثير من تصرفات رجال الصوفية من يدعى المعجزات التي هى خاصة بالانبياء وحدهم واتنا نجد مثل الكاتب ووصيف الله لا يفكر لمثل هذا الاعترافات بل بثبت اليقين بخطوطه مثل هذه المعجزات دون ان يعاق عليها ولا يستطيع ويفرق بين ما هو مسير للشرع ومخالف له .

لا يمكن لنا بأى حال من الأحوال إذا أردنا أن ندرس الشخصيات الدينية الإسلامية بعد دخول العرب ودخول الثقافة العربية والإسلامية وبداية دخول أهلوم العربيه فى أوائل القرن السادس عشر علينا أن نتبع الشخصيات الدينية القديمة التى عاشت فى النيل وفى إنترقيا ونحن نرى حتى اليوم شئ فى أثار تلك الشخصيات الدينية القديمة فى أعمال السجر والشعوذه ولإعتقاد الناس فى بعض الشخصيات فى شقاء الناس عن طريق التعاون القديمة وإيمان الناس فى قدرة بعض جذوع الأشجار على شفاء بعض الأمراض وقد هه على الحاق كثير من الأذى وقدره الناس على التشكل بأشكال الحيوانات وكل هذه المعتقدات التى ما زال يعيش بعضها فى بعض القرى هى بقايا من تلك العادات الدينية القديمة التى عاشت على النيل وعند قبائل الداجو وقبائل اعالى النيل وكما هو واقع لم تحدث عملياته تصفيه حتى الآن للعادات والمعتقدات الدينية القديمة والصور الدينية التى عاشت فى أفريقيا . إنما حدثت عملية مصالحة وأمزاج بين العادات والتقاليد والمعتقدات الدينية الوثنية العادات المسيحية والإسلامية لان العرب المسلمين الذين دخلوا السودان لم يدخلوا فاتحين أفواياهم يفرضون سيطرتهم ومعتقداتهم على السكان إنما كانوا طلبة ملجأ ومأوى لذا لم يكونوا فى مركز يسمح لهم بمحاربه معتقدات الأهالى إنما حدث النوافق بين الاثنين قبل هؤلاء من السكان بعض العادات التى لاتمس رجواتهم وعاداتهم العربية وقبل السكان من العرب البقاليد والحيادات التى لا تقسو على ماضيهم الدينى وقد كانت عملية فيها شئ من اللين والمصالحه لخلق بيئة جديدة ترغب فى العيش فى سلام . . . ويدوا أن تعدد للمعتقدات الدينية فى السودان من وثنية إفريقية وفرنونية ومسيحية جعل إضافة معتقدات دينية جديدة من المجموعات الجديدة أمر مقبول إذ لم تحدث عملية قومية لمحاربة المعتقدات القديمة أو صراع حاد والتقدم الدينى الذى حدث، حدث تدريجياً وبطيئاً . . .

وإذا حاولنا أن نبحث عن بعض الشخصيات الدينية اليوم الى تمارس بعض الأعمال القديمة التي كان يقوم بها رجال الدين عن قنائل الداجو سكان وسط إفريقيا منها شخصيه (الكجود) التي تدعى اليوم أنها تمارس هذه الأعمال من وحى التعاليم الاسلاميه ومما أضافته للشخصيه القديمه بعض إمكانيات الدين فالكجود ماذا يستعمل الوسائل الدينيه القديمه لعلاج بعض الامراض وماذا قال الناس يعتقدون في بعض هذه الأعمال ومما شاهدته من أعمال هذه الشخصيه حين مرضت إمراه أحضر لها هذا الكجور وأحضر معه مقشه (وبخه) وكوكاب وحريه وقال للمريضه أن هنالك عملا سحريا قد عمل لها وأن جسمها بعض الهرق السامه التي غرست في جسمها وأجلس المريضه بعد أن كشف عن جسمها الا على وصار يضرب بالمقشه على جسمها وظهها وتساقطت قطع من غيره من ترقيقه الشجر ثم صار يمس على مواضع معينه في جسمها ويخرج من فيه بعض الهرق الرطبه وهما المريضه أن هذه الهرق كانت بجسمها . وفي أثناء ذلك كان يستعمل بعض التماوند الإفريقيه القديمه وبعض الآيات القرآنيه . ثم سد على البخره ووضع الحريه والكوكاب على جسم المريضه وصار يقوم ببعض الحركات وترتيل الشعر والتماوند القديمه ثم بعد برهه فتح البخره وأخرج منها بعض العظام القديمه وبعض الشعر وبعض الاسلاك وبعد ذلك شعرت المريضه بالراحه والقوه وكل هذه الاشياء التي قال إنها كانت في جسم المريضه هي نفس الاشياء التي كان يعتقد فيها سكان إفريقيا ويقدم بها رجال الدين وسحره إفريقيا ولوراجعنا كتاب « هو بيرديمان » عن الديانات في أفريقيا السوداء رغم ما فيه من الاخطاء الكثيره وبعد الكتاب عن حياه إفريقيا وعدم استطاعته لإمام بخفايا حياه الشعوب الإفريقيه إلا أنه يعطينا صورة

طيه للمعتقدات القديمة عند قبائل النجاو وأعلى النيل والكبكيو بكينيا والسواحيلي
بتانجانيقا والبانتو والباسوتو والسوازي بجنوب إفريقيا والهورتوت والدمارا
بجنوب غرب إفريقيا والبوشمان بهضه أفريقيا واللوندا بالننغو والبالاى بنهر الكونغو
وكذلك الأزنده والابادا والمانجا لالا فيموندو بجنوب غرب أفريقيا والكانورى
والهوزا والباونشى واليوربا ولا بانجى والشارى البامبنيكه بوسط أفريقيا
والاشانتي ويدجون والتوجو والفنى والخابوا واليدوا المندى والمندانج والتوكاير
والالوف والباله والسو منهارى بغرب حوض النيجر .

انتشرت الديانات الافريقية القديمة والسحريه بين كل هذه القبائل وخاصة
فى وسط إفريقيا وعرفها سكان السودان قبل الحضاره الاسلاميه والمسيحيه
وتمتلك تلك الديانات مع الوثنيه الفرعونييه فانشرت فى روع السودان
ولازمت ١ - الحضاره الفرعونييه لآ أن مركزها الأصلى كان جنوب أرضى
الجزيره بين قبائل الشكل وأعلى النيل وغرب السودان وقبائل النجاو والتوجو
والكنجاره والبراجوب .

وقد بدأت الديانات الوثنيه وتصاحبها فكرة السحر لحاجه الانسان لفهم الطبيعه
وفهم غرائبها .. وقد استغل بعض الافراد الموهوبين أو الذين اعطتهم الطبيعه
بعد القدرات الحارقه للأحاساس بخفايا النفوس ويتولوا تفسير تساؤلات الناس
عن الطبيعه وعن الجهاد والأمراض وقد اختص بعض الملوك ببعض هذه
الصمات وجند بعضهم بعض الموهوبين للقيام بهذا الدور فى معرفه امراض الناس
وخفايا تفكيرهم ونفوسهم وقد استطاعوا بأعتقاد الناس لقدراتهم أن يشجعوا
لحد بعيد فى تهديه كثير من الحالات أن كان بالآثير النفسى أو الخداع أو العقاقير

المستخرجه من النباتات أو استعمال التعاويذ وقد ساعد على إنتشار هذه العادات أستعداد الناس لتقبلها وخوفهم من معارضتها أو الوفوف أمام السحرة اذ هو العين وقد أثبتت الدراسات أن الديانات الافريقية الأولى لا تختلف كثيراً عن ديانه الفراعنه أو الإغريق فكثير من الرموز تتقاربه حيث تشابه الحياه الزراعيه والرعويه في كل من النيل واليونان وعند القبائل الافريقيه ولذلك كان وجه الشبه بين هذه الديانات أمراً طبيعياً لنشابه الظروف الطبيعيه والمعيشيه . إلا أن القبائل الافريقيه أختصت بتعدد الآله والعيادات وذلك لتعدد القبائل وعدم خضوع هذه القبائل لسلطان واحد تعطيه كل السلاطات الدينيه والاجتماعيه، كما كان عند الفراعنه كما أعطى هذا التعدد للأفراد الافريقيين كثيراً من الحريه وكان باستطاعتهم التقدم والتطور أكثر من الشعوب الأخرى التي صنعت حضاره النيل والاعريق والرومان إلا إلا النظام الاجتماعى والاقتصادى الفردى حد فى توحيد إقتصاد القبائل الافريقية فى حين سخر الامكانيات الاقتصادية فى النظام الملكى الفرعونى أو النظام الاجتماعى الاغريقى والرومانى إلى احترام الدوله والرؤساء والابطال إلى تجنيد كل إمكانيات تلك الشعوب لصالح تلك الحضارات التى تمت على شمال وشرق وجنوب والبحر الابيض المتوسط .

ونحن لانستطيع أن نفصل الديانات التى قامت فى السودان عن الديانات الوثنيه إذ لم تقم أى منها حتى الآن بحمله منظمه لطرد بقايا تلك الأديان الوثنيه القديمه التى إشتربت فى عبادات جماعيه للطبيعه وتقديس للحيوان والاعتراف بسلطان بعض الافراد على فهم أسرار الطبيعه والقيام بدور الراهب . والساحر ونحن نرى ذلك واضحاً فى الصوفيه وطقوسها التى لا تختلف كثيراً عن الطقوس الافريقيه القديمه كما أخذ بعض منهم فكرة التسايط والحق الأذى بالغير وأستعمال التعاويذ لعلاج الامراض أو إلحاق الضرر بالغير إذا علمنا ان هؤلاء

الأشخاص إن كانوا من السكهنة أو السجره الأفريقيين أو رجال الصوفيه الذين قلدوا شخصياتهم وادركوا الضعف الاجتماعى العام للتصدى لهم . ونحن لانستطيع حتى الان أن يجعل بعضهم يعترف بسر مهنة سر هذه الثقه وهذه المقدره للنجاح فى بعض الامور وهى لاشك انت عن طريق رياضه روحيه قاسيه وتعاليم معقده وقرءات سرية خاصه تحتقده بآله للشر وآله للخير وأن هنا لك أسراراً يستطيعون بها التوصل إلى آله الشر والى الخير . وقد احتلت عبادة الحيوانات جزاء كبير فى : مسموح والثعبان كما كان يهدد الفراغه القطه والنسر والسهره وأنواع عديده من الحيوانات .

نشأة الصوفية في الاسلام

الصوفية هي مذهب المجتهدين من العلماء المسلمين في حقائق الـكون وارجاع كل شيء إلى خالق واحد هو الله سبحانه وتعالى مالك الملك . مذهب الصوفية هو عام للتوحيد . . وعالم التوحيد لا يقوم على الرؤيا الجاهلة أو الوهم وإنما يقوم على الحقائق وكشف أسرار الوجود وربط كل شيء بخالقه .

هذا هو مذهب الصوفية الأرائل الاجتهاد في علم التوحيد ، التزود بالعلم والمعرفة بـحقائق الحياة ، وامتحان كل حقائق الوجود ، ولا يقوم هذا الامتحان وهذا الكشف بمجرد الرؤيا ، أو الوهم ، وإنما يقوم على الدراسة ، الدراسة التي تشبه التحليلات المعملية لاثبات صحة الحقائق واستخلاص النتائج السليمة وهو أعلى مستوى من العلوم الاسلامية إذ يتطلب من طالب علم التوحيد ، أن يكون ملها بكل معارف الوجود بالفلسفة والطب وعلم الفلك والرياضيات رسائر العلوم الارلية حتى يستطيع أن يرد على كل سائل وعلى كل صاحب رأى مخالف بالاقناع ، والمنطق والحجة . . .

كان هذا حال العلماء المسلمون في عصر النهضة الفكرية العربية وازدهار العلوم والمعارف ولا يمكن أن يتطور علم مثل علم التوحيد الاوسط تطورا كافي العلوم ولا بد من وجود الامكانيات العلمية لتفسير كل الظواهر الطبيعية .

لم تظهر الصوفية في عصر تدهور الفكر العربي كما يقصور البعض ولكن تدهورت الصوفية بتدهور الفكر العربي وخمود المعارف وقلة الاجتهاد وانعدام

العلوم حينما بات علماء التوحيد وأهل الصوفية يستعملون أدوات غير تلك التي كان يستعملها رجال العلم من الصوفية الأوائل في حين كان العلم هو السلاح الوحيد للصوفية أصبح الوهم والرؤيا وخطرهما والأحلام وتجريداتها هي أداة رجال الصوفية في مجال علم التوحيد وإثبات وحدانية الله .

يقول الامام العالم أبا القاسم عبد الكريم هوazin القشيري في اعتقاد الصوفية في مسائل الاصول واعلموا أن شيوخ هذه العائفة بنوا قواعد امرهم على أصول صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم من البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السمة في توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل وعرفوا ما هو حق القوم وحققوا ما هو نعم الموجود من العلم .

وقد أخذ بعض الصوفية مثل هذه العبادات دون اجتهاد مرعاه وظنوا أن التوحيد يأتي من الاطمئنان لصفاء السرور وبدون صفاء العقل الذي لا يكون صفاءه الا بالعلم . . لان اثبات وجود الله درجات أعلاهم درجة ذلك العالم المؤمن الذي عرف حقائق الكون وتجرد من كل شيء بمعرفة كل الحقائق فامن بعقله وقلبه . . وهذا هو مذهب التوحيد الذي اجتهد رجال الصوفية الأوائل فيه بالعلم ، ووقفوا عند كل شيء بالدراسة والتحليل والتعامل بعنقوا المعاني أشباه خفية وانما جعلوا لكل شيء معنى واضح ثم أتى بعدهم طائفة من المريدين وقف علمهم عن ادراك معاني هؤلاء العلماء فتوهوا معانيها وساروا بها دون علم عن طريق البصيرة وظنوا أن الرؤيا والوهم هما السبيل الصحيح للكشف عن خفايا هذه المعاني والكلمات ليفهمها قلة من الناس من صفى إيمانهم ولكنهم لم يدركوا أنهم وضعوها ان كثر علمه وصفاء إيمانه حتى لا يقع في حبال الشرك والأوهام .

ولو وقفنا الآن عند التعريف البسيط للصوفية القائل الصوفي هو من الذي صفا عن الأخلاق المذمومة وتخلق بالأخلاق المحمودة حتى أحبه الله وحفظه في جميع حركاته وسكناته . . .

ولقد كان لمثل هذه المعاني المختصرة ولكثير من كلمات رجال الصوفية الاوائل التي قالوها للخاصة فانتشرت عند العامة كل أسباب تدهور الفكر الصوفي فظن البعض أن الصوفية هو صفاء السريرة ولكن كيف يتحقق هذا الصفاء وقد ظن البعض أن مجرد أداء الفرائض العادية للمؤمن يكفي لجلب هذا الصفاء وفات عليهم أن تحقيق هذا الصفاء لا يكون إلا بتصفية حقائق الوجود ودراستها والتأكد من كل خاطر وإثباته علمياً ولكن البعض ظن الرؤيا أو الوهم هما ما يعنيه علماء الصوفية بالصفاء وإن الاحساس له يكفي للكشف أشياء كثيرة لصاحبه .

وبانت الصوفية عند المريدين هو استجلاء كلمات رجال الصوفية وظنوا أن فيها شيئاً لا يدرك إلا أهل البواطن ولا يدرك معاني كلماتهم إلا من توفرت لهم أسباب كشف الغيب ولم يدركوا أن الصوفية هي تطور لعلم التوحيد بعلم والمعرفة وليس الوقوف عند كلمات رجال هذا العلم والظن بأن أساليبهم معاني خافية لا يتوصل إليها إلا القلة وهو وهم كاذب فعلم التوحيد لا يقوم على هذا الظن وكل صوفي لا يعلم يعلم التوحيد ويضيف إليه شيئاً من عنده لا يعد صوفياً . . .

قال زعيم الصوفية الأول الامام أبو القاسم الجنيد وهو ببغداد في أوج ازدهارها في عصر الخليفة العباس في تفسيره للتوحيد . التوحيد هو أفراد

القديم من الحدث واحكموا اصول العقائد بواضح الدلائل ولائح
الشواهد . . .

هذه دعوة علمية لاثبات وجود الله بالحقائق والشواهد
قال سمعت أبا حاتم الصوفي يقول سمعت أبا نصر الطوسي يقول سئل روي
عن أول فرض افترضه الله عز وجل على خلقه ما هو فقال المعرفة اقله جل
ذكره وما خلقت الجنس والانسان الا ليعبدون قال ابن عباس الا ليعرفون .
ونحن نرى هنا ان عباس يفسر كلمة يعبدون بيعرفون وذلك لان العبادة
الصحيحة لا تأتي الا بالمعرفة إنما الإيمان بدون علم ومعرفة إيمان لا يقوم على
المعرفة والعلم . ويقول الامام أبو القاسم الجنيد أن أول ما يحتاج إليه العبد
من عقد الحكمة معرفة المصنوع صانعه والحدث كيف كان أحداثه فيعرب من
صفة الخالق من المخلوق وصفة القديم من المحدث وبذل لدعوته ويعترف
بوجوب طاعته فإن لم يعرف مالكة لم يعترف بالملك لمن استوجبه ويقول الجنيد
كذلك في معنى التوحيد قال أفراد الموحدة بتحقيق وجدانيته بكل أحديته أنه
الواحد الذي لم يلد ولم يولد ينسب الاضداد والانداد والاشباه بلا تشبيه
ولا تكيف ولا تصور ولا تمثيل . وهذه دعوة لاثبات وجود الله عز وجل عن
طريق امتحان الحقائق العلمية .

وما قاد لانحراف البعض في تفسير معاني رجال الصوفية الاوائل أنهم
أهتموا بمسائل فلسفية تهم الخاصة من رجال العلم وذلك حين تعرضوا لمسائل
ما وراء الطبيعة مثل الحدث والقديم .

وخرجت كلماتهم ومعانيهم هذه إلى المريدين غير المطابق على العلوم

الفلسفية فتقصر علمهم من عندلوها وفهم معناها وظنوا أن في العلم باطن وظاهر
أحدهما بالاجتهاد وآخر بدون اجتهاد ووقفوا عند المعاني الفلسفية وظنوها
كلمات روحانية نزلت على مؤلفيها من الأئمة في ساعة نبلى كشفت لهم عن خباياها
الوجود واسرار الحياة ولم يدركوا أنها فلسفة ما وراء الطبيعة وانها علم يقوم
على الاقتناع العلمى .

يحكى عن يوسف بن الحسن قال : « قام رجل بين يدي ذى النون المصرى »
فقال « أخبرنى عن التوحيد . ما هو » فقال « هو أن تعلم أن قدرة الله تعالى
في الاشياء بلا مزاج وصنعه للاشياء بلا علاج ، وعلة كل شىء صنعه ولا علة
لصنعه ، وليس في السموات العلا ولا في الارض السفلى مدبر غير الله وكل ما تصور
في وهمك فالله بخلاف ذلك » . . .

ويحكى كذلك ما وصل إليه حال الصوفية من بعضهم له علم الغيب حتى
انتشرت هذه الفكرة بين المريدين وغير المريدين وكان لها خطرها الكبير
في هدم أساس هذا المذهب وادخال الدجل عليه وإعطاء قوة لم يؤمنوا
بها ولم يدعوا إليها . . . قال جاء رجل إلى ذى النون المصرى
وقال له أدع الله لى فقال ان كنت قد أيدت في عالم الغيب بصدق النوحى -
فكم من دعوة مجابة قد سبق لك وإلا فأن النداء لا ينفذ العرقى وقال
الواسطى ادعى فرعون الروبيقوبية على الكشف وادعت المعتزلة له الستر
تقول ما شئت فعلمت . . .

ولذا تصورنا تطور الفاسفة اليوم والامكانيات العلمية الكثيرة التى

- ٣١٩ -

تستغلها لمكشف الحقائق وما كانت عليه في القرن الثالث والرايح الهجرى عند العرب لوجدنا الفسارق العلمى الكجبر بين الفلسفة اليوم والفلسفة بالامس فقد اختفت آراء رجال الفكر الاوائل وسقط الكثير منها أمام تقدم الفكر اليوم وهذا لايسىء الاقدمية بشىء وانما يثبت ان العلم فى الفكر فى تطور مستمر وكلما تقدم النعالم كلما تقدم الفكر وذلك كيلا نعلم بأراء المجتهدين من علماء الصوفية الاوائل لان العلم لاحدود له .

.....

الصوفية الأوائل

أبو اسحق بن ابراهيم بن آدم بن منصور

أول من ورد ذكرهم من الصوفية ، هو أبو اسحق بن ابراهيم بن آدم بن منصور . كان من أبناء الملوك ، وأول من ترك حياة الغنى ، وأعطى ما كان معه لراعيه ، وليس جبة الراعي المصنوعة من الصوف ، مما جعل البعض يعتقد أن كلمة للصوفية مشتقة من لبس الصوف الدال على الزهد في الدنيا ومعنى الصوفية غير ذلك كما جاء على لسان أئمة الصوفية وهو الذي صفا عن الاخلاف المذمومة وتخلق بالاخلاق المحمودة ولا يشترط أن يلبس الصوف لأن أئمة رجال الصوفيين من علماء بغداد والذين عاشوا بهما لم يلبسوا هذا الصوف .

ومن أخبار أبو اسحق وأثاره أنه قال لرجل وهو بالطواف علم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات ، أولاها تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة ، والثانية تغلق باب العز وتفتح باب الذل ، والثالثة تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد ، والرابعة تغلق باب النوم وتفتح باب السر والخامسة تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر والسادسة تغلق باب الامل وتفتح باب الاستعداد للموت ، ...

هذا طرف من فلسفة الصوفية الاوائل الذين كانوا ينظرون للعالم نظرة أقرب لنظرة الربان اليها وذلك عند بداية الحركة الصوفية الا أن هذا لم يكن يشمل فلسفة الصوفية في الوجود والتوحيد وانما كان هذا رأى فرد منهم في

حياة الفرد وقد جاءت أخباره أيضا أنه كان يحرس كرما فر به جندي فقال « أعظمتنا من هذا العنب » فقال « ما أورتني به صاحبه ، فاخذ يضربه بسوطه فطأ رأسه وقال « اضرب رأسا طالما عصى الله » فاعجز الرجل وهضى

أبو الفيض ذو الذنون المصري :

اسمه ثوبان بن ابراهيم وقيل الفيض ابراهيم وأبوه كان نوبيا توفي سنة خمسة وأربعين ومائتين هجرية من أئمة الصوفية ، وواحد وقته ، علما ، وورعا ، ومالا وأدبا . - قيل سحوا به إلى المتوكل فاستحضره من مصر ، فلما دخل عليه وعظه فبكى المتوكل ، وردّه إلى مصر مكرما . وكان المتوكل اذا ذكر بين يديه أبو الفيض يبكي .

كان رجلا نحيفا تعلوه حرة ، ليس بأبيض اللحية ومن أمثاله قوله « واد الكلام أربع ، حب الجليل ، وبغض القليل ، واتبع النزيل ، وخوف التحويل ،

أبو القاسم الجنيد بن محمد :

« سيد هذه الطائفة وأمامهم أصله من تهاوند ومندوه ومولده بالعراق وأبوه كان يبيع الزجاج فذلك يقال له القواويرى وكان فقيها على مذهب أبي ثود فكان يفتى في حلقاته بحضرته وهو ابن ثشرين سنة صحب خاله السرى والحريث المحاسبي ومحمد بن علي القصاب مات سنة سبع وتسعين ومائتين .

- ٢٢٢ -

ومن أقواله د ما أخذنا التصريف عن القبل والتمال ، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع الملوفاة والمستحبات وقال أيضا د من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولا يتدبى به فى هذا الأمر ليس منا لأن علمنا هذا مقيم . د بالكتاب والسنة ،

الامام عبد القادر الجبلانى

هو القطب الكبير ، مؤسس الاول للطريقة القادرية . . كان اماما عالما تقيما ورعا . . . كان له اقباع ورواد لحلقته بمسجده الكبير ببغداد حيث يقوم بتدريس علوم التفسير والحديث والفقه الشافعى والحنبلى وعالوم الاصول واللغة .

وكان يقول لاتباعه ، ان الله لا ينظر الى وجوه الناس واحسابهم وانما ينظر الى قلوبهم وأعمالهم ، وان المراد بالعلم ، هو العمل به فالقمة هو من عمل فقهه والمحدث لا يكون محدثا إلا إذا طبق الحديث على نفسه واعد قلبه ليكرن على قلب صاحب الحديث صلوات الله وسلامه عليه . . .

الامام أحمد الرفاعى

هو القطب المربى الامام السيد احمد الرفاعى مؤسسه الطريقة الرفاعية التى انتشرت فى العراق والشام ومصر وشمال أفريقيا

- ٣١٣ -

من أقواله : دافع الناس إلى الله القويم لعباده . . . ومن أقواله
أيضا (طريق دين بلا بدعة وهمة ولا كسل وعمل بلا رياء ونفس بلا شهوة
وقلب عامر بالمحبة)

وكان مجامع مدرسة للعلماء ومأوى للفقراء . . .

الامام السيد أحمد البدوي

هو الخطب السيد أحمد البدوي وفد إلى مصر من العراق بعد أن طاف
بربع الحجاز . . . واستقر بمدينة طنطا وأخذ يؤسس مدرسته الكبرى باسم
(الطريقة الاحمدية) حضر عصر الظاهر ببغداد وكان يحله وبغضه .

ومن أقواله (ليس التصوف الزهد أو لبس الصوف إنما التصوف أعماله
وبجاهدة وأخلاق والاختلا بآيدي الناس إلى خير الدنيا والاخرة ،

الامام السيد إبراهيم الدسوقي :

صاحب الطريقة البرهانية توفي سنة مئة وأربعين وستائة عالما ورعا تقيا
من أقواله (من لم يكن متشربا ، متحقيقا ، نظيفا ، عفيفا ، شريفا ، فليس من
أولادى ، ولو كان ابني لصابي ومن كان من المريدين ملازما للشريعة
والحقيقة) . . .

هو لاء بعض أئمة السلفية الكبار وإذا أردنا أحاديثهم فعددهم لا يحصى

هذا الكتاب ونسكتني بالإشارة إلى بعضهم . . . وماهمنا ماذا استفاد السودان
من الصوفية . . . وماذا استفادت الصوفية من السودان . . . فهل أعادها إلى
طبيعتها العلية الأولى أم انحدروا بها بعد أن انحدرت هي نسبة أركود الفكر
العربي عامة وتدهور الحياة الثقافية والاجتماعية بتدهور الحياة السياسية وتفتت
وحدة الأمة الإسلامية والعربية الذي ابتداء بظهور الدولة العباسية في الجزيرة
العربية وشمال أفريقيا وانزواء الدولة الأموية في الأندلس ثم بدوغ الدولة
الفاطمية في شمال أفريقيا ممثلة أراضى الدولة العباسية ثم جرت التقسيمات العديدة
التي هدت بوحدة الأمة الإسلامية وقادت لتدهورها .

.....

وجه التشابه بين الصوفية والرهبانية

لما كانت المسيحية دين سماوى أنزله الله على الناس ليؤمنوا به وكلف به سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام ليقوم بغير هذه الرسالة فابلت دعوة عيسى من اليهود والوثنية الكثير من التعسف ولقى المؤمنون بها شتى أنواع العذاب وقد سلك المؤمنون بالمسيحية طرقاً شتى في عباداتهم وسلوكهم الدينى ومن هؤلاء كان الرهبان الذين انتشروا في مصر في وديانها وجبالها وصحواها بعيداً عن لؤ الدنيا وهروباً من بطش الرومانيين .

ولما بعث الله عز وجل سيدنا محمداً هادياً مبشراً بالاسلام منذراً بالعقاب ثأراً على عبادة الاوثان وقفت قريش ضده ولقى من العذاب الكثير ولقى المؤمنين الكثير من الاضطهاد ...

ظهر الاسلام في النصف الاول من القرن السابع لظهور المسيحية وقد انتشرت المسيحية بين كثير من الشعوب في شمال الجزيرة العربية وفي مصر وشمال البحر الابيض المتوسط .. وقد سلك المسيحيين مسلكاً جديداً في العبادة وهم الرهبان في انقطاعهم عن ملذات الدنيا وخلودهم للعبادة وذكر الله وقد ظهر هذا المسلك عند بعض الصوفيين الاوائل ونحن نورد هنا بعض الامثلة ونقارن بين حياة القديس انطونيوس من أبناء مصر الاغنياء وبين حياة الصوفي الاول أبراسحق لإبراهيم بن آدم بن منصور ...

فقد نشأ القديس انطونيوس المولود عام ٢٥١ م ببلدة (كوبا) بمصر

مركز الواسطى من أبوين غنيين وعند بلوغه سن الثامن عشر توفى والديه في عام واحد وتركاه واهله بعد أن تركا له ثروة طائلة وحدث أن ذهب انطونيوس للكنيسة فسمع الكاهن يقول ان « أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع كل مالك واعط الفقراء وتعال انبعنى فيكون لك كنز في السماء » وقد اعتبر الشباب انطونيوس هذه الفكرة وكأنها موجهة اليه لانطباقها على حاله فخرج من الكنيسة وذهب إلى ممتلكاته وأرضه ووزعها على الفقراء محتفظا ببعض المال لاخته لتربيتها وامكته عاد مرة أخرى للكنيسة وسمع الكاهن يقول (لا تهتموا للغد) فخرج من الكنيسة عاقدا العزم على أن يسلك مسلكا جديدا فأرسل أخته إلى بيت للهدارى ثم خرج من القرية عام ٢٧٠ م إلى مكان قريب من قريته حيث أقام في كوخ صغير إلى جوار شاطئ النيل يدرب نفسه على حياة النسل كما فعل المسيحيون السابقون .

ولما كان لميل الخبرة بحياة النسل وتعاليمها اتصل بكبار المساك وشيوخهم المجاورين له للاستفادة منه . . ثم رأى في إقامته في ذلك المكان خطر على حياته الروحية بسبب رؤيته لبعض النساء اللائي كن ينزان إلى النهر للاستحمام فارتحل إلى المقابر القريبة من القرية ، ولكنه لم يطل الإقامة بها إذ هداه تفكيره ، إلى عبور النهر إلى المناطق الجبلية حيث أقام في حصن مهجور في منطقة « بسبير » على الضفة الشرقية على النيل . . وعاش هناك لا يتصل بأحد إلا ثلاثة مرات في السنة حين يحضر اليه المعجبين به الخبز الجاف دون أن يراهم . . .

هذه حياة شاب مسيحي سلك في حياته الدينية مسلكا جديدا بخلاف ما كان شائعا عن المسيحيين ثم تأتى بعد ذلك حياة أبواسحق ابراهيم بن أدهم بن منصور تحكى قصة حياته أنه كان من أبناء الملوك خرج يوما للصيد فأثار ثعلبا أو أرنباً . وصار يطارد واثثناء مطاردته له هتف به هاتف يا ابراهيم الهذا خلقت أم

بهذا أمرت ثم هتف به أيضا من فريوس سرجه والله ما لهذا خلقت ولا بهذا
أمرت فنزل عن دابته وصادق راعيا لأبيه فأخذ جبة الراعي من صوف
ولبسها وأعطاه فيسه وما معه ثم أنه دخل البادية ثم دخل مكة وصحب بها
سفيان والثوري والفضيل بن عياض ودخل الشام ومات بها ، وكان يأكل من
عمل يده مثل الحصاد وحفظ البساتين وغير ذلك وأنه رأى في البادية ، عليه
اسم الله الأعظم ، قد عاد بعده فرأى الخضر عليه السلام وقال وإنما علمك أخى
داود اسم الله الأعظم .

وقد شامت حياة أبو اسحق الميعشية في كثير حياة رهبان وادى النطرون
والاردية الأخرى وتكسبهم من الزراعة واعتمد على عمامة وحياة النقشف .

هذا التشابه في حياة الرهبان الأوائل الذين عاشوا على النيل وفي السودان
كان من العوامل المساعدة لانتشار الصوفية في السودان وظهور مربيها بتلك
الصوره لما وجدوه من روايات قديمة عاش أصحابها على النيل أحبوها من قديم
الزمان وما جاء في ذكر الرواد الأوائل من الصوفية مثل أبو اسحق بن إبراهيم
بن آدم وما كانت ترويه الروايات عن حياة الرهبان في وادى النيل وسوبه .

(١)

الشعر

ما نعرفه عن الشعر :

- الشعر ذلك النور الانساني الذي يضئ النفس . . .
- الشعر تلك الروح التي تبسط الارواح المتعبه . . .
- الشعر تلك الروح التي تنهض بالعقول المرهقة . . .
- الشعر ذلك القلبس الذي يلج النفوس المتعبه فيملأها سعاداً وحياء . . .
- الشعر رسول انسان طاهر يبحث عن الحياة والخلود . .
- الشعر شعاع يضئ كل الافاق . .
- أيتها الشمس أغربي
- ودعيني استلقي على الطريق
- على أرى خلف الحجب
- حتى أرى ما لا تراه العيون
- الشعر ذلك السراج الذي وقوده أنا وزينه هذه الحياة التي في العروق . . .
- وموسيقاه هذه النغمات التي تخلق الحياه وتحيل الانسان لمكانيات لا تعد .
- الشعر ذلك القبس الانساني الداخلي لينير طريق الأبدية
- الشعر رحلة بين النفس والذات
- الشعر حركة الروح وإطلاقه العقل

تاريخ الشعر العربي في السودان

لم تظهر حتى الآن دراسة دقيقة لتاريخ الشعر العربي في السودان غير بعض الدراسات التي اهتمت بتاريخ الشعر في القرن التاسع عشر والعشرين للاستاذ عبده بدوي والشعر الحديث للدكتور الشوشى الاستاذ بجامعة الخرطوم وبعض الدراسات العربية التي الفت بعض الفنين على تاريخ الثقافة العربية في السودان ، بداها الاستاذ محمد عبدالرحيم في مؤلفاته ، نفثات اليراع ، ، والعربية في السودان ، ثم الاستاذ عبد المجيد عابدين ، تاريخ الثقافة العربية في السودان ، وكل هذه الدراسات لم تكشف لنا بوجه قاطع عن تاريخ الشعر العربي في السودان . ولم تدلنا على مسيرة الشعر العربي في السودان وهي في مجملها اتبعت دخول العرب للسودان ، ولم تحاول أن تجد رافداً آخر غير منبع رحلة العرب داخل السودان .

كما قدم الاستاذ الطاهر محمد على آخر رسالته لنيل الماجستير من جامعة القاهرة عن النزعة الصوفية في شعر السمانية ، وكنا نأمل أن يكشف لنا هذا التاريخ إلا أنه وقف مع شعر الصوفية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي مضيقاً غموضاً على تاريخ الشعر العربي في السودان حتى أصبح نبت بلا جذور ولا بدايه له ، ولم تعرف روافده الاول حتى الآن .

ومن أجل هذا حاولنا في هذه الدراسة البسيطة أن نجد البدايه لتاريخ الشعر العربي في السودان مستشهدين بالوثائق والأمثلة التي استطعنا أن نعثر عليها .

قسم الدكتور عبد المجيد عابدين في كتابه تاريخ الثقافة العربية في السودان الشعر إلى عامى وعامى فصيح وفصيح وهو بذلك قدم الشعر العامى على الشعر العربي الفصيح وقد استند الدكتور عبد المجيد عابدين في ثبوتيه للشعر في السودان على هذه الأبواب على ما وصل إليه من شعر القرن الثامن عشر والتاسع عشر وبداية القرن العشرين معتمداً في نفس الوقت على أن الثقافة العربية دخلت السودان بدخول العرب إليه . ولكننا لو تابعنا رحلة العرب داخل السودان مجتمعين عن الالتحام بالناس طالبين المأوى والأماكن الآمنة خوفاً من دخولهم في مشاكل مع أهل السودان حتى اضطروا إلى أن يجدوا أنفسهم في موقف حرج، خلفهم دولة العباسيين في مصر التي دفعت بأول فوج من العرب الأمويين للسودان . . وحرصاً على النجاة من عداوة العباسيين رضوا بالغيا في السهول الخالية من الناس قدر الأمكان حتى لا يدخلوا في عراق أو عداوة ليست في مصلحتهم ، ولم يقف تدفق العرب على السودان بهروب الأمويين أمام العباسيين إلى داخل أفريقيا أو إلى السودان في القرن الثامن الميلادي .

أول طلائع عربية مسلمة وصلت السودان عام ٦٤١ م — حين أرسل عمر بن العاص بعد فتحه لمصر قائده عبيد الله بن السرح إلى حدود مصر الجنوبية لغزو دولة دنقلة المسيحية إلى فتوحات الاسلام ، إلا أن دنقلة قاومت الجيش الاسلامي في بداية الأمر حتى اضطرت الجيش الاسلامي إلى ضربها بالمنجنيق . فأستسلم حاكم دنقلة و قد صلحاً مع القائد العربي على إعطاء المسلمين ماريين بدياره أو مقيمين أو مؤدين لشعائهم الدينية ، والحفاظ على مساجدهم على أن يدفع مسيحيو دنقلة جزية سنوية لحاكم إسوان نباله عن والى مصر ولكن سكان هذه المنطقة لم ينقطعوا عن العصيان والتحرر من هذا الاتفاق فترات عديدة مما قاد لاعادة الهجوم عليهم الماره بعد الماره .

هذا كان أول اقام بين العرب المسلمين وسكان شمال السودان المسيحيين والوثنيين الذين كان بعضهم يخضع للديانات الفرعونية في المناطق النائية عن يد السلاطه والكنيسة .

ولذا أردنا أن نتبع الهجرة العربية فانها لم تسلك هذا الطريق الوعر الذى تقطنه القبائل المسيحية عند بداية هروب العرب الامويين أمام العباسيين أو هروب العباسيين أمام الفاطميين فى القرن الثامن الميلادى والقرن العاشر الميلادى داخل أراضي السودان سالكين أرض المعدن مبتعدين عن النيل منوغلين داخل أراضي السحابة .

وأذا أردنا أن نعرف أثر هذه الهجرة العربية منذ القرن الثامن والعاشر الميلادى على الثقافة السودانية فلن نجد لها أثر لان العرب فى هذه الفترة لم يكونوا فى استعداد لادخال التأثير وفرض ثقافتهم ودبانهم ، إنما كانت هجرتهم تطلب منهم المصالحة والمساومة والتقرب إلى عادات أهل البلد دون إرهابهم بفرض عادات وثقافة العرب .

وما حدث أن أخذ العرب الأوائل من حياة سكان السودان الكثير ، بعد أن أخذ منهم الرحال والتجوال والبحث عن مأوى ومكان للأستقرار الكثير منه ثقافتهم وحضارتهم التى أبتعدوا عن مناخها إلى ظروف معيشية اقتبس بكثير مما كانوا عليه فى حياتهم داخل النهضة العربية الاسلامية التى أعطتهم الكثير من الثقافة والحضارة والمدنية التى لم تتوفر مقوماتها على هذه السهول والقياف والوديان طلبا للدرعى والرزق والظل .

أنشغل العرب الاوائل بالبحث عن مكان للاستقرار وعن أسلوب للتفاهم به مع سكان السودان وحاولوا ما استطاعوا التقرب إلى عادات أهل البلد وتنازلوا عن الكثير من مقومات حياتهم الحضارية حتى استطاعوا أن يمتزجوا بسكان السودان على ضفاف النيل والوديان والسهول .

وخلال أربعة قرون فقد العرب خلالها إتصالهم بمراكز الثقافة العربية الإسلامية حتى تجردوا في كل مقومات تلك الحضارة والنهضة . ويأتى القرن الخامس عشر ، وقد حدث الامتزاج المكامل بين العرب والسكان المحليين وأصبحوا عنصرا واحدا ، نجد الحالة الثقافية والدينية في حاله من الفقر والجهل بتعاليم الاسلام تذكرها لنا المخطوطات القديمة . حيث لم يعد لهم من الثقافة الاسلامية الا أداء فريضة الصلاة اما تعاليم الاسلام الاخرى فقد تبخرت عبر السنين على السهول والوديان وضاف الانهار حتى ظهر شكل المجموعات الشيلية التي كونت الحلف السنارى مع نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادى وإن الامتزاج لم يحدث في عهد الاجيال الاول انما حدث بعد الاستقرار في عهد اجيال جديده شبت على تربه السودان ومناخه .

لقد حاول بعض المؤرخين والباحثين جعل الفترة السابقة لقيام الحلف السنارى بين عبد الله جماع زعيم العبدلاب وعماره دونقس زعيم الفونج عام ١٥٠٥ م فترة لإنتشار الثقافة العربية . ولم يستطيعوا أن يؤرخوا غير الفترة ما بين القرن الثامن عشر الميلادى وبداية القرن العشرين ولم يحاولوا أن يعطونا صورة واضحة من حال الثقافة العربية قبل الحلف السنارى وبعد قيام السلطنة السنارية . كما أن زعمهم على إنتشار الثقافة العربية بدخول العرب

السودان . وأن كان للعرب أثر ثقافى قبل القرن الخامس عشر فى مجال الثقافة العربية والاسلامية فهو أثر ضئيل لأن عمالية الرحله داخل السودان كانت بالنسبه للعرب أنفسهم بمشابه امتصاص لثقافتهم ومدينتهم التى وصلوا اليها بظهور الاسلام وفتوحاته وأتصالهم بالحضارات الاخرى . . وكل ما خلفه العرب خلال تلك الفترة فى السودان هو نشر التقاليد العربية . . وعلمينا أن نفرق بين تقاليد العرب وبين الثقافة العربية الاسلاميه التى قامت عليها النهضة العلميه للعرب المسلمين .

بدأت النهضة العلميه والثقافه العربيه بظهور السلطنة السناريه ببدايه القرن السادس عشر وسيطره هذا الحلف على جميع القبائل وحفاظه على الامن وطرق التجاره وإشراك وزراء وملوك هذه السلطنة فى التجاره بين مصر والبحر الاحمر وتشجيعهم للحج وحراسه قوافله الامر الذى فتح الباب للناس للخروج من السودان فى آمان على إرواحهم ولموالهم من قطاع العارق التجاريه وعودتهم سالمين من شر قراصنة القوافل التجاريه الذين إحترفوا هذه المهنة .

وأذا أردنا أن نبحث عن حال الثقافة العربيه والاسلاميه بعد قيام السلطنة السناريه فسنجد جهل عام بالتعاليم الاسلاميه . . فقد إنتشر الجهل بالتعاليم الاسلاميه قبل قيام هذه السلطنة وحتى بعد قيام هذه السلطنة . فسنجد إستمراراً لبعض العادات القديمه التى تنافى مع تعاليم الاسلام فيما يخص الزواج على الخصوص . فنجد الرجل يطلق المرأة ثم يتزوجها غيره فى نفس اليوم وقد جاء فى مخطوطه د ودضيف الله ، المكنونه عام ١٧٥٢ م عن حال الثقافة العربيه

والاسلامية عند قيام هذه السلطنة الان حيث يقول (لم تشتهر في تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن . يقال ان الرجل يطلق المرأة ويتزوجها غيره في نهاره من غير عده) واستمرت هذه الحالة حتى بقيام السلطنة السنارية حتى حضر محمود راجل القصير العركي من مصر وعلم الناس العده في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي وقد وجد رجال العلم والدين الذين تلقوا العلم بعد قيام السلطنة مشقة كبيرة في تطبيق النعالم الاسلامية على الناس وحتى على الذوات تلقوا دراسات دينية . ومنهم الشيخ محمد الهميم وزواجه بأكثر من اربعة نساء . وجمعه بين الاخوات ، وورق دشن قاضي العدالة ضد هذا السلوك وامر الشيخ محمد الهميم على استمراره في الجمع بين الاختين وتحليله لأكثر من اربعة نساء في آن واحد لكشف جهل الشيوخ في تلك الفترة وذلك يرجع لاشك لفقر الخلو ، التي تلقوا العلم بها . وهذا أمر يبدو وكأن شائعا وذلك لابتعاد العرب فترة طويلة عن حياة المدينة قبل أن يحدث الزواج والامتزاج . الاستقرار . وساعد على هذا الجبل لابتعاد العرب عن المدنية العربية ومحاولتهم الهروب قدر الامكان عن أى طريق يقرب من يد السلطة العربية الحاكمة ان كانت ذلك في عهد العباسيين او الفاطميين . حتى فقدوا كل مقومات تلك التقادة التي جاءت مع الرحالة الأوائل الذين عملوا كجند للدول الاموية أو الدولة العباسية .

ثم جاءت الدولة السنارية فخلعت الأمن والاستقرار وبدأت عمالية الهجرة للسودان عن طريق الحج أو عن طريق مصر . وأول من وصل السودان في عهد الدولة السنارية محمود العركي راجل القصير الذي نزل بالنيل الأبيض بقرية اليس ونشر النعالم الاسلامية ويقول الشيخ خوجل ادريس الارباب كانت بين الخرطوم واليس سبع عشر مدرسة خربت نبال الشكل راحلهم

فقد كانت قبائل الشلك تمتد أراضيها حتى أراضي الجزيرة ويعزى اليها البعض
تخريب مدينة سوبة ومملكتها .

خط الشيخ محمد العركي أول مدرسة لتعليم اللغة العربية وحفظ القرآن ونشر
التعاليم الإسلامية وضمت مدرسته تلاميذاً من مختلف الأقاليم الذين قاموا بـ
في نشر تلك المعرفة في أقاليمهم

ثم بعد محمود القصير عاد طالب سوداني بعد أن رافق قوتلي الحج إلى
كانت تذهب عن طريق مصر ، من دار الشايقة وهو إراسيم البولاند بعد أن
أقام بالارض ، الحجاز وألم بعلوم الدين والعلمية ودرس بأرض الشايقة خليل
والرسالة ويتال أنه أول من درس خليل ببلاد فرنج ، قد خرج الشيخ إبراهيم
ابن جابر ابن عرن بن سليم أئمة رجال الصوفية والعلم بأرض الخيرية وسائر
والعلمانية وشمال السودان .

وقد كان لأولاد جابر الأربعة وعائلتهم أثر كبير في نشر تعاليم اللغة
العربية في أرض الشايقة وشمل السودان وقد كان يسج إليهم . بعد من انقلاب
هذه شتى الأقاليم إلى العلم عليهم وهم إبراهيم الولاد وسمى الولاد لأن رجلاً
حلف أن يدخل بيته جميع ما خلقه الله فافناه إبراهيم . ضم المنجف إلى مريه
واستدل بقوله تعالى وما فرطنا في الكتاب من شيء قل له شدة أنى الولاد
البربر . وأخوانه هم عبد الرحمن وعرف بالصلاح ، إسماعيل وعمرس بالوزع
وعبد الرحيم وعرف بالعباد ، واختهم فاطمة أم الشيخ صغبر بن ركمان عالم في
العلم والدين .

أما في منطقة سنار ورفاعة فمنه كان للشيخ ناج الدين البهاري الفضل .

في نشر العلم والصوفية وقد تخرج على يده آئمة كبار من رجال الصوفية والعلماء .
ولمّا أردنا أن نؤرخ للشعر العربي في السودان فسوف نؤرخ له بمدرسة قاضي
الدين البهاري البغدادى الذى وصل السودان بعد أن أدى فرصة الحج حوائج
عام ١٥٥٥ - ١٥٦٠ م أول حكم عماره أبو مسكين . وقد نقل الشيخ قاضي
البهاري للسودان الصوفية الراقية ونقل منها أحلى إنتاجها وهو الشعر ، وقد كتبه
الشعر الصوفي عربى فصيح حفظه الناس وساروا على منواله في الكتابة والمذكر .
ومن آثار الصوفية الكبار أبو قاسم الجيد الذى تسمى باسمه (أبو القاسم الجيد
السرداني) . وقد كان الشعر الصوفي هو أكثر الشعر الذى تداوله الأرواح
الارثاء في الخلاوى (المكتاتيب) والزوايات .

وصل الشعر العربي الصوفي أعلى مراتب الشعر الداني وأحلام ، حتى
صار دلي كل لسان . وهو قد جمع بين عبادة الله والخوف . وقد شبه فيه بعض
الشعراء هذا الحب بالحب العاطفي انشأه حتى بات هذا الشعر الصوفي على
كل لسان عاشق وسحبب وكل محب للجمال والشعر الجميل وفي ذلك قولهم
في الصمت .

أفكر ما أقول لما ارتقيا وأحكم دائما جميع المقالات

فألساها لما نحن إلقينا فأنطق حين إنباق بالحقائق

وكذلك

رأيت الكلام يزين الفتى والصمت خير من قد سمعت

فكم من حروف تجر الحروف ومن ناطق ود أن لو سكت

وقولهم في الخوف

أحسنْتَ ظنك بالأيام إذا أحسنت ولم تخف سره ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند ضوء الليالي يحدث الكدر

وكذلك :

لو أن ما بي على صخر لأخذه فكيف يحمله خلقاً من الطين

وكذلك في باب التوكل لآبي الخزمة الخراساني .

أهابك أن أبدى اليك الندى أخنى ومرى يمدى ما يقول له طرفي
تهاني حيائي منك أن أكنم الهوى وأغنيتهني بالهمم منك عنى الكنف
تلففت في أمرى وأبديت شاهدي إلى غائبي واللفظ يدرك باللفظ
تراميت لي بالغيب حتى كأنما تبشر مني بالغيب إليك في الكف
أراك وبني من هيمتي لكل وحشة فتؤنسني باللفظ منك وبالعطف
وتحبي محباً أنت في الحب حقه وزنا عجب كون الحياة مع الخف

وكذلك يقول صديقه المرغشي :

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا نائع أنا عارى
هي ستة وأنت الضمين لنصفها فكان الضمين لنصفها وإباري

- ٣٣٨ -

مدحى لغيرك لهب نار خضتها فأجر عبيدك من دخول النار
والنار عندي كالسؤال فهل ترى أن لا تكلفني دخول النار

وقولهم في باب الشكر.

ومن الرزبة أن شكرى صامت بما فعلت وأن برك ناطق
وأرى الصنيعة منك ثم أسرها إلى أذن ليد الكريم لسارق

وفي باب اليقين

يا عين مدحى أبدأ، يا نفس موتى كمدا ولا تحي أحداً، إلا الجليل الصمد

أما في باب الصبر فلم أحلى الشعر كقولهم :

الصبر يجعل في الموضع كلها إلا عليك فإنه لا يجعل

وكذلك :

سأصبر كي ترضى وأتلف حسرة وحسبي أن ترضى ويتلفني صبرى

وأيضا ..

صبرت ولم أطلع هوائك على صبرى وأخفيت ما بي منك في موضع الصبر
مخافة أن يشكوا ضميرى صبايتى إلى دمعى سرّاً فتجربى ولا أدري

وكذلك :

والصبر عندك فذمرم عواقبه والصبر في سائر الاشياء محمود
وايضاً ..

وكيف الصبر عن حمل منى بمنزله اليمين من الشيطان
إذا لعب الرجال بكل شيء رأيت الحب يلعب بالرجال
وكذلك :

صابر الصبر فاستغاث به الصبر بر فصاح المحب بالصبر صبرا
وايضاً ..

تبين يوم البين أن إعتزاه على الصبر من إحدى الظنون السكواذب
وقولهم في باب الذكر :

ذكرتك لا ، إنى لستك لحة وأتيسر ما في الذكر ذكر لسانى
وكدت بلا وجد أموت من الهوى وهام على القلب بالخفقان
فلما أراى الوجد إنك حاضرى شهدتك موجوداً بكل مكان
نشاطيت موجوداً بغير تكلم ولا حنن معلوماً بغير عيان

وقولهم في الغيرة :

أناصب لمن هويت ولكن ما احتياىلى بسررى راي المزالى

همت بأتياننا حتى إذا نظرت إلى المرآة نهاها وجهها الحسن
وقولهم في باب الفقر .

قالوا غداً السعيد ماذا أنت لابسه فقالت خلعة ساق حبه جرعاً
فقر ومبرهما ثوباًى تحتهمـا فلب يرى إلهه الأعباد والجمعـا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به يوم التزاور فى الثوب الذى خلعا
الدهر لى مأنم إن غبت يا أملى والعيد ما كنت لى مرأى ومستمعـما
وفى باب السفر قالوا :

١ إذا استجدوا لم يسألنى من دعاهم لاية حرب أم لاي مـكانه
وفى باب التوحيد .

وغنى لى من قلبى وغنيت كما غنى وكنا حينما كانوا وكانوا حينما كنا
وفى باب أحوالهم فى الخروج من الدنيا .

كل بيت أنت ساكنه غير محتاج لى السرج
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتى الناس بالبح
وكذلك قولهم :

حينى قلوب العارفين إلى الذكر وتذكـارهم وقت المفاجأة للسر

- ٣٤١ -

أدير كئوس المنايا عليهم فاغفوا عن الدنيا كأغفام ذى السكر
همومهم جـواله بدمسكـر به أهل ودله كالأنجم الزهر
فأجسامهم فى الأرض قتلى بحبه وأرواحهم فى الحجب نحو العلانرى
فما عرسوا إلا بقـبـب حبهم وما عرجوا عن مسمى ومسمى ولا ضرر

وقبل للشبل عند وفاته قل لا آله إلا الله فقال :

قال سلطان حـين أنا لا أقبل الرشا فسلوه بحقه لما بقلبي تحرشا

وكذلك على ابن على الروذبارى حـين والله المنية قال وهو فى حجر أخته .

لا نظرت إلى سواك بعين مرده حتى أراك

أراك معذب بقتور لحظ وبالحد المورد من جناك

وفى باب المعرفة بالله قالوا :

نطقت بلا نطق هو النطق أنه لك النطق لفظاً لإربين عن النطق

ترأيت كى أخنى وقد كنت خافيا وألمعت لى برقاً فأنطنت بالبرق

وفى باب المحبة قولهم :

ولما إدعيت الحب قال كذبتى فالى أرى الاعطاء منك كواسيا

فما الحب حتى يالصق القلب بالخشى وتذيل حتى لانجيب المناديا

وتختل حتى لا يبقى لك الهوى سوى مقله تبكى بها وتناجيا

وكذلك قولهم :

عجيب لمن يقول ذكرت الى وهي أنسى فأذكر ما نسيت
أموت إذا ذكرت ثم أحيا ولولا حسن ظني ما حببت
فأحيا بالمدى وأمرت شوقا فكم أحيا عليك وكم أمرت
شربت الحب كأسا بعد كأس فما تقدم الشراب وما رويت

وقوله :

لى سكرتان وللنعمان واحد شىء خصصت به من بينهم وحدى

• • •

هذا الشعر الوجداني الرقيق السامى هو الذى وصل إلى اسماع عشاق الصوفية والمعرفة من تلاميذ تاج الدين البهارى فحفظوه لسمولته وجماله . وحاولوا الكتابة على منواله بعد أن توسعت مداركهم فى اللغة والأدب وبدأوا كتابة الشعر على هذا المبدأ ولكن الحال بالصوفية لم يسر على ما قدر له إن يسير فالتفت الصوفية إلى دنيا أخرى غير دنيا الأطلاع والمعرفة وسبحوا فى عالم روحانى بعيد عن حياة الناس وانكبوا فى العبادة طلباً لمحبة الله ليعطيهم كراماته وقدرته وقد كان لبعضهم ما أراد ولذلك إنشغلوا بحب الله عن الاشتغال بالمعرفة وبالأطلاع غير نفر يسير كالشيخ خوجلى بن إدريس الأرباب أما معظمهم فقد لمكتفى بسنين الدراسة عند شيخه وحفظ القرآن وسماع — الرسالة والخليل ووقفت معارفهم اللغوية وقل اجتهدهم فيها وقد كان لهم وجدان كيفة الناس ولهم شوق للتعبير عما فى نفوسهم ، ولكن لم تكتمل لهم المعارف

اللغوية والعروضية لاجادة النبير ، وساروا على قول الشعر على طريق السجع مسنعين كلمات محلية وبعض الالفاظ الغريبة الى لها موسيقية خاصة وليس لها معنى ، وهم في ذلك يظنون انهم يدركون معاني هذه الكلمات لادراكهم لشعورهم حين قول القصيدة ، فتخونهم ذخيرتهم اللغوية عن الافصاح عما في نفوسهم ، ولاكن انهم يحسسونهم بحالهم حالة نظم أو ارتجال القصيدة جعلهم يصرون على كلماتها ، ويجعلونها سرّاً من أسرارهم وخدمهم في حين أنهم عجزوا ساعه النظم أو الارتجال عن إيجاد كلمات مناسبة لذلك الاحساس .

ولما كانوا أبعد عن قول الشعر والعارفين لفنونه فلم يرضوا أن يعودوا لتلك القصائد لتصحيحها وتعديلها بما يناسب الموسيقى والمعنى ووضع الكلمات الجديده مكان الكلمات الغريبة وذلك لجعلهم بفنون الشعر وإنما كانوا نظمهم تعبيراً لفظياً على أحساسهم ومبقي وعن إيقاع داخلي ظنوه سرّاً من أسرار الشعر وما عرفوا أن الشعر علم وفن له أصوله وقواعده وأدواته .

ولو أطلعنا على قصيدة الشيخ محمد الهمم وهو من الأولياء الصالحين المنجدين ودا على فسخ دشين قاصي للمداله لزواجه من أكثر من اربعة نساء وجمعه بين الاختين .

تكشف لنا القصيدة بأن لرجال الصوفيه عالم لا يدركه الا أصحابه واعتقادهم أن حال رجال عالم الوحده الصوفيه . وانغمض الذي يغلب معانيهم وأفعالهم هو سر معرفتهم للكون والحياه والخالق عز وجل وهي دنيا خاصة بهم وهي دنيا ليست من إختصاص العلماء ورجال الفكر وأن العلم قاصر على ارتياد هذا العالم . . حين يقول . .

فان كنت يا قاضى قرأت مذاهباً فلم تدرك يا قاضى زمور مذاهبنا
فذهبتكم نصلح به بعض ديننا ومذهبتنا يعجم عليكم إذا قلنا
قطعتنا البحار الزاخرات وراءنا فلم يدرك الفقهاء أين ترجعنا
حللنا مواد عندنا اسمه الفضل فضايق بنا الوادى ونحن ماصقنا
حللنا بقرب الغاب روحاً من الدنيا درجنا شمساً أحجلت شمس نورنا
الحلنا إلى العرش على الكرسي العلى ولوحها لبنا ثياب النور وحسن جمالنا

هذا تلميذ من تلاميذ الشيخ تاج الدين البهاري رضى الله عنه . أخذ عنه
الصوفية ولم يأخذ منه العلم حتى أباح لنفسه الخروج على تعاليم الاسلام والدين
وجعل نفسه فوق القوانين والشرائع وأنه من طيبة أخرى وأن له غمراً للبشر
بما جعل القاضى دشين قاضى العدالة يستنظم منه بعد أن شكت إليه الناس في أريحي
قرب وفاءه وخروجه على المألوف من عادات الناس وتعاليم الاسلام .

هذا الشعر الذى قاله الشيخ محمد الهميم رغم أنه لم يكمل معارفه اللغوية
والعرفية مع الشيخ تاج الدين البهاري إلا أن ملازمته له وسماحه للشعر الصوفي
الصابى الموزون الفصيح جعله يقول هذا الشعر وإذا قرأنا كلمات هذا الشعر
الصوفي بالشعر الذى أتى بعد ذلك لتلاميذ رجال الصوفية على شيوخ الصوفية
وأنهما كهم في المعرفة الربانية دون الاهتمام بالعلوم واللغة جعلهم ينظمون الشعر
باللغة العلمية والفصحى ولذلك لاجتهادهم في العبادات وقلة إطلاعهم في علوم
الفلسفة واللغة والفقه الأمر الذى اتحدت بتفكيرهم وأصبحت أحكامهم عبارة عن

تصورات لا تقوم على منطق أو دليل وكذلك جاء شعرهم بعيداً عن الفن وقواعده
وهم ضد القواعد والأصول .

ومثال ذلك قول الشيخ الصالح بأنفسا الضير من الآلياء الصالحين ومن
الصوفية الكبار في مدحه للشيخ محمد . اللهم .

هــذا المرئي الكرام سادات سلطان زمانه فأطلبوا دعوات
الشيخ محمد يوم لقي العرضات هو بشفع لي يوم تكشفت العدرات
لا النار يخاف منها ولا الجنان يشتاق لها نظير الآلة حاجات
المولى مقصوره أعطاه تاج الدين أبوه ومنه حالات
مـروى عن سيد السادات بت الآلة فية يصلى أوقات
وهنا نلاحظ الفرق الكبير بين شعر الشيخ محمد بانقا والشيخ محمد الهيم
فالثاني لازم تاج الدين البهاري وجعله خلفاً له فقال شعراً شبه فصيح ولم يكن من
تلاميذ الصوفية المجتهدين ثم جاء الجيل الذي تلمذ على الرعل الأول الذي عادى
المعرفة والمنطق ولذا لم يستفد الشيخ بانقان علوم اللغة العربية وإنما كان إهتمامه
بأمر الصوفية أكبر لذا لم يتوسع في معرفة اللغوية والمروضية وجاء شعره
عامياً متأثراً بموقف شيوخه .

كان تلاميذ الشيخ تاج الدين البهاري أكثر فصاحة في شعرهم كجيل راندوكليا
سار الزمن وتلمذ التلاميذ على شيوخ الصوفية الذين اهتموا بالمسائل الروحية وأهملوا
المسائل العقلية رأينا الشعر ينحدر إلى العامة للفصحى ومن ذلك قول تلميذ الشيخ محمد
الهيم الشيخ سليمان الطوائى الرغرات حين قال في عروسة التي تزوجها فوق أختها
حين رفضت الدخول عليه .

يادى العروس البكاية غاروا عليك أهل الراية

جعلوك قصبه وشاية

وقد شاركت النساء في قول الشعر الصوفي ومنهن امرأة من نساء قرى بلاد
العبد لآب حين مدحت الشيخ شرف الدين عبد الله الموكي

شرف الدين أنا والله وبيك بالماسكي الشماك بأيدوك
من خلاني نعلاني رجلك كل يوم لتبركي بيك
يا شجره وقت الله أذاك لأنيل سقمك لا مطراً جاك
ولد عركي كل يوم يفشاك سوالكي ورقاً يمشاك

ومن الصوفية الذين ألقوا الشعر الولي أسماعيل صاحب الريال ابن الشيخ المكي
الدقلاشي ومن أخبراه أنه حين تأميه الحاله يمشي في حوش منزله ويحضر البنات
والعرايس والعريسان للرقص ويضرب الربابه كل ضربه لها نغمة يفيق منها
المجنون وتدهل منها العقول وتطرب لها الحيوانات والجمادات حتى أن الربابه
يضعونها في الشمس أول ما تسمع صوته تضرب من غير أن يقرر بها أحد ومن
أشعار في الحرب وفرسه .

بنت بكر المرداويواديوا سلطيه العرصة ديوديوا

وفي غزله في الجمليه الكرتانيه

جره الفونج مرق طالب الدييه قيصه لا كاب حاقب له عينيه
خشمه حجه شبيه لين الكتيبيه كفل من تور توافي ولد دلييه

وكذلك

صاح مطر الصعيد وصاح المقر
خشم تهجه عن المكذب مجرد
خفيف القلب من الكد كاع مرد
مريسته فوتريته ووردا مريد

وقال كذلك

صب مطر الصعيد وعاش بالبت عايد
النسوان بلا هيبة ام قلايد
فوق خشم البيوت جروا المكسايد
لحم سوق رفيعى مشير بجدايد
صب مطر الصعيد وطلق علينا برده
خشم هيبة يشبه طيات البحر دوا
تعجبك فى الرقص حين ماتهرد
ياهنيه من هواها وقضى غرضه

ولما سمع زوجها بذلك رحل بها الى تعالى فسمع الشيخ بذلك فقال

نسل السيف تلوح فوق أم قبالة
وجه من قطع فوق الصناقله
نكرب الزم مكان أسمع مقاله
نخلات عروسك ديك بطاله
نسل السيف تلوح فوق أم عوايد
شافت الحمل تلافق
نخلات عروسك ديك ما يتوافق
نشق ام رنزت البهف مطرها
نشير نختفل فوق أثرها
مهره الصنة نلاوى المكنوز طرها
تعاقي المورود الداخلى كبرها

إذا أودنا أن نقيم هذا الشعر لاشك فسوف نضعه مع شعر الصعاليق شعر
المتمردين على القوانين الاجتماعية كما كان يفعل معظم شعراء العرب فى مطارده

نساء و خيليات الرجال واستباحوا أنفسهم هذا الحق .

فطباع الشعاع العرب ما ذالت في دماء هؤلاء العرب الذين استوطنوا السودان ولا شك أهم أدخلوا نماذج كثيرة لم تحفظها لما المخطوطات

لانتشر الشعر الصوفي الفصيح في النصف الأول من القرن السادس عشر وصار يتدرج في بيوت الصوفية الذين لم يهتموا بقواعد اللغة وفنون الشعر إذ كان اهتمامهم التوصل إلى أرواء الله عز وجل وظهور الكرمات عليهم جزاء الحبهم لله وصار الشعر ينتقل من فصيح إلى فصيح وعامى وعامى حين جاء القرن السابع عشر فانتشر الشعر العامي بين الصوفية وابتعدوا عن شعر الوجدان والحب

وذلك لقله إهتمامهم بالاطلاع على كتب الصوفية الأوائل ومتأقشتمرا اكتفوا بما ظهر لهم من كرامات عند بعض شيوخهم بما شعاعهم عن العالم الخارجي وصاروا يتناقشون على الايثان بمثل هذه الكرامات والخوارق ، وأهتموا بما يوصلهم إلى هذا المستوى وقل إهتمامهم بأداب الصوفية الأوائل وإجتهدهم في علم التوحيد والعلوم العقلية . وأستمرت هذه الحالة بعدم الإهتمام بالعلوم العقلية خلال القرن السابع عشر والثامن عشر حتى عصر الشيخ أحمد الطيب شيخ الطريقة السمانية الذي استفاد من تجواله في البلاد العربية الحجاز ومصر وبيت المقدس وأحضر معه من الكتب والمخطوطات ما جعله يرتفع بمستواه العلمي في حالة الشررد والهيام إلى عالم العلم والحقيقة وكان محمد أحمد ادنقلاوى الذى لقب فيما بعد المهدي غير شاهد على مكتبة هذا الشيخ العالم الى استمداد منها المهدي خلال عشرين عاماً حتى استطاع أن يتمرد على سلوك شيوخه من الصوفية لما رآه من تعالم التي تعارض ماقرأ وما أدرك من عالم الدين والحقيقة .

بدأ الشعر العربي في السودان بعد قيام دولة سنار في بداية القرن السادس عشر وليس بدخول العرب السودان لأن رحله الاستقرار الطويلة غير عشرات السنين التي استلمت فيها الاجيال الاولى حياتها عبر الوديان والسهول والحياء المتخلفه للبحث عن مصدر عيشى ومأوى بخرت من عقول الاجيال الاولى والاجيال التي ناتها كل مقومات الثقافة والحضارة داخل هذه الحياء البدائية حتى تأقلموا على الحياء الجديده بتفاهموا وبعاشروا أهل السودان .

بدأ الشعر العربي صوفي بعد رحله الاستقرار التي كان نتيجتها الحلف
السنارس شعر وجداني رقيق بسيط السكبات رقيقها حبيب إلى النفس وذهب
حيث ذهب الصوفية وحيث ذهبت الرسالة والخليل ومريديه في ذلك
قول الأوائل في الصوفية. وكان هذا الشعر أجمل شيء يبقى في النفس
دون إرهاق للعقل والوجدان ، إلا إن الصوفية أوقفت تطورها التقافي
لقله الاجتهاد في كثير من الأحيان ولم ينتهوا لنا غير بعض المخطوطات لقله
من المجتهدين مثل كتاب في الطريق وآداب الذكر للشيخ إسماعيل صاحب الربابة
وكثير من المخطوطات في تفسير الرسالة والخليل وبعض الدراسات في التوحيد
والصوفية ولم تصل لنا من تلك المخطوطات إلا أخبارها حتى نستطيع أن نقيم
مادتها وسعة إطلاع أصحابها وعمق فكريهم إلا إن هناك ظاهرة يجب الوقوف
عليها ، وهي تلك الزيارات التي كانت بين رجال الصوفية لشيخوخهم وتدارسهم
في بعض الأمور ومحاولة الاستفادة من شيخوخهم المشهود لهم بالعلم كما كان يفعل
تلاميذ الشيخ خوجلي بن إدريس الأرباب وكذلك تلاميذ الشيخ الزين بن
صغير ون بيلاد الشايقة حيث كانت حلقة علمه أكبر حلقه عالم عرفها العصر
ونخرج على يديه العديد من الشيوخ والعقهاء والقضاة . وقد توفي في النصف الثاني
من القرن السابع عشر عام ١٦٧٥ م بالقوز بالقرب من مدينة شندى .

وقد وثاه الشيخ محمد ولد الهدى بشعر ركيك بقايس هذا الن . أما بقايس
ذلك العصر فيعد محاولة جادة لكتابة الشعر العامي الفصحى بقوله :-

فكم من رجال لهم شأن ومعرفة	بسبب علمه سموا كالانجم الزهرا
إلى الغروب جرى الاسلام عليك ذا	بإد البرادى وماى الارصى نفرا
نشرت علماً على الافاق تعرفه	كل النواحي وأهل البحر والضرا

يامين ابكى على الاستاذ لارضى وقبض دمعاً غزيراً جاركا المطرا
من اذا يكون بعدك للطلاب بأهلهم بأنطلاق وفرحات بلا كسرا ؟

ومن شعرهم العامى قول الشيخ فرح وديكتوت فى رثاءه للشيخ أبو بكر ولد
قدير ومايحكى عن مستوى العلم فى ذلك العصر ، قصة أنشيخ أبو بكر ولد قديره
يحكى أن درس مختصر الخليل على شبة الذين مره واحده وأذن له بالتدريس ،
وكان هذا مستوى إسانذه العلم وقد اشتهر الشيخ أبو بكر بالعالم الجليل وتخرج
على يديه علماء وشيوخ وهذا يكشف لنا مستوى التقيم العلمى فى عصرهم قليل فى
المعرفة بعد علماء وبسط الجماهير الجاهله ويسمى صاحب هذه المعرفة اليسير بحر
العلوم كما قال فية فرح وديكتوك .

اين ابو بكر المدرس فى النصوص بجمع يكرس
فوق مطايا العزه مدرس حتى يصبح الحائق مكرس

ومن شعرهم العامى مدحهم أيضاً هذا الاستاذ من تلايذه

جبل الهايمه البقيت لها ركازة فى غرب دار صليح الى شرف بلود البارة
ذهب التاجر لما قلبة العطار مثل الشمس خفيت الجبة مع العكار
وقال آخر .

بالكاف كفاية الهايع الجيعان فى الفونج العرب ماله نظرو لا اوزان
رحمة من بوادى الخلقة الرحمان أم الجابتو فاقت على النسوان
بالام فى سرايا قوم الهميم ملم دود الكرده البيكرف نقطة دم

- ٣٥١ -

الجود والعبادة غيرهما ما هم مكة بجاسه وقت الرجل تنضم
ومن شعرائهم أيضاً الشاعر أبو جروس شاعر الشيخ إدريس الأرباب قال في
إبنه حمد على قلة عطاءه للشعراء خلاف ما كان يفعل أبيه من تكريمهم
وعطاءهم .

الشعبة الكانت تاتيه إنكسرت وأدتنا اليه
تركت حميد القلبية لامن جات قل ادوها العيبة

وقال في مدحة على كثرة الكسرة والذبح

ولد عشوم معاكم سلم على حمد بن دار أبوه بويت هنوت من الشقين
ولد القرشي صفاته مائة وألفين هيلك هيل أبوك يا جامع الشرفين
وفي الشعر الصوفي شعر الشاعر القرشي شاعر الشيخ أحمد بن إدريس .

وهذا مثال لشعر المدح والذم ، فقد تعود الشعراء على عطاء الاغنياء فيغنون
لهم كما فعل شعراء العربية ، وهذا خير مثال لغضب الشعراء على ابن الشيخ إدريس
حين أوقفه عطاءه واكثر في العالم وأشار الشاعر بأن هذا الخير خير والده
وليس ملكه .

شوت حود وشود أبو نخيره ومرت الفرس ها يحومها الخيرة
شمرت ديمو وشمرت العبد سعيد يا حاحا أبو بوك سوانا بأيدو
حرم شرف نار البريده يا سليمان بيكي محنا وناينا

— ٣٥٢ —

بطنك من أكل الحرام بدينة جزم ما تكرر الشينة

وقال فيه شاعر :

عبد الملك بحلف طارد الصقلم طارد ناس ابو حمد صقرا الخلا الملقوم
دارى تحت صفه لصق مسموم ورقدها جهينة ونرم الخرطوم
من سفار مرق ولد التامى حباك يحبى فى الرقيق والخلق تباك
ابوى بيد المايحه المسكت الشباك صقع العبد بعصا ونقه حاشاك

ومن شعر الشيخ أحمد ولد الطربى الصوى :

أداني الله أداني زهدنى فى كل فاني
عشق به اضناني فى ذاته أفناني
أيضا به أبقاني يجرى كما طوفان
خلى من غرقاني اضحى من الفرسان

وهذا من شعر المجاذيب الذى يأنسهم ساعة الغيبة غير محكوم بمقاييس العالم
ولا المنطق ومن الغريب أنهم لا يمدون هذا الشعر الذى لا يدرك معناه غيرهم
لأنه كلام أنى فى ساعه غير طبيعية ومعانى غير معروفة وكلمات غير مطروقة حتى
جعلوا معنى هذا الشعر سرا من أسرارهم مع أنه خال من المعنى والمنطق ، وقد
حاول بعض النقاد البحث عن معانى كلمات شعراء الصوفية التى ليس لها معنى
وحاولوا أن يجدوا لها دلالة منطقية إلا أنهم عجزوا ومنهم من سماها مصطلحات

صوفيه متعارفه عند الصوفيه - كمثل هذا الكلمات : كو . كو ، سك ، بكم . بكم .
 ألخ على هذا الوزن وفات عليهم حالة الانطلاق الشعوريه ، وعدم التقيد بمنطق
 واقع ساعه التدفق الصوفي : والشعر الذي قالوه في تلك اللحظات ليس شعرا
 له معنى ودلاله ، إنما هو نوع من الموسيقى اللفظيه الموجوده في الكلمات والحروف
 العربيه يستعصم بها الصوفي ساءه غيبوبته في ضربات النبوه والطار وموسيقى
 الذكر الصاخبه وكل الغماظ أشعارهم ماهي إلا البحث عن موسيقى صوتيه تسير
 حالتهم المضطربه الفلقه الباحثه عن شيء ساعه الانجذاب . إلا أنهم رغم ذلك
 اعطونا صوره متعدده لهذه الشخصيه فهي مره شخصيه عالم ومره فارس ومره
 رجل خوارق ومره شخصيه لرجل ورع صالح وتارة شخصيه لا يعرفها ولا تعرف
 ملاحظها حيث لا تعرف كلماتهم .

إحتات الشخصيه الصوفيه ذات الكرامات والخوارق مكانه كبيره في المجتمع
 السوداني . لإولا لأهتمام رجال الصوفيه بهذه الخوارق وهذه الأفعال الغريبه على
 الاساس وتفسيرهم لهذه العادات تفسيرات تختلف عما إعتاده كبار الصوفيه في
 العصر العباسي والفاطمي . فقد فسر الصوفيه الأوائل بأن المعجزات في صفات
 الأنبياء وليست لسدايم من البشر وما يطهر على البشر من بقيه المسلمين من
 كرامات ماهي إلا أكرام لمحمد في عباده المسلمين وهي امتداد لا كرام الله لنبيه .
 ولكن رجال الصوفيه في السردان انفردوا بتفسير غريب لهذه الكلمات وذهبوا
 فيها مذاهب شتى وجعلوا أنفسهم موضع الأهتمام والمتنافس حتى هو الناس عن
 عظمة الخالق ونبيه واشغل الناس بالحديث عنهم وطالب المغفرة والرحمه ، فاشغاه
 منهم أكثر من توجيه عقول الناس إلى أنهم لا يسألون متبعا بالنسبة للخالق
 العظيم ونبيه خاتم المرسلين وقل حديث الناس عن عظمة الخالق ومعجزات
 أنبيائه ورسوله .

ونرى ذلك في شعرهم وهو أكثر الشعر الصوفي الذي قبل في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ولم يتطور للشعر الصوفي الأول إلا في القرن التاسع عشر والعشرين ، مثال ذلك قول الشيخ طه الحاج لقاني في شيخه حسن ولد حسونه :

سلام الله ربى ذى الجلال	على شيخ الطريقة والوصال
سلام فى طاء وهاء	على الشيخ المكمل بالحصال
والحقه البجيه الف مره	والف سلام خير زال
جميع الخلق قد جزمت عليه	بحسن الحسن فى حسن الفعال
تحيته تغلب كل خير	وتبعد عن كل ذى شر وبال
ونرجوا أن نفوذ به جميعا	بدنيانا وأخرى بالمع الى
ويسعدنا الآله بجاء من	حالك الله يا بن خال من دك الخلال
وانى فى حماه وجميع أهلى	وما أرجوه عن كل الامال
بفضل الله تم رضاه على	أروم بحبه نيل النوالى
فما أنساكموا فى كل وقت	بليل أو بصبح والزوال
فلا تنسانى وفى اللحظات أنى	غريق الذنب فى بحر الخيال
فما ك حفاء فى بعدادى	والكى أخاف من الكلال
قال زرنما لينا باجتهاد	وانى عدنا لقصدك واشتغال

وهذا الشعر إذا قيس بالشعر الصوفي لا يتعد عنه وتذكر له وفيه لرفعة الإنسان ووصفه بالكمال الذى لا يتصف به الا عز وجل والقصيدة بعيدة كل البعد عن الشعر الصوفي وهى تمجيد للفرد وعبادته وتشجيعه بالانبياء واعطائه من صفات الخالق عز وجل . .

كما اهتموا بحالات رجال الصوفيه ومتابعيها وتسجيلها لنشر بين الناس ويتابعها جميع الناس مثل ذلك قول الشاعر ن عيسى ولد كند :

ولد كئبد لما جاتته الحاله دقو له الزردات بالسنداله
المولى سمعانه وتعالى خـل النار له شلاه

هذا هو الموضوع الذى شغل الشعراء وجمعت الصوفيه الكثيرين من المنجذبين
غير المتعلمين والمهتمين بعلوم اللغة والدين وكما أسلمنا قل الاطلاع عند الكثيرين
من الصوفيه واكتفوا بالكرامات والخوارق مما عاد بالشعر من الفصحى إلى العاميه
والفصحى إلى العاميه إلى ثم لغة غير مفهومه غريبه على الفصحى والعاميه .
ومنتابع رحلة الشعر فى القرن التاسع عشر فى حديث عن الثقافة فى ذلك القرن .

حيث بدأت مرحلة جديده فى حياة السودان والثقافة العربيه ببدء القرن
التاسع عشر الميلادى وعاد الشعر إلى أصله العربى واخرج طلاب المعرفة
عالم الكتائب (الخلاوى) إلى عالم الازهر وأروقته وأخذوا من معارف
العرب وتراثهم .

.....

وقفه مع الثقافة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي

لمعرفة الحياة الثقافية والعلمية في القرن التاسع عشر الميلادي لابد لنا من معرفة الحياة العلمية في القرن الثامن عشر الذي اشتهر بمنطقتين رئيسيتين كان لهما الاثر المباشر في حياة الثقافة والفكر خلال القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين . وقد نبع هذا النشاط من منطقتين هما الدامر حيث أقام حمد المجذوب وأرض السروراب حيث أقام أحمد الطيب شيخ الطريقة السمانية التي غابت كل الطرق الصوفية في السودان وعلمهم مكانه وخرجت الكثيرين من جبال الصوفية والعلوم الدينية ومنهم الشيخ نور الدائم وتلميذه محمد أحمد الدنلاوى صاحب الثورة الثقافية والدينية على المعتقدات القديمة والجبل بالشرعية وعلوم الدين وعلى أنحراف الصوفية .

فقد خرجت مدرسة السمانية ثلاثة رجال كان لهم أثر في الثقافة والفكر في السودان أولهم الشيخ أحمد الطيب ونور الدائم والشريف محمد نور الدائم والعلامة محمد أحمد الدنلاوى تلميذه وزعيم الثورة المهدية .

الشيخ أحمد الطيب صاحب الطريقة السمانية إصله من قبيلة المجموعة ولد في منتصف القرن الثامن عشر الهجري أى في النصف الاول في القرن الثامن عشر الميلادي وتوفي عام ١٨٢٤ م . حفظ القرآن وعمره خمسة عشر عاما وسافر إلى مكة حيث واصل دراسته على يد الطب الكبير محمد السمان الذى له في العلوم والفقه وأخذ منه الشيخ أحمد الطيب الطريقة السمانية . ولما عاد السودان نشر الطريقة السمانية التي قامت جمع الطرق الصوفية . وقد كسب الشيخ أحمد الطيب

أحترام ملوك السلطنة السنارية وشيوخ العبد لاب ومنحوه الأراضي الواسعة التي
وهيها بدوره الاخرى .

ومما يدعو للوقوف ما جاء في مقال الشيخ عبدالله الطيب نور الدائم في
جريدة السودان العدد المشر بتاريخ ١٧/٩/١٩٠٣ .. وحكى أن جده أحمد
الطيب قد شمس من حكومة السلطنة السنارية والفوضى التي كانت تعيش فيها
وقارن تأخر بلاده بالبلاد العربية التي كان يزورها فرعى سلطات الحكومات
العربية لدخول السودان وتعميره وتطويره في الإدارة والتنمية . وقد كان نظرة
الاستاذ أحمد الطيب نظرة حضارية وذلك لاتاحة الفرصة للسودان ليحمل بالأمم
المتقدمة وبدور في فلسفها لثمر من الحظ والجهد وذلك لاستفادة من خبرة
تلك البلاد ولكن دعوته هذه لم تلق استجابة عدا لاتراك وذلك لجهل بخبرات
السودان وظنهم أن السودان بلد متوحش أهله من ازواج وليسوا من المسلمين
ومما سمعوه من الروايات الحرافية الكثيرة التي كانت تقال عن سكان
إفريقيةا . . .

وقد قال الشيخ عبدالله الطيب نور الدائم شيخ الطريقة السمانية بمصر بعد
أن هرب من يد الخليفة عبدالله ، قال لما عاد سيدى الشيخ أحمد الطيب من
الأراضي المقدسة وزار مصر وبنت المقدس والعراق وأكثر البلاد الإسلامية
ورأى ما فيها من التقدم وال عمران بالنسبة لحالة السودان أحب أن نصير بلاده
مثلا فكان لا ينفك عن دعوة الأهلين إلى التمسى إلى ضم السودان إلى حكومة
مصر والقضاء على دولة الهمج التي لا يرجى منها أن تسير بالبلاد في الطريق الذي
سارت فيه مصر والشام .

وقد كان أخوته وبنو عجمته القابضين على خطط هذه الدولة لهم منها
وظائف الورار وقيادة الجنود ومراتب الفضاء والكتابة وسائر خطط
الدولة . . .

أشار على الدولة بأصلاحها كثيرة وبث الرغبة في افئدة الكثيرين من
طلاب العلم ليغادروا ديارهم لطلب العلم حتى لو بالعدين فعاتت مساعية بالنجاح
وأنتشر علم الدين في الافاق بعد أن كان الناس يسافرون الأيام والليالي ليصلوا
إلى بيت علم يفتيمهم أو يعقد لهم نكحهم .

حديث الشيخ عبد الله الطيب عن جده أحمد الطيب يكشف لنا عن مركز
ثقافي هام أنشأه الشيخ أحمد الطيب بالقرب الخرطوم وقد نتج هذا الاهتمام بنشر
الثقة والعلم من الخبرة والضورة التي يراها الشيخ أحمد الطيب في البلاد العربية
التي كانت تعيش في أسوأ حالتها وكنوا رغم ذلك رأى فيها من مظاهر التطور
والعمران إذ افسح بحال السودان المتخلف تحت ظل السلطنة السنارية ، كما
يكشف لنا تأثير مدرسة الشيخ أحمد الطيب في تخريج الفضلاء والمعلمين والمستشارين
الحكومة السلطنة السنارية في عهد الهمج وذلك في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي
وبداية القرن التاسع عشر ..

مدرسة المجاذيب :

احتلت الدامر مكانة كبيرة في العصر الثامن عشر والمصور التي تلت ذلك
بفضل شيخها أحمد المجذوب ، حفظ القرآن على الغضبه عبد الماجد فقهه في خليل
والرسالة على الفقيه مدني بن محمد وعلى الغزاوي وعلم الكلام عن الحاج سعد
وحج إلى بيت الله الحرام وأخذ الطريقة الهوفية الشاذلية على يد الشيخ علي
الدرابي ..

وأنتعشت الدامر بحياته فقد قام للتدريب بها في شتى العلوم والفنون والأحكام وهو من جمع بين العلم والعمل .. وقد كانت تحاف منه الأعراب وقطاع الطرق وقد جاء في كتب بوكهارت في رحلاته في بلاد النوبة وصف مدينة الدامر له في ١٠ أبريل سنة ١٨١٤ م .

يقول الدامر قرية أو بلد كبيرة قدامها حسنة بيت وهي ضخمة تعمر في شكلها بربر لما فيها من المباني الجديدة ولخلوها من حرائب في بيوتها شيء من التسميق وشاردها منتظمة وتنمو في كثير من أرجائها الأشجار النورية الطلال ويسكنها عرب من عشير آل المخديب ويدون أصلها إلى جزيرة العرب وجههم من رجال الدين أو الفقهاء وليس لهم شيخ يتبعهم بل فقيه يسمونه "مفتي الكبير" وهو الرئيس المحلي والفاضل الذي يفصل في خصوماتهم ويشتغل بالحدود الذين أصبح هذا المنصب يفتوا عليهم من قدام بما تجب عقوبتهم من سحر وعرافين مهرة لا يحبب عنهم عيب ولا تقاوم لهم نممة .

ويخيل لي أن وظيفة المفتي الكبير وراثية ولا بد أن يتوافر فيمن يلزمه بطبيعة الحال الذكاء . وجاجة العقل والفقه في الشريعة لأن هذه كلها من مقومات وظيفته على أن الفقيه الكبير ليس ساحرهم الأوحد فغيره من الفقهاء الأقل شهرة كثير ون من يؤمن الناس بهم على قدر تقواهم وعلمهم وهكذا اكتسبت مدة الدامر بأسرها صيتاً دائماً وفي البلدة يمارس الناس التعلم في مدارس عدة يؤمها الطلاب من دارفور وسنار وكردفان وغيرها من أنحاء البلاد ليدرسوا العقيدة دراسة تتيح لهم أن يكونوا في بلادهم فقيهاً كباراً .. ويقتنى فقهاء الدامر من الكتب الشيء الكثير ولاكنها لا تقابل من المواضيع غير الدين والشريعة

ورأيت فيما رأيت نسخة من القرآن لا تنقل ثمنها عن أربعائة قرش ونسخة كاملة من تفسير البخارى تساوى ضعف هذا المبلغ فى مكتبات القاهرة وقد جلب هذه الكتب من القاهرة الشباب من فقهاء الدامر أنفسهم فكثير منهم يجاور الأزهر الشريف أو فى المسجد الحرام بمكة ويظلون سنوات ثلاث يعيشون على الصدقات والجرايات . فاذا عادوا إل الدامر علموا الطلبة تلاوة القرآن وأعطوهم دورسا فى التفسير والتوحيد ولهم جامع كبير حسن البناء ولكنه بلا مئذنة وأسندة عقود من الاجر وأرضه مفروشة بالرمال الناعم وجو الجامع ألطف أجواء المدينة وأرطبها وإليه يأوى الغرباء للتقيل بعد صلاة العصر ويلحق بالجامع مكان مكشوف تحيط به حجرات للدرس . . . والكثير من الفقهاء زاربا صغيرة إلى جانبهم واسكنهم لا يصلون فرضة الجمعة إلا فى الجامع الكبير ويحيط كبار الفقهاء لأنفسهم بظاهر الورع والتقوى ويعيش الفقهاء الكبار عيشة العابد المتقشف فهو يسكن بناء صغير يقوم وسط ميدان كبير من ميسادين البلدة . وقسم من البناء مصلى والقسم الآخر حجرة مساحتها نحو أنى عشر قدما يقيم فيها ليل نهار لا يبرحها ، بعداً عن أسرته وحيداً لا خدم معه . فلا أتباع وهو يعيش على ما يرسله له أسدقاؤه أو أتباعه من فطور وعشاء . وإذا كانت الساعة الثالثة تصراً بأرح حجراته بعد إعنكافه سحابة نهاره للقراءة والدرس ثم أتخذ مجلسه على مصطبة من الحجر أمام داره وألم به اخوانه وأتباعه فجعل يصرف أعماله حتى الغروب . . . وذهبت مرة لاقبل يده فراعنى منه محيا وقور وطاعة جليلة وكان يلتفت بعناية بيضاء تغطيه كله . . . وكان يجلس بجواره شيخ مغربى مكناسى قدم من مكة يشتغل عنده كاتباً ويصرف له كل أعماله الرسمية وذكروا لى أن هذا المغربى أستطاع أن يجمع من وظيفته مالا طائلاً .

ويلوح لى ان شئون هذه الدولة الدينية الصغيرة تصرف بمنتهى الحكمة والعقل وجيرانها يكونون للفقهاء أعظم الاحترام والاحلال . اقوا الرهبة فى قلوب البشارين الغادرين فلم يسمع أحد . انهم اعتدوا على دامرى يعبر الجبال من بلده الى سواكن : وأخوف ما يخافه البشاريون أن يقطع الفقهاء عنهم المطر يسحروهم فتهاك اغنامهم ومواشيهم .

أما الزينة والفنون فيقول بوكهارت عن أهل الدامر (ورين بسام الدامر) غرف جلوسهم بعدد كبير من الصحن الخشبية الواسعة ، يعتصمها على الجدران فيبدوا وكأنها الصور الكثيرة . أما الأرض فيغطها بالخضر الخيالة مخدعة الرسوم والألوان ولاغرو فالقروم خيرون بصنع خوص الدوم وكذلك رأيت بيض نعام وريش نعام أسود معلق على احائط فوق الباب للزينة .

مع الفن :

إذا وقفنا مع الفن فى هذه المنطقة حتى شمالها وجنوبها إلى منطقة أبو حمد والخرطوم نجد تشابه الحياة الطبيعية على النمل بالنبعة لشمال الدامر وبالسمة لجنوبها وتكاد الدامر أو نهر عطبرة بداية لوج ، د تربة جديدة جنوبيه وتتمه حيث تختلف النباتات الطبيعية بعض الشيء وتظهر أشجار الدوم والنخيل وفى الجنوب تبدأ الاراضى الواسعة على الشاطئ الصالحة للزراعة مثل زراعة القطن بكميات بسيطة بجانب الخضروات والذرة وتقوم على الشاطئ أشجار (السنط العربى)

وإذا أردنا أن نتبع الفن فى هذه المنطقة وسوف نجد الامكانيات الطبيعية

هى التى تشكل الفن وهى الدرم والنخيل والتربة الصلصاله عند الجزائر والشواطىء.
الولىة بعيداً عن الشاطىء. وبعض الاحجار والحصى . والمواشى وجلودها
وزعقها وقد استخالت هذه الامكانيات استغلالا مختلفا عبر العصور فقد استعملها
الفراعنة للعبادات وتجميل المامد وزينة النساء واستخدمها المسيحيون لاستخداماً
جديداً فى التعبير عن البساطة وحياة المسيح والعذراء. واستخدمها سكان البيل
بعد دخول العرب والاسلام زينة للمنازل وللنساء وحياة المنزل وهو استخدم
يتطور بتطور الفكر الدينى وليس الفكر الجمالى ، فالجمالية قد أختفت فى العصور
الوسطى بعد دخول العرب واصبح الاهتمام بالاشكال الجميلة نبع من الترف
والانحراف الدينى واصبح الجمال هو جمال الروح وأجتهدوا لتعويض هذا النقص
فى مظاهر الجمال الصناعى بخاق جمال معنوى نابع من الاحلاق والعادات
والتقاليد ...

وقد ظهر نوع من الزخرفة فى ملابس الدوايش والصوفية فى العصور
الوسطى أمتد حتى القرن العشرين كان فى مجموعه تعبير عن عدم الانسجام
وتنافر الالوان وكأنهم أرادوا يخلق انطباعات مختلفة بأختيار الوان صارخة
متنافرة لا تدل على الانسجام والتصادفة ،

أما الموسيقى والرقص فقد أخذت نفس الطابع سائرة مع اشكال التطور
المختلفة ، فقد استخدمت الموسيقى والرقص فى تأدية الشعارات الدينية فى العصور
الفرعونية حين إنتقلت الحضارة الفرعونية إلى منطقة مروي أما فيما سبق هذا
العصر فقد كانت الايقاعات تعبر عن الفرح والسرور والحزن والخوف والاستعداد
والرقصات نفسها كانت رقصات ايقاعية وكانت الموسيقى هى الضرب على الايدى
والارجل وآلات النفخ البسطة من النباتات ثم تطورت الموسيقى والرقص
المصاحب لها تعبيراً عن المشاعر الدينية فى فترة الوثنية الفرعونية وذلك أثناء

طقوس المعابد واحتفالات النيل والزرع والحصاد والموت والزواج والنختان . .

وإذا تابعنا عطاء هاتين المنطقتين الدامر وشمال الخرطوم حيث أقام السبانية والمجاهدين نجد تجمعاً كبيراً من طلاب القراءة وحفظ القرآن والعالمين للإمام ببعض أمور دينهم وقد كان لعلم هؤلاء الصوفية بين تلك المجموعات الجاهلة أثر كبير بجانب التقدير الصوفي الذي احاط بهم وأعطاهم مكانة اجتماعية جعلت قبول تعاليمهم وأرشاداتهم الدينية مقبولة ومحترمة أكثر من رجال العلم الذين فقدوا هذه الميزة الصوفية .

حمل التلاميذ هاتين المنطقتين رسالة العلم رغم بساطة المعرفة التي كانت تعطى لهم إلا أنها كانت برعاً متميزاً القامح الطيب في القرن التاسع عشر على يد الفتيح التركي وحضور الوفود العلوية مع الفتيح التركي من قضاة ومعلمين وخروج الطلاب إلى أروقة الأزهر والاقامة به على نفقة محمد علي باشا ليعودوا عمالاً في دولته الجديدة .

.....

رفاعة رافع الطهطاوي في السودان

لماذا أتبعنا آثار النهضة الثقافية في العالم العربي في بداية القرن التاسع عشر بعد حملة نابليون نجد أن روادها الأوائل اتجهوا جميعهم إلى الثورة الفرنسية . . ففرنسا بعد ثورتها واءلان الجمهورية . . . وخلق طبقة وسطى قوية أصبحت حلم كل مثقف ومتطلع إلى عالم الحرية والعلم والفكر .

فقد انجذب الثورة الفرنسيه رجال من المفكرين مثل جان جاك روسو وكما انجبت الثورة الفرنسية رجالا مفكرين خدموا الفكر الانساني والثقافة الانسانية . . وقد حملت الثورة الفرنسية المواقف الطبقية وجمعت بين انصار الفكر والحرية في مشارق الارض ومغاربها .

ومن هؤلاء الرواد الاوائل كاتب ومجاهد مصري كان له الفضل الكبير في بعث النهضة التعليمية والثقافية وحمل لوائها في صدق واخلاص واجتهاد وهو رفاعة رافع الطهطاوي المولود ببلدة طهطا . حيث حظ بها القرآن وأجاده كبقية أبناء تلك الفترة ثم أرسله والده للأزهر الشريف لينزود من علم الأزهر وليتخصص في علومه .

وقد كان الطالب رفاعة رافع الطهطاوي طالب مجتهداً لفت نظر معلميه لاهتمامه بعلومه ونبوغه وقد نعت تعليمه بالأزهر رجال أفاضل منهم الشيخ الفضال والششيخ المطار وقد أهله نجاحه للتدريس بالأزهر لمدة عامين .

وقد عرف عن محمد علي باهتمامه لانشاء دولة مصرية قوية لتقف قوية منيعه

لإمام أطلع الاستعمار واتسكن في مناعة ترهب المتطاعين إلها . ولذلك أدرك أن نهضة مصر وقوتها تكمن في أبناءها فخطط لذلك بالاعتماد على أبناء مصر في إدارة شئونها فأخذ يبعث بالبعث التعاميمية في كافة العلوم إلى فرنسا وقد استفادت مصر والنهضة العربية من أولئك الرواد الأوائل ومنهم شيخنا رفاعه رافع الطباطبائي . .

وحين أرسل محمد علي بعثة من أبناء كبار . وطني دواته سأل الشيخ العطار أن ينتخب لهذه البعثة اماما من علماء الأزهر فوفق الشيخ العطار في اختيار رفاعه رافع الطباطبائي لهذه البعثة .

وقد كان الشيخ طمحا للمعلم ما أن خط رجله على الباخرة الراحلة إلى أوروبا وإلا بدأ في تعلم اللغة الفرنسية ... وهناك في الثورة تفتحت عقلية الشاب الأزهرى المتطلع للمعالم ووجد المحل مفتوحا لكل راغب ويجتهد . وإحدى اللغة الفرنسية خير أداة حتى أصبح من سيرة مترجمي العلوم الغربية إلى العربية وقد ساعده على طموحه العلمي العالم الشهير هوسيه جومار هم العالم البارون دساس فكان خير عون له لبنتها زينة على كمون المعرفة والعلم .

ثم عاد الشيخ الأزهرى إلى مصر بعد أن تمكن من إجادته اللغة الفرنسية والاطلاع على العلوم الحديثة في أوروبا .

عاد رفاعه نائرا . تشبها بالروح الفرنسية وشيرة أقطبه الوطني .

عاد عالما ومفكرا ووطنيا مخلصا فأولى إلى إنشاء مدرسة الألسن بالقاهرة

— ٣٦٦ —

لتخريج طلبة ليعملوا في الدواوين وليجيدوا اللغة الفرنسية. ثم ما لبث أن اختلف مع محمد علي وأساتذته فقرر نقله للسودان .

وكان السودان بالنسبة لاي مواطن ذلك الوقت كالمنفى بل هو منتهى حقيقى بما عرف عنه أخبار وأن أهله يعيشون في حالة بدائية وراحت. مثل هذه الاخبار ولذلك كان يتخوف منه كل من يرسل إليه .

وفي الخرطوم عاصمة السودان حط الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى رحاله وأنشأ فرع لمدرسة اللسان انضم إليها أبناء كبار الاعيان لتخريج الكتبة الذين يعملون في دواوين الحكومة .

وقد استفاد السودان من هذا الشيخ كل فائدة في وطنه بعد رائد من رواد الثقافة والفكر في مصر .

إلا أن المدرسة لم تستمر حيث كانت حرارة الخرطوم وسوء المعاملة التي لقيها الشيخ وزملائه مما قضى بوقف المدرسة بعد إن ثوفيا بالخرطوم زملاء الشيخ رفاعة حيث رأى في حياة الخرطوم في ذلك العهد منفى حقيقى ، فبى بالنسبة للمدن السودانية الأخرى مدينه جديده ليس بها أى شىء غير المرتزقه وحياه السفخف ، ولم تسعد الخرطوم الشيخ فصار يرسل النوسل تلو التوسل لرؤساءه يستعطفهم العفو عنهم واعادته إلى السودان وقد سحل لنا فى لبق كتبه شيئا عن السودان بما فى ذلك قصيده هجا فيها الخرطوم وحياتها القاسية التي اذا قورنت بما رأى من حال المدينه والحضارة فى فرنسا تعد أكثر من بدائيه إذا أمكن هذا الوصف وهذا ما تكشفه لنا قصيدته .

ولقد رأيت في طريقى ببلاد الشافعية بمديرية دنقلة حرم منجق يدعى الملك
الازرق تسمى السيدة آمونة تقرأ القرآن الشريف ومؤسسة مكتبتين أحدهما لغلمان
والآخر للبنات كل منها لقراءة القرآن وحفظ المتن تنفق على المكتبتين من كسها
بزراعة القطن وحليجه وغزله وتشغيله ولا ترضى أن يشوبه شيء من مال زوجها
وبجانب المكتبتين خلوات لمن يختبئ من العباد والزهاد الحاضرين من أصى
البلاد دام فريضة الحج الشريف ومنزلها كالتكية الفقراء وأمام السبيل والقاصدين
بيت الله الحرام وأمثال ذلك كثير هناك في ظل الحكومة المصرية

وما يدل على حسن مقاصد المرحوم محمد على أنه في عودته من البلاد السودانية
استصحب معه عدة غلمان من أبناء وجدة السودان إلى مصر وأدخلهم في المدارس
المصرية ليتعلموا مبادئ العلوم ثم نقلهم إلى مكتب الزراعة ثم إلى مدرسته الخاصة
وكان القصد من ذلك أن يذوقوا طعم المعارف العلمية لينشروها في بلادهم
وقد شاهدت بعضهم مستخدمين بمديرية الخرطوم بوظيفة كاتب ويغلب على نفس
أنه بواسطة تنظيمات معادة شاهين دانت الأخيرة المؤسسة على حب قديم الحمية
المدنية وهذه معادة جعفر باشا صاحب الاطوار المدنية التي تمكن إيصال النفقات
العصرية بعناية الحكومة في أطراف وأكفاف تلك البلاد التي هي الآن لم تكن
قراها عن نوع التقدم في الحضارة مع سياسة الوارد والمتردد والمزدهر القاري
لقصد الزيادة أو التجارة فأنها أقرب لتتبدل من اقليم أمم بكما يتبين وحدها
ما عدا بعض الجبال لسانهم عربى فصيح حيث أن حالهم من نسل العرب مستجعة
القبائل قديما يحفظون أحسابهم وأسابهم ورفيقهم كما لا واستعداد أو ذكاء المخطوطة
يحتاجون في حصول المطلوب إلى الطمئنان النفوس وتأليف الملوك من حكام

أرباب صداقة وعفاف وعدل وانصاف لآحلمهم المطامع الديونية على حصص
الائتمات إلى الامور الدينية بل توجد القبلية أيضا عند الاهالى
المتأصلين .

ويدل على هذا ما حكى عن الخليفة أبى جعفر المنصور عما جرى بين عبد الله
بن مروان بن محمد وبين ملك النوبة عما ذكره المؤرخون فى حق الملك المذكور
مع أنه كان من ملوك السودان المتأصلين إذ لم تكن القبائل العربية
انتجعت إلى السودان ولا تسلط على هذه الاقاليم ملك من أهل الاسلام ولا من
العربان وهو أن أبى جعفر المنصور حضره ليلة عبد الله على وصالح بن على فى
نقر معهم فقال عبد الله بن على يا أمير المؤمنين ان عبد الله بن مروان بن محمد
لما هرب إلى بلاد النوبة جرى بينه وبين ملكها كلام فيه أعجوبة سقط عن معظمه
فأن رأى أمير المؤمنين ان يرسل اليه لخصرنا ويسأله عما ذهب عنا وكان المجلس
فارسل اليه أبو جعفر فلما دخل قال له : يا عبد الله — قال ليلىك يا أمير المؤمنين
قال أخبرنى بحديثك وحديث ملك النوبة قال يا أمير المؤمنين هربت بمن تبعنى
بأثاث سلم لى إلى بلاد النوبة فلما دخلت بلادهم فرشت ذلك الأثاث فجاء أهل
النوبة متعجبين حتى أباع ملك النوبة حضورى فجاء معه ثلاثة نفرلة فاذا رجل
طويل آدم أغبر مستوى الوجه أملسة فلما قرب منى قعد على الأرض وترك
البساط قلت ما يمنعك ان تجلس على اثاثنا هذا قال إني مالك وحق لكل ملك أن
يتواضع لعظمة الله إذا رفعة الله قال ثم نظر إلى فقال لم تشربون الخروهى محرمة
عليكم فقلت عبيدنا أتباعنا يفعلون ذلك بالجمل منهم قال فلم نجسسون الديباج
والحرير وتتحلون بالذهب وهو محرم عليكم فقلت زال عنا الملك وأنقطعت المادة
واستنصرنا بقوم من الأعاجم كان هذا زيمهم فكرهنا الخلاف عليهم فاطرق
يدلب يده ويقول عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا فى ديننا يكرر الكلام على نفسه

ثم نظر إلى وقال ليس ذلك كما تقول ولكنكم قوم ملائكة فظلمتم وتركتم ما به امرتم
وركنتم إلى ما عنده نهيتهم فسلبكم الله الاموال والبسكم الذل بذنوبكم والله فبكم نعمة لم
تبلغ غايتها بعد وانا اخاف ان تنزل بكم العقوبة وانتم ببلدى فتصيبني ملك وارتحلوا
عن جوارى انتهى . فقام ابو جعفر وفيدا من كلامه فدخل حجره وقال الله
تعالى واذا اردنا ان هلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول
فدمرناها فدمروا قال المفسرون فى الآية حذف دل عليه بايها اى مرنا مترفيها
اى منعهم بالطاعة فخالفوا ففسقوا فدمرناها فدمروا انتهى - فبالا موعظة
بضياء من الملك اسود ولعل ملوكهم فى الازمان القديمة كانوا كصالحهم لال عى
قدم عظيم من الاستقامة وطريقة قوية واما مريض معرض للدم فى حق أهل
السوان فهو متوجه عام جهور أهل البلاد وهم العبيد والمولودون ومريخه وحذوه
من رعاى اهالى تلك البلاد ارباب الدنانة والخسة .

وفى سنة سبع وسنين ومائتين والالف كنت مسافرت إلى اسدال تسعى
بعض الامراء بقمهين مستقر بوسيلة نظارة مدرسته بالخرطوم فاجلت خورالاربع
سنتين بلا طامل وتوفى نصف من بمصطفى من النماذج المتبرين فظمت هذه
القصيده برسم المرحوم حسن ياشا كتحدا مصر وجاء فشى من اوحال تحت
الاحوال فلم يتيسر ارسالهم ثم اسعد الخالك بتيدك مر المصطفى بالحن الذى
هو حال وذلك عقب تخميس القصيدة نبوية برعية متوسلا فيه بشفاة صغير
البرية وها هى القصيدة الاولى : -

ألا فادع الذى ترجو ونادى	يجبك أن تكون فى أى نادى
فن غرس الرجا فى قلب	أصاب جنى التجارب الحصاد
ومن حسن الخلائق سلة صنعا	جميلا وهو زوى الجراد

وحدث عن وفاخل وفي
ورب أخ تلهي عنك يوم
بنوا الاداب آخوان جميعا
خلاق عنصر كل تغذى
وآداب الغنى تعلية يرما
وآدابى تسامى بي الدرارى
ومالى لا آتيه بها دلالا
إلى سبل الفخار تقود حزمى
عصامى طريق المجد سعيا
سوى نسب الملوهم إلى انتساب
حينى السلاله فاسمى
لسان العرب ينسب لى غارا
وحسبى انى ابرزت كتبها
فمنها منبع العرفان يجرى
على عدد التوانر معربا
وماطرون يسهر وهو عدل
ومقترفو فراح قات درسى
ولاح لسان باريس كشمس
ومحي مهر احيا كان قدرى
سأشكر فضله مادامت حيا
ساعى الختان عهد زمان مهر

بموسل حية فى القلب بادی
قرب وداده أند ودادی...
واخوان بمختلف البلادى
بأثره الملا دون اقتصاد
إلى الانجاد من بعد الوهاد
على شفى وتبلغنى مرادى
وقد دلت على هج الرشاد
وفى ميلا نه عزم انقيادى
عظامى شريف بالتالاد
إلى خير الحواضر والبوادى
بطامط معشرى وبها مهادى
ويد بىتى إلى مس الايادى
تليد كتابنا يوم الطرادى
وكم طرس تجبر بالمدادى
نفى بقنون سلم أو جهاد
وتتمسكوا بقراء بلا تهادى
وقد اقترحو سقاية كل حادى
يقاهرة المعز على عمادى
وكافأنا على قدر اجتهادى
وماشكرى لدى تلك الايادى
وامطر ربها صوب العهداد

ووصلت بصفقة العنود عنهما
 ما السودان قط مقام مثلي
 بها ريح السموم يشم منه
 عواطفها صباحا ومساء
 نقلا تعجب اذا طخوا خليطا
 ولطخ الدهن في بدن وشعر
 ويضرب بالسياط الزوج حتى
 ويرتق ما يزوجه زمانا
 واكره الفتاة على بقاء
 فليحجته المولد وهو غال
 لهم شغب بتائم الحواري
 وشرح الحال منه بضيق صدرى
 وضبط القول فالأخيار تزر
 ولولا البيض من عرب لكانوا
 وحسبى نقلها بنصيب صحبى
 وقد فارقت اطفالا صغارا
 تفكر فيهم سرا وجعرا
 وعادت بهجتى بالنأى عنهم
 لأريد وصالهم والدهر يأبى
 وطالت مدة التقريب عنهم
 وما خلت العزيز يريد ذلى
 لديه سعوا بالذبة حداد
 هبازيل الفضائل خادعوني
 وخرق قولهم إذ موهوه
 رفصلى في سواها في المزد
 ولا سماوى فيه ولا سعادى
 وميز لظى فلا يطنيه وادى
 دواما في اضطراب واطراد
 بمنح اعظام مع صافى الرمار
 كدهن الابل من جرب القراد
 يقال اخو بنات فى الجلال
 ويصعب فتق هذا الانسداد
 مع الدمى ارتصوه باتحاد
 بدرغبات دوما باحثاد
 على شبق مجاذبة السعداد
 ولا يحصيه طرسى أو مـادى
 وشر انساس منتشر الجراد
 سوادا فى سواد فى سواد
 كان وظيفتى عبسى الحداد
 بطهطا دون عودى واعتبادى
 ولا سمرى يطيب ولا رقادى
 بلوعة مهجة ذات اتفاد
 مواصلى ويطمع فى عنادى
 ولا غنم لدى سوى الكساد
 ولا يصغى لاختصاص لداد
 فكيف صغى لا لسنة حداد
 وهل فى حرمهم يكبوا جوداى
 على تزيينه نادى المنادى

فهل من صبر في المعنى بصير
 فياس مدارس قالوا غقيم
 وكان البحر منهج سفن غرضي
 ثلاث سنين بالخرطوم مرت
 وكيف مدارس الخرطوم ترجى
 نعم ترجى المصانع وهي أخرى
 علوم الشرع قائمة لديهم
 خدمت بموطني زمنا طويلا
 فكنت بمنحة الاكرام اولى
 وغاية مطالبي عودي لاهل
 وصبري ضاع منذ اشتد خطبي
 وكم حسنا دعوت لحين حالي
 وارجو صدر مصر لشرح صدرى
 وكم بشرت ان عزيز مصر
 وحاشا ان اقول مقال غيرى
 لقد سمعت لو ناديت حيا
 وفن دار العزاة لي عياد
 امير كبار ارباب المعالي
 عروفي المعنى لا يسارك
 بواخر فضلك الركبان سارت
 وقال في معارفه فريد
 وفي الاحكام مالوا لا يضاهي
 وقالوا وفي الذكاء ذكا فقلنا
 وقالوا وافق الحسن المثنى
 وبحر حجاج يبدو منه در

صحيح الانتقاء والانتقادي
 بمصر فما النتيجة في بعادي
 فكنت الان اعرف في التهاد
 بدون مدارس طبق المراد
 هناك ودوتها خرط القناد
 لتأييد المقاصد بالمبادئ
 لمغرب المعاش أو المعاد
 ولي وصف الوفاء والاعتقاد
 بعقد للتعيش مستفاد
 ولو من دون راحة وزاد..
 وهون الخطب عند الاشتداد
 وكم نادى فؤادى يا فؤادى
 وجهد الطول في طول النجاد
 تفدوه بالفكاك ولم يفاد
 وذلك ضد سرى واعتقادي
 ولكن لا حياة لمن تنادى
 يقيني نسيب اظفار العوادي
 ففى في سرعة العرفان هادى
 بمضار العمل طاق الجياد
 وغنى باسمه حاد وشاد
 فقات وفي الرئاسة وفر افراد
 فقات وذو تحر واجتهاد
 وثقت ذهنه وارى الزناد
 فقلت وكم حدا بالوصف نقاد
 لغواص العلوم بلا نفاد

- ٣٧٣ -

فيا حسن العقال اغث اسيرا	بسجن ارنج يحى ذا القياد
عليه دوائر الاسوار دارت	وطالت وفق اهواء الاعادى
وقد فوضت للهولى أمورى	وزاعين الاصابة والسداد
عسى للهولى يقول امضوا بعبدى	فينةضى لى بتقريب ابتعادى
وما نظم القريض برأس مالى	ولاسترى اراه ولا سنادى
ووافر يحجره ان جاد يوما	فمدوحى له وصف الجواد
وليس لبكر فكرى من صداق	سوى تلطيف عودى بلابلادى
فما يسمى ذراها من بيوت	وزان فى حماسها شداد
ومسك ختامها صلوات ربى	قام طه المشفع فى المعاد
وآل والصحابة كل وقت	مواصلة الى يوم التناد

هذه شكوى رجل كان يعد نفسه من رجال الفكر ، هيم نفسه لخدمة مصر فاذا به يقذف بعيداً عنها لا يستطيع ان يعطى معرفته وعلمه حيث كان عليه ان يبدأ مع كليته فى أول سنين الدراسة ، وهو الذى عاد من فرنسا ليجاهد فى الفكر ويفتح العقول المستعدة بالعلم لتقبل فكره وعلمه لاتعليم الطلبة والكتابة والقراءة .

.....

القرن التاسع عشر

تأثير حملة نابليون عام ١٧٩٨ م على مصر لم يكن فاتحة خبر لبعثة الحركة الثقافية والعلمية في مصر وحدها بل كان فاتحة خير للسودان ولبقية الدول العربية وعلى الثقافة العربية .

لقد ظل شمال النيل مرتبطاً بخنوبه كل ما ينعكس عليه يصل تياره إلى الجنوب وإلى سكان السودان حتى لو بعد حين . فقد كانت حملة نابليون وضم الخسائر المادية والبشرية التي تعرضت لها مصر والقاهرة خاصة إلا أن القليل الذي خلصته هذه الحملة كان شهلة جديدة وقيساً طيباً لذلك السراج العربي القديم الذي خربت زبالة بعده قرون منذ ذهاب الدولة الفاطمية وتدهور الحضارة السياسية والفكرية وإضطراب الأمور ليس في مصر وحدها بل في جميع بلدان الشرق الأوسط . وما زاد ركود الحياة عامة في البلاد العربية إمتداد يد الظلام على يد الحكيم التركي العثماني الخنق، كل يد غلافة وكل فكر ثاقب ويسحرم أبناء البلدان العربية كل فرص النمو والمشاركة إذا استورد كل حكماء المجرمين متى تركيا لانزال العقاب والذل بكل من تسول له نفسه بالتمرد والاحتجاج . . . وعاش الاتراك فسادا وقسوة في البلاد العربية واخذوا كل شيء ولم يعطوا شيء روح أي أمل للعمل والنموض . . . ووقفوا أمام كل شيء علمي وأمام كل عمل عاقل حتى انتهت الحياة العلمية والفكرية ، عاد الناس لا يقرؤن العلوم لا يتبادرون فيها ولا ينفرون منها الأخفية . . . كانت هذه الحياة العامة في البلاد العربية أما في السودان قبل هذه الحملة فقد وصلت الحياة السياسية إلى أسوأ حالات التمزق واستنفدت الحكيم السناري كل مقومات الحكيم اذ لم يطور الحياة انما قسم

في كراسى الحكم يسيطر على التجارة والقو فل التجارية وجماية الضرائب وعاش البيت السنارى لنفسه ولم يعيش لمعاكته . . . فلم يخطر ببال ملك من ملوكهم حتى العظام كالشيخ عجيب في تحسين حال البلد او تطوير نظام الحكم والاستفادة بخيرات الشعوب الاخرى

عاش البيت السنارى مقفولا على نفسه لا يفتح الباب الا للذين له مصلحة هيهم أو الذين يرغب في التعرف اليهم .

لا يبنى ذلك انه كان ذكيا اما يعنى انه كان يفهم الحكم على انه وراثة ولا يوجد في البلاد من يتناول تلى هذا الحق . . نعم لم يفكر أهل البلاد في شأن هذه الوراثة لان الحكم لم يكن له تأثير كبير على حياتهم ولان الحياة العامة نفسها لم تتعرض لهزات كبيرة حتى تدخل الدولة وتفرض سلطاتها وهيبتها . . . فالشيخ أو الزعيم هو الذى يعرف السلاطين والحكام لارتباطهم . . اما القرية والمجتمعات الصغيرة فلم تتأثر بهذا المثل لانه منه قديم ولم تتغير فيه شىء الحق الذى يأخذه منه ومن أجدادهم في القديم زاد بشىء بسيط ليدفع الضرائب التى عليه السلطان . . ومشا كل القرية محاولة ومشا كل القبيلة محاولة بين المجموعة . . ولم يباد الناس ان يخرجوا من هذا الطاق الصغير لعرض مشاكلهم على نطاق اوسع . فنفس الأسلوب الذى كان متبعيا قبل السطة السنارية ظل ساريا بعد ثلاثه قرون من قيامها لم تتغير في وجه المجتمع شىء فان كان هناك تطور ظهر على المجموعات من الناحية الثقافية والعامة فهو تطور طبيعى تقتضيه سنة التطور وليس للسلطنة السنارية فيه اى يد .

دولة لانت لها كل القبائل والعشائر وسلمت لها طواعية فلم تخشى استلام

هذا القيد ولم تحاول ان تطور حياة هذه المجموعات التي وكلت اليها أمرها وشئونها . . . بل اطمأنت إلى هذا الاطمئنان الذي أعطى لها وعاشت في فلك العادات الملكية والصراع الطبيعي الذي يدور في اسرة حاكمة فالاسر الحاكمة تخلف لنفسها من المشاكل لو تفرغت اليه ما يشغلها عن كل هموم الدنيا ودسائس الاعداء ونزغيات الحياة . . . هكذا عاشت السلطنة السناوية دولة منفردة على نفسها لم يكن لها مجلس يخطط . ولم تكن لها دوائر لجميع أوجه النشاط الانساني بل ربما فكرت فيه وحجمت عن أى نشاط خوفا من الحسارة المادية .

بل كانت لها الرئاسات الكبيرة لشئون المال والعساكر وهو أمر ضرورى وحيوى وبدائى جدا في اى مجموعات نشأت هاتين الوظيفتين وظهورهما لابعنى تطور الحكم السناوى .

لو تبعنا حياة هذه السلطنة منذ القرن السادس عشر الميلادى حتى نهاية القرن الثامن عشر الذى تطور هذه المملكة من الداخل والخارج .

كان يمكن ان تكون هذه السلطنة وسلطنة دارفور من أعظم الممالك الاسلامية لانتقلت الامكانيات العلمية في البلدان العربية التي تهدمت فيها أسس العمران والاستقرار . . .

فقد عاشت البلدان العربية الاسلامية في حالة من الفوضى وفك كل شئ عن التقدم ووقفت العلماء في حيرة من امرهم فالاحسان الذى كان يأتيه من القصور وقف عنهم بل انشغل عنهم بمشاكل فوق قدرة القصور والقائمين عليها . وفي مثل هذه الحالات يهرب رجال العلم والفكر الاراضى الجديدة التي يشع

منها الاستقرار ويمجد فيها رجال العلم والفكر كان بالبلدان العربية حركة علمية طيبة رغم ذلك الاضطراب ولكنها كانت تبحث عن مأوى يجمع تطلعاتها وكان العلماء وهم أكثر الناس ابتعادا عن حياة المعارك والقتال إلى حياة العلم والدروس والتقدير والاحترام ... كانت تلك الحركة العلمية التي تمسكت باهداب بعض الرجاء في جاحة إلى منقذ وهي كالغريق تنقاذها الامواج ... وطال بها الانتظار ... وبلغها يم الحياة وغرقت تلك الامكانيات العلمية ... فان كان لحكام المملكة أى السلطنة السنارية تلك اليد الممدودة وتلك الدعوة المسموعة وذلك التكريم الذى يسرى مع الريح يجلب الى سنار كل رجال العلم والفكر ... والرجال الذين اتوا لسنار وبعثوا الحياة العلمية فى ارجاء السودان ووضعوا اللبنة الأولى للحركة العلمية والاسلامية كالشيخ القصير راجل العرب والشيخ تاج الدين البهارى وابراهيم البولاد واخوانه اولاد جابر .

الحركة العلمية والثقافية والاسلامية التى ظهرت فى السودان لم يكن السلطنة السنارية فيها أى مجهود بل كان ذلك المجهود الضئيل هو مجهود افراد . . وما يؤيد هذا رأى إن كل العلماء الاحانب الذين جاءوا للسودان من رجال السودية أو من رجال العلم سكنوا بعيدا عن سنار . . وكل الحركات العلمية وكل الرجال الذين اشتهروا فى هذا الميدان بعيداً عن سنار فإن كان لسنار أى فضل أو كانت يدها مبسوطة لدعاة العلم تدعوه وتكرمهم لكانت خلقت حركة ثقافية ولكانت جمعت كل أشتهات الفكر العربى واحتضنته وبعثته من جديد الا ان اهتماماتها لم تصل إلى هذا الحد الذى وصلت اليه بغداد وحلب والقاهرة والاندلس . . . لقد وصلت لذلك المستوى مع تلك الظروف المهيئة للنمو والتطور خلال ثلاثة قرون لكان السودان اليوم شيئا آخر . . فهى لهم تقدم

للعلم أى خدمة ولم تهتم به . . وان كان لها اهتمامها بالزائرين من رجال العلم والصرفية فهي اهتمام السودانى الكريم الذى لا يتخلل عن ضيفه . .

فلو بحثنا عن رجال العلم والاماكن التى استقروا فيها منذ القرن السادس عشر لوجدناهم بعيدو عن سنار وربما بعيداً عن نفوذ سنار بل اختاروا جانب العبدلاب فى شمال النيل .

فعند الشايقين استقروا أولاد جابر وعون الله وعند الدناقلة تلامذتهم سكنوا بعيداً عن فرى وعن سنار والسماينة سكنوا فى طيبة قرب السوروب وأرض الجزيرة كانت مأوى لكثير من هؤلاء العلماء منها شندى وبرير والحلفاية وتونى واريحى والميتمة وسنار وكردفان .

فاذا بحثنا فى النظام الادارى لسلطنة سنار فلا نجد أى تحسين أدخلته على نظامها منذ انشاءها حتى سقوطها بل ظلت تطبق نظاما اداريا قديما لم تعدل فيه ولم تطوره حتى وصل اليها بكل مساوئه وخيراته . . واذا نظرنا فى نظامها الاقتصادى فلم نحاول ان تطوره بل جعلت التجارة وهى تجارة القوافل الكبيرة وتركوا لبعض المعاهرين بعض الفرص للتعرض لحياة القوافل التجارية بالحراسة ولم يقوموا بافشاء الابار ونقط الحراسة من قطاع الطرق الذين كانوا يشكلون خطرا كبيرا على التجارة وقصة (الرباط) الرباطى المقيم فى القرن الثامن عشر وما كان يفعله بالقوافل التجارية الداخلة على برير والخارجة منها ببعيد ولم تستطع اى السلطة الحاكمة ان تذذب اليه وكان الامر لا يعينها وحوادث قطاعى الطرق وانتشارهم وازدياد هذا النوع من التكبس يكشف

من ضعف هذه الادارة حتى انتشر هذا النوع من العمل وجذب اليه الكثر من
وأصبح لقطاع الطرق وزن كبير في الحياة العامة .. واحتلوا مكانة كبيرة في
الادب .. الشعبي والغنائي ..

أما في الزراعة فلم يحاولوا أن يطوروا أسلوب الزراعة المطرية ولا ساليب
نقل الماء من النيل وظلت كل أشكال الحياة العامة كما هي وانشغلوا بما يهم الملوك
وهي حياة القصور والوراثة والملكية حتى انتهوا على أيدي الهمج ..

ربما يظن أن لمملكة سنار يد كبيرة في تطور الثقافة أو العلم أو الادارة -
فالحياة العامة منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادي إلى نهاية القرن الثامن عشر
لم تتطور في السودان تطورا ملحوسا وان كان هنالك أي تقدم أو تطور هو تطور
طبيعي يحدث لكل المجموعات البشرية حينها لا تجد عوائق لهذا التطور والحسنة
التي أتت بها سلطنة سنار إنها أوجت بالنظام وأوقفت القتال بين القبائل
ومحاولة تسلط بعضها على الآخر .. وأتاحت الفرصة للحياة العامة أن
تتطور نموها الطبيعي ومهدت للثقافة العربية أن تنتشر ببطء وللتعاليم الاسلامية
أن تتصلح مع المعتقدات القديمة وثنية كانت أو مسيحية وليكنها من جازها
لم تحاول أن تفسد الثقافة العربية أو التعاليم الاسلامية إنما كل ما حدث كان
من نشاط الأفراد والمجموعات وحاجة الناس لهذه العلوم والمعرفة تعاليم دينهم
الذي كانوا لا يعرفون عنه شيئا حين قامت هذه السلطنة وكما جاء في مخطوطه
ودضيف الله وكاتب الشونة عن الحياة العامة قبل السلطنة السنارية أن
الرجل كان يطلق المرأة ويتزوجها غيره في نفس اليوم دون تنمة

العدة . . . وهذا الجهل بتعاليم الدين لم يجد التخطيط السليم لمحوه بل ظل حتى ظهور المهدي ومطالبته بتطبيق الشريعة التي كان يجهلها معظم الناس حتى ضج ذلك الشاقي من تعاليم الاسلام ودعوة المهدي فصاح قائلاً :

لامريسى ولا طنيمير ولا تنباك ولا سنجير

ودعه كله من مهديك الكبير وعقرباً تطقك يا محمد الخير

فشملت السلطنة السنارية في أن تخلق جهازاً إدارياً وأن تنهض بالحياة العامة السودانية واستعانت بقبائل تفلئ لمسانرتها على حفظ العرش من الداخل ومن المؤامرات الداخلية التي تحاك عادة في القصور وبين الأسر الحاكمة الكبيرة القديمة حتى مهدوا لظولاء الجنند في مملكة تفلئ أن يستولوا على زمام الحكم وأن يبعدوا أهل البيت عنه .

وان كانت حياة السودان العامة في ظل السلطنة السنارية على هذا الوضع فاهل السودان كانوا في أحسن حال إذ ما قورنر ببقية الدول العربية التي سقطت تحت نفوذ حكم المملكة العثمانية . . . فقد ترك سلاطين سنار للناس أن يطوروا حياتهم ولم يوقعوا ضد هذا التطور ولكن ما حدث لبقية البلدان العربية أن المملكة العثمانية التركية وقعت أمام تطور هذه البلدان . . . وقعت أمام التطور الطبيعي ولم تقدم أى بدلرفع الحياة العامة بل خنقت كل محاولة للحركة حتى شلت كل شيء لينام الشرق في سبات عميق من أول القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ودخل نابليون الاسكندرية ومعه علماءه ومنكره به

ليخططوا له ملكة جديدة وليحتفظ بطرق الهند الذى كانت تملكه البضائع
البريطانية .

ربما لو لم يأتى نابليون ومعه ذلك العدد الهائل من العلماء والمفكرين الذين
تأخروا بمصر لما حدث هذا التطور ولما افادوا الحياة ولما افغثوا نظر المصريين
بأن هنالك عالم غير عالمهم وان هنالك علم غير علم الازهر وان بقايا التراث
التي خلفتها الشعوب العربية لاتساوى شيئا بالنسبة لافكار جان جاك روسو
وفولتير وغيرهم من المفكرين الغربيين . . . وربما لولا حضارة مصر القديمة التي
أغرت العلماء بالبقاء بالقرب منها ومحاولة تقبلها والبحث عن معانيها حتى توصل
شامبلون إلى معرفة الخط الهيروغليفي ما استفاد الشرق تلك الفائدة بقدر علاقته
يركب العلوم الانسانية .

كان ذلك الجزء من حملة نابليون الذي ضم العلماء هو الخير في تلك الحملة
، فتح باب الحياة الجديدة لأبناء مصر . . . وتساعد الظروف مصر بان يحكمها
ملك له طموح وله افكار وله تطلع بعيد وفي نفسه تمرد على السلطنة العثمانية وهو
ابنها محمد علي باشا .

كان محمد علي طموحا وفهمه للحكم متطور وكانت افكاره . . . الخلق مملكة
خاصة به جعلته يبحث عن امكانياته المحلية في الادارة والمال وخلافه . . . فوجد
المرصنة في فرنسا التي كسرت القيد الممكي وبذرت بذور الجمهورية على الممالك
القديمة واندثرت فيها العلوم فارسل اليها أبناء مصر الذين يثق فيهم لتلقي العلم
والنموض بالحياسة المصرية في جميع مجالاتها حيه حضورهم . . . كان يخطط لكل

شئ رأى امكانيات مصر لاننى بأحلامه . . . سمع عن الذهب فى السودان . . .
فالتفت نحو السودان . . . للاستفادة من ذهبه ورجاله . . .

وسأل عن السودان فعرف ان به ممالك هرمة . . فى الشمال مشيخة الشايقية
التي تمردت على العبدلاب ثم مشيخة العبدلاب . . . والسلطان غر . . ثم بقايا
ملك سناار التي استولى عليها الهج وسلطنة دارفور فى غرب السودان . .
ارض واسعة وخيرات كثيرة وقبائل متفرقة . . . امكانياتها متخلفة . والذهب
كما قيل له كثير لا يجد وجرى جيشه عام ١٨٢٠ بقيادة ابنه اسماعيل وسار الجيش
ولم يجد عقبه فى طريقه حتى ارض الشايقية الذي رفضوا الخضوع للجيش المزدود
بالنفاق والمسايق حتى عقد اسماعيل معهم صلحا وخدمهم وضمهم الى جيشه
وسار الجيش وتم له فتح السودان وكان الجيش يستعين بأهل البلاد والقبائل
المختلفة لقتال القبائل الأخرى

كان دخول جيوش محمد على للسودان له مذايا عدة وربما لو لم يتقدم محمد
على وهم ايجاد الذهب لما تطور السودان وحدث له ما حدث لمصر بدخول نابليون
وعلماءه . . .

فعل محمد على مثلما فعل نابليون فى مصر بل ربما استفاد من فكرة نابليون . . .
وحين أرسل جنوده الى السودان أرسل معهم بعض العلماء من الأزهر وبعض
رجال الصوفية حتى يؤثروا فى الناس وما تطلبه الظروف ليتخدوا الامن ثم
يستعين بهم بعد ذلك فى ادارة مملكته الجديدة . . .

كانت الادارة فى مصر فى عهد محمد على هى ادارة حكومية منظمة لها دواوين

حكومية بكل فرع من فروع الادارة والعمران . اما في السودان فلم تمكن قد وضعت هذه اللجنة بعد ... ودخل جيش محمد على السودان وهو يحمل خطة لحكم البلاد على أسلوب حديث وخلق إدارة جديدة تقوم على نظم حديثة ومتطورة بالنسبة للإدارة المحلية التي كانت سائدة

كان لدخول محمد على السودان ميزتان — أولهما توحيد ممالك الصغيرة السلطنة السنارية — داوود والشايقية في دولة واحدة هي السودان ثم كانت الميزة الثانية وهي ادخال ادارته الحديثة في السودان وما يتبع ذلك الادارة من أساليب التطور والتقدم والعلوم .

كما قلنا أرسل محمد على ابنه اسماعيل لارض الذهب فمات اسماعيل محترقا بين نيران الحطب والقصب على احدى الملك مساعد وشقيق الملك نمر ... مات اسماعيل وكان صهره قد تم فتح دارفور فعاد ليجد رماد الجسد ورماد الحطب فاشعل النار من جديد وشفى الرماد بالدماء ظلنا منه ان الدم المسفوك يمكن أن يحيى الدم المحترق ... وطارد الملك نمر واحوه وقبليته ولم يشنى غلبته تلك الدماء التي ارانها من اجل اسماعيل

حزن محمد على لوفاة اسماعيل ولكنه كرجل حرب ورأس دولة لم تذبذبه هذه الوفاة عن حلم الذهب — فبحث عن المعدنين وارسل الخبائير لأراضى الذهب وعانت البعث وتقاريرها لانتشجع باستخراج الذهب . . فالذهبية التي عثروا عليها قليلة ولا تكفي تكاليفها ولم يصدق محمد على . . كل أحلامه التي وضعها في السودان ونسى موت ابنه من أجلها تضاعف بكلمات

الخبراء ... الذهب موجود في السودان هذا اعتقاده ... الذهب موجود في السودان ...

وفي عام ١٨٣٨ م بعد ان فشلت كل جهود حكامه في ارسال الذهب اليه سارده الشك وفضل الذهاب إلى السودان بنفسه وهو يرى كل امكانياته المادية لا الحربية التي ارسلها إلى السودان لتأتي له بفائدة لبقوى دولته واسطوله وليستطيع ان يقف على دول أوروبا وانجلترا ويجعل له اسطولا قويا يمنع سفن القرصان من الاقتراب من شاطئه وبحره .. ولكن المال الذي كان عنده ضاع والامل الذي كان يرجو منه أن يسنده لرفع مستوى اسطوله باحضار الذهب من السودان ولى ...

ولم يثق بتقارير الخبراء والفنيين ... واعد رحلته الشهيرة افازوغلى والخرطوم واخذ معه الخبراء والفنيين ... وذهب إلى ارض الذهب وجلس ا بقرب الخيام ينظر إلى تراب الذهب ويسأل اهل البلاد عن الذهب التي يتحدث الناس عنه والخبراء يقولون له ان نسبة الذهب هنا ضئيلة جداً ...

ويعرضون عليه العيّنات وهو يراقب الحفر والنقيب والتصفيية ولكن الذهب كذب وضاع الحلم الكبير الذي كان يحلم به محمد على في استغلال ذهب السودان في تطوير جيشه واسطوله ومملكته وليقف قويا امام الدول الاوربية والانجليزية ...

الحكم التركي في السودان :

(من ١٨٢١ — ٢٥٧١ تحت سلطة الدفتردار اسماعيل)

(۱) الامیر لای عثمان بك (۱۸۱۵ - ۱۸۲۶)

كان ظالما وحكم البلاد في أوج اضطرابها واعتمد على خيرات البلاد التي
دمرتها الحروب .. اشهر حكمه بالظلم والفساد والاعتداء ولانه على سلب حق
الناس وذلك لاضطراب الأحوال العامة وعدم استطاعة الادارة الجديدة من
ابقاء كل مطالب الادارة وشهدت امكانيات البلاد من جراء الحرب
فعاث الناس في خوف وجوع . . . توفي بالسل في ابريل ١٨٢٦

محوك ١٨٢٦ .

لم يدر كثيرا . . أول ماء مكر فيه هو اشراك أهل البلاد في الحكم
لبنينهم في حفظ الأمن وكسب ثقتهم -- عين الشيخ عبد القادر والذي كان
شيخ خط . . . فقلده شياخة في الكوع ومنحه كسوة فاخرة . . ثم شيد بناية
خاصة للإدارة الحكومية في الخرطوم . .

خورشید باشا (۱۸۲۶ - ۱۸۲۹)

من السحام المحفكين الذين أرسوا قواعد الادارة والنظام في البلاد انبع
نظام الاستفاده بخبرات أهل البلد واستعان بالشيخ عبدالقادر في تعديل الضرائب .
وفلاهم مشيخة البلاد من حجل النسل إلى جبال الفرج ونخاع عليه كسوة
فأرسلهم .

افتقد الظلام الذي سبقه، وكنت في العيوب التي جاء اليكم الجلاء، ركتهم جميعاً!

- ٢٨٦ -

تقرير لمحمد علي وعلى بالاسلوب الحديث على تطوير الزراعة وإيجاد الأمن والاستقرار بين أهالي البلاد . .

وخطط للتعليم والصناعة بالسودان . . عمده مدينة الخرطوم في عهده . .
وأدخل بناء المنازل من الطوب وزار محمد علي السودان في عهده . . وكذلك في
الحياة العامة .

أحمد باشا أبو ودان ١٨٣٢ — ١٨٤٢ م

وجد سلفه خورشيد باشا قد خطط له الحياة والادارة فمار على خطاه
وطور الادارة ونظم الدواوين وشجع الملاحة وبناء السفن ضم بعدد الاقاليم
إلى السودان كاقليم النكا في سنة ١٨٤٠ ووسعت الفتوحات المصرية في السودان
الشرقي واحضعت الحدائق عند نهر الفاش وتمردت عليه قبائل الهمدندوة . .
قبيلة المحاربين الاقرياء المهاجرين وجمعت فراسنها وشمال كسلا في غبابة وهيساي
والكلية . . الا انه استطاع بفكره أن يتغلب عليه . . اذ فكر في منع ماء
الفاش عن الغابة التي يجتمعون بها فطشروا شمس أشمل النار في الغابة فذعروا
وخرجوا حتى خضعوا له بعد أن انسحب شيخهم . .

بعد أن فتح شرق السودان وعاد للخرطوم وولى على كسلا مدير قسم
السودان إلى سبع مديريات :

(١) فازرغلي (٢) ستار (٣) الخرطوم (٤) كسلا (٥) برير

(٦) دنقلة (٧) كردفان

- ٣٨٧ -

أحمد باشا المتكلى (١٨٤٤ - ١٨٤٥)

فى عهده عادت قبائل النابا كاللنمرود من جديد فاستعان بشيوخ القبائل وكبار
الأنوم منهم الأرباب محمد وقع الله والشيخ عبد القادر الذين والشيخ أبو أو محمد
كبير الشاكرين

عبد اللطيف باشا (١٨٥٠ - ١٨٥١)

عمل على صلاح الإدارة فى فترة الركود التى حلت بهامه خالد باشا فزال
الظالم... وجدد ديوان الحكومة وحضر فى عهده رفاعة رافع الطمطارى
أبشيه فرع مدرسة الألسن (المدرسة الأميرية ومعه بيومى بك ...

وصل الشيخ عبد القادر إلى أعلى منصب سودانى وهو وظيفة معاون
الحكومة مع مشيخه عموم الجزيرة

على باشا شركس (١٨٥٥ - ١٨٥٧)

عمم البلاد فى عهده مرض (المراء الاصفه) وماك خان كبير منهم الشيخ
عبد القادر شيخ مشايخ الخرطوم وسنار... خلفه إبراهيم الزين الذى ذهب إلى مصر
هعين معاوناً فى نظارة الداخلية....

زار سعيد باشا السودان... ثم دين اراكيل بك نوبار حاكماً للسودان

(١٨٥٨ - ١٩٥٩)

ثم حكم بعده حسن بك سلامة ثم محمد بك لغاية عام ١٨٦٢ م ثم هوى
باشا حماد لغاية ١٨٦٥ ثم خلفه جعفر بك صادق ليخلفه في نفس العام جعفر
باشا هاشم ثم ممتاز باشا إلى عام ١٨٧١ ثم اسماعيل باشا إلى أن استلمه
غردون عام ١٨٧٧ ثم محمد مروق باشا في عام ١٨٨٠ حتى عام ١٨٨٢ وشم جله
بعده عبد القادر باشا في مايو ١٨٨٢ حكمدار

ماذا خلف الحكم التركي

يصعب علينا أن نتبأكي الآن على الفوضى التركية التي عمت السودان في
القرن التاسع عشر وأدخلته في ثلاثة حروب اشتكرت فيها كل القبائل. تعرضت
للطش التركي القاسي وبشارة حتى خضعت وسخرت لأخضاع بقية القبائل لأشراك
القبائل مع بعضها لاسكات الفتن الداخلية بعد الثورة المهدية ثم عودة الحملة على
الثورة المهدية وإعادة فتح السودان من جديد .

حملة إسماعيل باشا

كانت حملة إسماعيل باشا لفتح السودان وتوحيده على حساب المستعمر
القبائل والأفراد وإدخال الفوضى بمحاولة هذه الحملة التركية لأرغام الناس
للخضوع والخضوع الذي لم يتعودوه

إطلاق يد المظالمين من الباشا مروق لاجبي الضرائب وحفظ النظام أمته
الضرر في يدشين مجرم قاضي لا يعرف الرحمة ولا الكرم

— ٢٨٩ —

كانت عملية توحيد الممالك الثلاثة وإخضاع أمراء فيها مشقة على الجيش الغازي إذ عليه أن يحارب ثلاث دويلات هي الشايفية واسنار والمبدال ودارفور الأمر الذي عرض جميع السكان لبطش هؤلاء الغزاة ففقدوا فيه الكثير من خيرتهم ورجلهم واستقرارهم ومحاولة تسخيرهم للعميل بالحيش للمساعدة في فتح الأقاليم الأخرى فيه من الإذلال أكبر وأعظم فقد استعمل الشايفية لضرب النجاليين واستغل الاتنين لضرب سنار ودارفور حيث لم تستسلم هذه الدويلات والقبائل لهذا الغازي باسم الإسلام إذا كان منقطعاً في المقاومة لا يحق لمسلم أن يقتلوا مسلماً

لرسالة عدد عظيم من أبناء السودان للجنيد في جيش الخديوي
ج (رسالة الأولى) الأتباع والرجال الداعية ميرانية الخديوي في تحقيق أحلامه
التي هي من مصر يحفظ السلام داخل مصر ويساعد على الفتوحات خارجها
الأمر الذي قلل من الأذى المتوقعة من الرجال الشهاب وكذلك ذهب
كثير من خسائرته لجيش الخديوي ولمنذبه به الذي فرضوا عليهم بالقرعة
على الأفراد مستغلين طرق الإذلال والبطش وحتى أدخلوا الكراهية بكل
صورة وهدأ صد الحكم التركي وفي إشعار تلك الفترة ما يكف غضب الناس رضى عنهم -
بالحكم التركي

بالدرة المهدية

لأن الناس حول المهدي وهم كارهين لحالهم وحال الحكم التركي فلانين
في هذا الشرح الخلاص والراحة ولكن كيف الخلاص من هذا الناس العنيد

الابدية. قوة أكبر ووحدة أكبر وكان مالا مفرداً. وهو الاحتكام للحرب والتمرد
أولاً. بهذه الثورة الخلاص من ذلك الكابوس إلا أن الحرب استمرت وشملته
البلاد جميعها واشتركت كل القبائل فيها حتى كان النهر للمهدى وانصاره وقبائل
السودان. وظن الناس بانتصر المهدي يعني الراحة والاطمئنان والاستقرار
والعودة للحياة الطبيعية بعد هذا التشرد والتغرب عن الديار وفقدان الأهل
والأرض والأقارب ولكن المهدي لا ينتظر ليحقق لهم أمنهم إلا أن تعرض
بعد أن استولى على الخرطوم عام ١٨٨٥ م واستمرت حركة الثورة المهدية من
عام ١٨٨٢ إلى ١٨٩٧ م في ثلاثة حروب الأول لاجلال الاتراك والانجليز
من السودان والثانية لتأديب قبائل الماريجة على طاعة عبد الله التعايشي ثم
محاولة عبد الله التعايشي لغزو مصر وعودة الجيش المصري الانجليزي لفتح
السودان مرة أخرى ثم عوده الانجليز وجيش الخديوي لاعادة النظام وتأديب
التمردن حتى عام ١٩١٦ بالقضاء على ثورة علي دينار

هذه هي مظاهر السياسة للقرن التاسع عشر وما خلفته من فقر وإرهاق
للكاينات البلاد والناس ولعدد الضحايا الهائل الذي راح من أجل هذه المعارك
حتى يبدو لناظر أن هذا القرن كان قرن الظلم والتخلف بالنسبة للشعب السوداني
ولكن رغم هذا المظهر الخارجي للمكبوت والتكبل إلا أن هنالك قوة أخرى
كانت تنمو وهي قوة العقل وذلك باتساع مدارك الفرد العادي وإثباته بأمو
عديدة ورؤية شعوب جديدة ونحكاكهم بالنظم جديدة لإثباتها. وهذا
المظهر الخارجي الأسود للقرن التاسع عشر . .

القرن التاسع عشر وعطاءه

رغم ما تعرضت له الديولالات السودانية المبعثرة على مساحاته الشاسعة من تخربة وما عانتها القبائل من بطش إلا أن هذا القرن كان مفيداً في توحيد تلك الديولالات في دولة واحدة وتوحيد كل تلك القبائل في قومية واحدة هي السودان الحديث .

لإستقرار السودان في الادارة الحديثة المطورة نسبية عن إدارة الشايفية ودارفور وسنار وعرف نظام الإدارات الحديثة .

الأزهر في هذا القرن

كان للأزهر أثر كبير على المعرفة في السودان في هذا القرن وفيه أنشئت الأروقة السودانية ولطلاب العلم وضمان عيشهم والاعتناء بهم في عهد بدأ فيه الأزهر يفتتح في جديد للعارف العقلية ويشهد نشاطه .

وأول ما وصل إلى السودان من خير الأزهر العلماء والقضاء الذي أسلمهم محمد علي باشا إلى السودان من خير الأزهر والذين كان لهم أثر كبير في نشر الثقافة الدينية في البلاد وخلف علاقات عامة وجامعة ولم تكن الخطروم في ذلك الحين البلد الطيب ذا المدايح التي تسرف في مدينة جديدة أنشأتها الادارة التركية لم يظهر عليهم علامات التحضر والمدنية

غير مدينة للجنـد والذين يخدمونهم وترتبط معيشتهم بوجود هؤلاء
الجنـد والمستخدمين المدنيين الذين يعملون في دواوين الدولة الجديدة .

رغم أن الخرطوم كانت قرية قديمة قبل الفتح التركي يسكنها بعض المزارعين
لألا أنها لم تكن ذات أهمية تذكر قبل القرن التاسع عشر وخاصة بعد أن عطلت
حصارة سويـه على أيدي قبائل الشالك

بهنس

معجم البلدان

(أهناس) بالفتح اسم لموضعين بمصر أحدهما اسم كورة في الصعيد الأدنى يقال لقصبها أهناس المدينة وأضيفت نواحيها إلى كورة البهنسا . وأهناس هذه قديمة اذلية وقد قرب أكثرها وهي على غرب النيل ليست بعيدة من القسطنطين وذكر بعضهم أن المسيح عليه السلام ولد في أهناس ذات النخلة المذكورة في القرآن المجيد (وهى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) موجوده هناك وإن مريم عليها السلام أفادت بها إلى أن نشأ المسيح عليه السلام رسارا إلى الشام رجاها ثمار وزيتون . ولها ربة دحية بن مصعب بن الأصمعي بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم خرج منها على السلطان وقصد الواح وغيرها ثم قتل سنة ١٦٩ هـ . وأهناس الصخرى في كورة البهنسا أيضا قرية كبيرة .

بهنسا : بفتحين وسكون السين ونون والف قلعة حصينة عجيبة بغرب مصر عرش وسيمساط وبرستاقها هورستاق كيسوم مدينة نصر بن شبت الخارج . في أيام الأمون وقتله عبد الله بن طاهر وهو على سن جبل عال وهي اليوم من أعمال حلب .

البهنسا : بالفتح ثم السكون وسين مهملة مقصور مدينة . مصر الصعيد الأدنى غرب النيل وتضاف إليها كورة كبيرة وليست على ضفة النيل

وهى عامر كبيرة كثيرة الدخل وبظاهرها مشهد يزار يزعمون ان المسيح واهله
اقاما به سبع سنين .

وبها براني عجيبة وينسب اليها جماع جماعة من اهل العلم منهم أبو الحسن
أحمد بن عبد الله بن الحسى ابن محمد العطار البهنسى حدث عن يحيى بن نصر
النجولاني توفى في شهر ربيع الأول سنة ٣١٤ وأبو الحسن علي بن الفاسم بن محمد
بن عبد الله البهنساوى روى عن بكران سهل الدمياطى وغيره روى عن أبو نصر
علي بن عبد الله .

• • •

النوبة

وخلفهم أمة يقال لهم علوا بن ملك النوبة وبينهم ثلاثة أشهر وخلفهم أمة أخرى من السودان تدعى أسكنة وهم وعلوا عراة لا يلبسون ثوبا البتة إنما يمشون عراة وربما سبي بعضهم وحمل إلى بلاد المسلمين فلو قطع الرجل أو المرأة على أن يستتر أو يلبس ثوبا لا يقدر على ذلك لمعله إنما يدهنون إيشارهم بالادهان ووعاء الدهن الذى يدهن به فلفته يملأها دهنا ويوكى رأسها بخيط فتعظم حتى تصير كالقارورة فإذا لدغت لإحدهم زبابة أخرج من فافته شيئا من الدهن فإذا دهن به ثم يربطها ويتركها معلقة . وفى بلادهم ينبت الذهب وعندهم بقة قى النيل ومن وراء مخرج النيل الظلمة . ونوبه أيضا بلد صغير بأفريقية بين تونس وإقليميا . ونوبه أيضا موضع على ثلاثة أيام من المدينة له ذكر فى المغارى وإفريقية أيضا ناحية من بحر تهامة تسمى بالنوبة لأنهم سكنوها ونوبه أيضا هضبة حمراء بجزيرة الحوآب فى أرض بنى عبد الله بن أبى بكر بن كلاب وفى حديث عبد الله بن حجر خرجنا من مليحة نوبه ذكره الواقدي .

النوبة

(نوبة) يضم أوله وسكون ثمانية وبذ مدحدة والنوب جماعة من النحل ترعى ثم تنوب إلى وضعها فشبه ذلك بنوبة الناس والرجوع مرة بعد مرة وقيل النوب جمع نائب من النحل والقطمة من النحل تسمى نوبة شبيهوها بالنوبة من السودان . وهو في عدة مواضع . النوبة بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر وهم نصارى أهل شدة في العيش أول بلادهم بعد أسوان يهلمون إلى مصر فيباعون بها . وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه صالح النوبة على أربعمائة رأس في السنة وقد مدحهم النبي ﷺ حيث قال من لم يكن له أخ فليتخذ أخا من النوبة وقال خير سبيكم النوبة . والنوبة نصارى يعاقبه لا يطأون النساء في الحيف ويغتسلون من الجنابة ويختنون . ومدينة النوبة اسما (دمقلة) (دنقلة) وهي منزل الملك على ساحل النيل وطول بلادهم مع النيل ثمانون ليلة ومن دمقلة إلى أسوان أرل عمل مصر مسيرة أربعين ليلة ومن دمقلة إلى أسوان إلى الفسطاط خمسة ليال ومن أسوان إلى أرنى بلاد النوبة خمس ليال وشرقي النوبة أمة تدعى البجة ذكروا في موضعهم وبين النوبة والبجة جبال منيعة شامخة وكانوا أصحاب أوذان وقالوا والنوبة أصحاب ابل ونجائب وبقر وغنم ، وللملكهم خيل عتاق وللعامة براذين ويرمون بالنيل عن القسي العربية وفي بلادهم الحنطة والشعير والذرة ولهم نخل ركروم ومقل وارك وبلدهم أشبه شيء باليمن وعندهم اثرنج مطرط العظم وملوكهم يزعمون انهم من حمير ولقب ملوكهم (كابيل) وربما (قابيل) ، وكتابته إلى عماله وغيرهم من كابيل ملك مكرى ونوبه وخلفهم أمته .

البجاء

(بجارة) يفتح الواو — قال الزمخشري بجارة أرض بالنوبة بها ابل فرهه واليهما تنسب الابل البجاوية منسوبة إلى البجاء وهم امم عظيمة بين العرب الحبش والنوبة .

البربر

ذكر هشام بن محمد أن جميع عمالة الاصمهاجة وكتامة فانهم بنو إفريس بن قيس بن مفي بن سيام الأصغر كانوا معه لما قدم المغرب وبنى إفريقية فلما رجع إلى بلاده تخلفوا عنه عمالاً له في تلك البلاد فبقوا إلى الآن وتناموا .

أسماء قبائلهم :

هواره - امتاهه - خربسه - مفيله - درفجرة - ولطيه ومطماطه ، وصهاجه - نفزه - كتامة - كوانه - مزانه - ربوحه - نفوسه - لمطه - صيونه - معموده - غماره - مكتاسه - قابله - واريه - اتينه - كوميه - سخود - أمكنه - خربزانه - قحاطه - حيره - برائن - واكلان - قصدران - زرنجي - برغواطه - لواطه - زواوه - كزوله .

بربرة

هذه بلاد أخرى من بلاد الحبش والننج واليمن على ساحل بحر اليمن وبحر الفرنج وأهلها سودان جداً ولهم لغة برأسها لا يفهمها غيرهم وهم بواد معيشتهم من صيد الوحوش وفي بلادهم وحوش غريبة لا توجد في غيرها منها الزرافة والبربر والكركدن والنمر والهمل - وغير ذلك وربما لا توجد في سواحلهم العنبر وهم الذين يقطعون مذاكر بعضهم بعضاً . وقد ذكرت ذلك وسنتهم فيه في الزبلع وذكر الحسن بن أحمد بن يعقوب الحمذاني اليمني وقال ومن الجزائر التي تجاور سواحل اليمن وجزيرة بربره وهي قاطعة من سواحل اليمن ملتصقة في البحر بعدن من نحو مطلع سهيل إلى ماسرق عنها وفيها حاذي منها عدن وقابله جبل الدخان وهي جزيرة مستوية عما يقطع أن عدن ثابتة على السموت ، وأما صفة صيدهم سندس غير واحد ممن دخل بلادهم أن عندهم نوعان من الثمن يشبه الحبان يجمعونه ويصنعونه ويستخرجون ما هم يطمعون به حتى ينفقوه ويصير كالزيت .

— ٢٩١ —

بربرة

هذه بلاد أخرى

المريسة (ينتج اوله وتخفيف الراء وياء ساكنة وسين مهملة — جزيرة في
بلاد النوبة كبيرة يجلب منها الرقيق .

مريسه بالفتح ثم الكسر والتشديد وياء ساكنة وسين مهملة قرية بمصر
ولاية من ناحية الصعيد اليها ينسب الحمر المربسية وهى من أجرد الخيروامشاما .

« والحمار حينما يشرب المريسة لاشك سوف يشى سريعا حزباً فى التخدير
والشبع »

ينسب اليها بشر بن غيات المريس صاحب الكلام مولى يزيد بن الخطاب
أخذ النقه عن أبى يوسف القاضى صاحب أبى حنيفة ثم اشغل بالكلام .

انشدنى أبو القاسم النحوى الاندلسى الملقب بالعالم لبعض المغاربة يهجو
البربر .

رأيت آدم فى نوحى فقلت له أبا البرية ان الناس قد حكموا

ان البربر نسل مثلنا قال انا حواء طائفة ان كان ما زعموا

— ٣٩٩ —

مقرى

(مقرى) بالضم ثم السكون وراء والفاء مقصورة تكذب ياء لانها رابعة من
أفرت النافذة تقرى فهى مقرية والمكان مقرى اذا شبت ماء الفحل فى
رحمها : قرية على مرحلة من صماء وبها معدن العقيق :

(مقرى) بالفتح ثم السكون وراء والفاء مقصورة تكذب ياء نجيشها رابعة قرية
بالشام من نواحي دمشق هكذا وجدناها مضبوطة بخط ابى الحسن على
بن عبيد الكوفي المتقن الخط والضبط وكذا نقله ابن عرى فى كتابه
والمحدثون واهل دمشق على ضم الميم قال البجترى

أما كان فى يوم الثنية منظر - ومستمع ينبى عن البطشة الكبرى
وعطف ابى الجيش الجواد بكره - مدافعة عن دير مروان أو مقرى .

(مقرى) يضمّتين وتشديد الراء — بلد بأرض النوبة افتتحه عبد الله بن سعيد
ابن أبى سرح سنة ٣١

العلاقى

العلاقى حصن فى بلاد البجّة فى جنوب أرض مصر به معدن التبر بينه وبين
مدينة أسوان فى أرض فياحة يحتفر الانسان فيها فان وجد فيها شيئا خرم
منه للمحتفر وجزء منه لسلطان العلاقى وهو رجل من بنى حنيفة من ربيعة
وبينه وبين عبدان ثمان رحلات .

— ٤٠٠ —

كانم

كانم بكسر النون من بلاد البربر في أقصى المغرب في بلاد السودان وقيل
كانم صنف من السودان وفي زماننا هذا شاعر بمراكش المغرب يقال له الكانمي
مشهور له بالاجادة ولم أسمع شيئاً من شعره ولا عرفته اسمه قال البكري بين زويلة
وبلاد كانم أربعون مرحلة وهم وراء الصحراء في بلاد زويلة ولا يكاد أحد يصل
اليهم وهم سودان مشركون ويزعمون أن هناك قوماً من بني أمية صاروا اليهم
عند محنتهم ببني العباس وهم زى العرب وأحوالها .

• • •

فهرست الكتاب

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٢٣	السودان بين الركود والعزله بعد القرن الثالث للميلادى		خريطة وادى النيل تقديم جماعه بحث التاريخ السودانى كلمة المؤلف
١٣٣	عادات أهل مصر فى العصر الفرعونى		السودان
١٤٥	الكنبسه وماقدمته للحضارة	١٢	أصل سكان السودان
	فى السودان	١٣	نظاره على المجتمع الأول
١٥١	المسيحيه فى السودان	١٥	تطور المجتمع الزراعى الأول
١٦١	القرن السابع للميلادى	٢٨	مجموعات السهل
١٦٤	نشاط الحركة الثقافية فى العصور الأولى للإسلام	٣٤	الحضاره قبل القرن الثالث للميلادى
١٦٧	تخطيط العرب لنشر الثقافه والفكر العربى	٣٩	تطور الفنون ونشأتها فى السودان
١٧٢	دخول العرب والإسلام السودان	٥٠	الآلهه عند الفرس
١٨٦	النوبه	٧٢	المقابر الماسكيه بمجنتى بلانده وقسطل
١٩٥	العرب فى السودان الشمالى بعد حكم الفاطميين	٧٣	موائد وقرايين من العهد المروى
	سكان غرب السودان ودخول العرب	٧٩	حضارة السودان الفرعونيّه
١٩٨	العرب فى شرق السودان	٨٠	دولة نباتا
٢١٣		١٨	نبذه عن ماوك السودان العظام
		١١٣	دولة أ كسوم المسيحيه فى الجانب الشرقى من السودان
		١١٩	

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣١٤	نشأة الصوفية في الاسلام	٢٢٧	الظروف الخارجيه التي ساعدت
٣٢٠	الصوفية الاوائل		على ركود السودان
٢٢٥	وجه التشابه بين الصوفية والرهبانية	٢٣٢	الفاطميون في مصر
٢٢٨	الشعر	٢٤٠	أثر الثقافه العربيه في السودان
٣٢٩	تاريخ الشعر العربي في السودان		حتى القرن السادس عشر الميلادي
٣٥٦	وقفه مع الثقافه في القرن الثامن	٢٥٣	السلطنة السناريه
	عشر والتاسع عشر الميلادي	٢٦٦	عمارته دونقس
٢٦٤	رفاعه رافع الطهطاوى في السودان	٢٧١	تطور الثقافه العربيه في عهد
٣٧٤	القرن التاسع عشر الميلادي		السلطنة السناريه
٢٨٤	الحكم التركي في السودان	٢٨٨	الحركه الثقافيه قبل وبعد السلطنة
٢٩٣	معجم البلدان		السناريه
		٢٩٥	الصوفيه والديانات الافريقيه

الحضارة العربية وأثرها على شرق السودان
 قبل ظهور الاسلامية ثم جعلت من الدراسات
 الافريقية التي ظهرت أساسا لافريقية السودان
 القديم وحاولت أن أجد الصورة القديمة
 التي عاشت بعيدة عن أثر الحضارة الفرعونية
 وحاولت أن أشير إلى الحضارة الافريقية
 بما فيها من عبادات وفنون ونظم اجتماعية
 ثم تابعت تاريخ المسيحية في الشرق وفي
 وادي النيل والهضبة الحبشية من خلال
 نشاط المسيحية في شمال النيل والهضبة الحبشية
 استطعت أن أتوصل إلى حال المسيحية في
 السودان وما قدمته للسودان .

كما أضفت إلى ذلك دراسة عن حال
 الثقافة العربية وتطورها في السودان ونشأة
 الصوفية في البلاد العربية وتاريخ وصولها
 إلى السودان مع مقارنة حال الصوفية
 بالسودان بالنسبة للصوفية الأولى وتعاليمها
 وفكرها .

كما حاولت أن أتبع الصراع بين
 الافريقية والفرعونية والمسيحية والعربية
 والاسلام داخل السودان حتى القرن التاسع
 عشر الميلادي .

المؤلف

حسب الله محمد أحمد

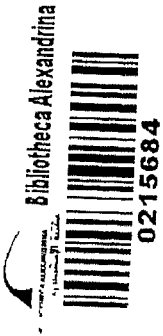
عضو جماعة بحث التاريخ السوداني

الناشر

دار يوليو للترجمة والنشر بالقاهرة

صمم الغلاف

الفنانه مرسى فؤاد



جامعة بحث التاريخ السودانى

التمن ٥٠ قرشاً